

دراسات في البلاغة

عند ضياء الدين بن الأثير

دكتور

عبد الواحد حسن الشايجي

كلية التربية - جامعة اللاذقية

مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
كليفوت: ٤٩٣٩٤٧٢ - إكندية

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ مصطفى الصاوي الجويني

الاسكندرية

أحمد الوالد في سكرتير الحفل
الدكتور مصطفى الحفصاني
عبد الوالد

دراسات في البلاغية

عند ضياء الدين بن الأثير

دكتور
عبد الواحد حسن الشيخ
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

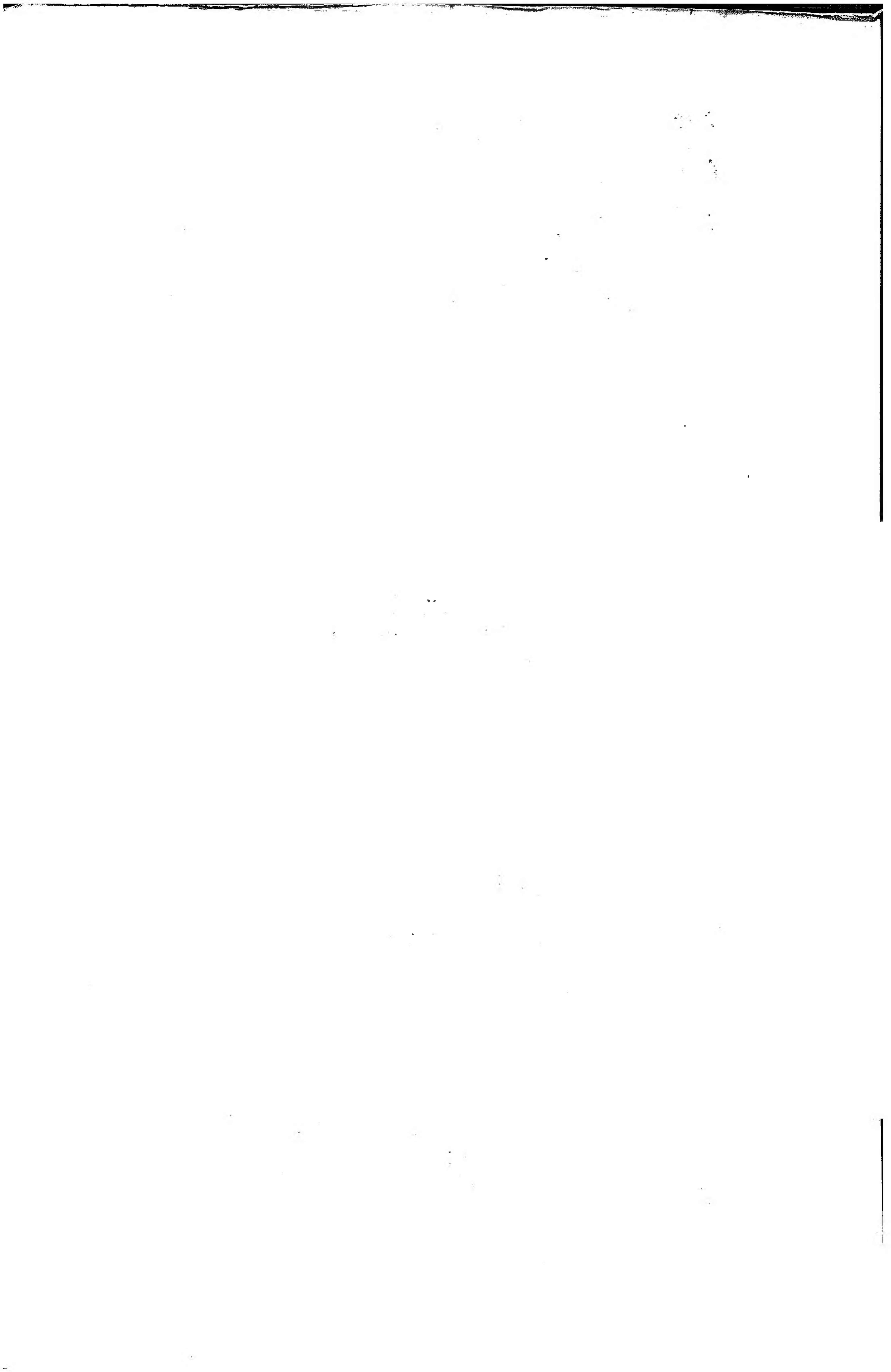
كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية (إهداء)

١٩٨٦

رقم التسجيل ٥٤٢٨

الناشر
مؤسسة كتاب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٩٣٩٤٧٢ الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(١)

الحمد لله رب العالمين ، خالق الانسان ، ومعلمه صنعة البيان ،
والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد ، وأبان عن مرامي
الكلام ، القائل : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، صلاة ،
وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الفصل بين الأولين والآخرين :
وبعد

فقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم قوم خصمون ، وأنهم
ذووا ألسنة حداد ، بل كثيرا ما وصفهم باللسن والفصاحة ، ومن
ثم كان تحديه لهم * وكانت آلتهم التي يتيهون بها على غيرهم ،
بل على بعضهم بعضا بلاغة الكلام وفصاحته ، وقد خلفوا لنا تراثا
قيما ، طبع بالسليقة ، والاقتدار ، ولم يأت من فراغ ، فمن شب على
شئ شاب عليه فذاك كانت عادة شبابهم وشيبيهم *

وكانت البلاغة عند عامتهم تعنى الابانة والوضوح ، ومراعاة
المقال للمقام ، غير أنهم لم يطلقوا الأسماء على المسميات ، بل كانوا
يأتون بالصورة البليغة التي تعبر بصدق عما يجيش بداخل المتكلم ،
بلغة رصينة وأسلوب جميل ، ومن ثم جاء صدق الصورة الفنية مهما
كانت المبالغة فيها *

ومن الله على العرب بانزال القرآن الكريم بلغتهم فأيد ما كان
جميلا يوافق الشريعة الغراء ، ونفى الزيف والبهتان ، بالاضافة
الى أنه أثراها بالعديد من الصور البلاغية التي هي وفق لغة العرب ،

وان فاقت ما جاء به العرب ولاغرو فان المسك بعض دم الغزال ، كذا
يقال . ثم دخل الناس فى دين الله أفواجا ، لا فرق بين عربى ،
ولا عجمى الا بالتقوى والوقوف على ما جاء بكتاب الله وسنة نبيه
— ﷺ — ففتحتم عليهم أن يتقنوا لغة القرآن الكريم ، لأنهم
رأوا صورا وقفوا حيالها مبهورين ، وتحتاج الى تأمل وتدبر ، تكون
أحيانا تشبيها ، وأخرى كناية ، وثالثة استعارة أو مجازا ، وقد
تزخرف بلون من ألوان فن البديع ، أو تكون وفق أساليب علم
المعانى ، وهذه أمور تحتاج الى دراسة وتعمق ، فشمروا عن ساعد
الجد ، واستعدوا للدرس والبحث ، غير أنهم كانوا مزودين ، بل
تسيطر عليهم ، آراء المذاهب الكلامية المتباينة بما فيها من تقسيمات
وتفريعات ، نقلوها للبلاغة ، فكان علم أو فن المعانى ، ثم البيان
فالبديع ثالث الثلاثة ، مما لم يكن شائعا عند العرب الاقدمين ، قبل
عصور التدوين .

وبدأت هذه التقسيمات هيئة يسيرة ، لكنها وفق نظرية
النشوء والارتقاء ، تعددت وتفرعت على أيدي كل من اهتم بالبلاغة ،
من الأصوليين ، وعلماء الكلام ، الذين تأثروا بالمنطق الأرسطى
وتفريعاته وحدوده وجدله وأيضا على أيدي علماء اللغة والنحو
فكان لكل منهم وجهة هو موليا ، وركية ينهل منها .

وتبعنا لذلك سيطر على الدراسات البلاغية مدرستان ، مدرسة
كانت تعنى بالذوق ، وتعجب بالصورة الفنية ، ومدى ملاءمتها لما
يحيط بها ، وأخرى سيطر عليها المنطق وجفافه ، وتقسيماته
وتفريعاته ، فالأولى هى مدرسة الأدباء ، والأخيرة مدرسة المتكلمين
والمناطق .

وللأسف فان المدرسة الأولى توارت واختفت ، وراء المدرسة
الثانية التى ما تزال تبسط سلطانها على الدرس البلاغى الآن —

الا قليلا من بعض اللامحات الذوقية — ، فنجد من يتناول أى فن من فنون البلاغة ، يعنى بالحدود الظاهرة فقط ، ولم يكلف نفسه سبر أغوار الصورة البلاغية التى أمامه ، ولو فعل لكان خيرا له وللبلغة وفنونها ، لكنه معذور وغير معذور فى ذلك ، معذور لأنه وجد آباءه كذلك يفعلون ، فكان لافرق بين درس البلاغة ودرس النحو ، أو اللغة ، فالجفاف هو القاسم المشترك الأعظم بين كل • وغير معذور لأنه لم يكلف نفسه تذوق الصورة الفنية ، فيسبر أغورها ، ويفض أختامها ، ويستتطق عجماءاتها ، ويتلذذ بجمالها ، ان كانت حقا صورة فنية بارعة رائعة الجمال ، أو يظهر سخفها ويوضح زيفها ان كانت سخيصة زائفة فيكون استحسانه أو استهجانها تابعين من ذاته التى تدربت وتمرست بالعديد من الصور البلاغية ، فلا يستحسن اذا استحس الآخرون ، ولا يستقبح باستقبحهم •

بالإضافة الى أن الاستحسان أو الاستهجان يجب أن يخدمهما الإطار الفنى وليس الإطار العصرى، فطالما أن الصورة الفنية أوضحت صدق القائل ، وأنابت عما يجيش بنفسه ، فى غير تكلف أو تعسف كانت جميلة أيا كان عصرها وزمنها ، وقائلها أيضا ، اذ المعول على صدق الصورة الأدبية فنيا ، لا صدق نقلها للواقع ، فكما كانت الصورة الفنية مضمخة بحرارة الانفعال الفريد الأصل للقائل، كان ذلك معيار التفرقة والاستحسان •

ومهما يكن من أمر فان التأليف البلاغى من لدن الجاحظ حتى السكاكى وانتهاء بالعصور التالية ، عنى بالتفرقة بين قسم وآخر ونوع وعدد وفرع حتى وصل بفن كالبديع الى هذا الحد من الألوان وكان التأليف البلاغى متأثرا فى ذلك بالتيارات العربية الأصلية مضافا اليها التيارات الوافدة من يونانية ، وهندية ، وفارسية وغيرها •

كل ذلك انصهر فى البوتقة العربية ، فخرج هذا المزاج البلاغى المتوحد ومن هنا فلا نستطيع أن نقول عن جزء منه بأنه هندى ، أو يونانى ، أو فارسى ، بعد اصطباغه بالصبغة العربية ، الا أن التيار اليونانى كان ذا حظ — الى حد ما — فى تلوين البلاغة العربية شكلا لا مضمونا حيث ظل المضمون عربيا خالصا .

واحقا للحق نقرر أن العربى الجاهلى لم يكن محتاجا لمعرفة المسميات المنطقية ، لأن المولود يولد أولا ، ثم يأخذ اسمه بعد ذلك ، وليس العكس ، وهذا ما حدث للبلاغة العربية ، فهى حقيقة مقرورة فى نفس العربى الجاهلى والاسلامى ، ولكنه كان غير عابىء بالمسميات لان الدلالة واضحة فى ذهنه بل يحتاج الى ذلك من كان من غير العرب ، حيث وضع الدلالات لكى يعرف المدلول .

وتبعاً لذلك — وكما سلف القول — فقد نشأ البحث البلاغى فى بيئات اختلفت باختلاف نظرة كل بيئة والعلم الذى يسيطر عليهم ، لذا لونوا البلاغة بألوانهم المتعددة الأدبية ، أو العلمية ، أو اللغوية ، أو الفلسفية المنطقية الكلامية ، وغير ذلك من مشارب متفاوتة فى البيئة الاسلامية الفتية الجديدة .

(٢)

ونصل الى ابن الأثير الأديب ، الكاتب ، الفنان فنجد البلاغة عنده يلونها طابع الذوق الأدبى ، حيث نراه قد استفاد كثيرا من آراء من سبقوه فى الدرس والبحث البلاغى ، ولعل من يقرأ كتبه خاصة الجامع الكبير ، والمثل السائر سوف يجد بونا شاسعا بينه ، وبين غيره ممن فلسفوا البلاغة ومنطقوها ، فلم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثة المعروفة المقررة ، بل نظر الى الكلام فوجده عملة

ذات وجهين لفظ ، ومعنى ، فأقام صناعة البلاغة على هذين القسمين
وبالتالى قسمها الى قسمين : قسم يعرف بالصناعة اللفظية ، وآخر
بالصناعة المعنوية .

وهذا التقسيم حرى بالاحترام والتقدير ، وعلى حد تعبيره فهو لم
يقتف فيه أثرا لاحد ، بل جاء هذا التقسيم جديدا كل الجدة ،
وابن الأثير محق فى ذلك ، لان واقع البلاغة ، والنظر الصائب
اليها يقران ذلك ، فمن يتحقق من البديع سوف يراه مصنفات
لفظية وأخرى معنوية ، وبذا لم يفرد له بابا ، كما لم يرتض
نهج سابقه فلم يلف لفهم ، أو ينحى منحاهم ، بالاضافة الى أنه
ابتعد عن المنطق والمناقطة فى كلامه عن البلاغة ، ولذا عاب على
النحاة الذين منطقوا نحوهم ، وأرادوا أن يمنطقوا البلاغة ، فقال
قولته المشهورة فى كتابه المثل السائر « النحاة لا فتيا لهم فى
البلاغة » لأنه يفهم البلاغة حق فهمهما ، ويعجب بالصورة الأدبية
الفنية فينسج على منوالها ، ويصوغ العديد من أمثالها ويضمنها
كتبه ، حتى صار عاشقا للبلاغة ، فأنزلها مكانا عليا ، وقال عنها
أيضا : « ان للبلاغة سجودا كسجود الكتاب » . وقد عرضنا فى
الصفحات التالية لآراء ابن الأثير البلاغية ، ولكن وفق التقسيمات
التي وضعها غيره من البلاغين ، فضمننا أقسام كل فن الى بعضها
بعضا ، من باب مراعاة النظير ، لأننا اعتقدنا انها لو درست كما جاءت
عند ابن الأثير لظنت متاثرة .

وقد جمع فى دراسة الصناعة اللفظية أنواعا سبعة فى كتابه
« الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور » منها

السجع ، والأزدواج ، والتجنيس والترصيع ، والموازنة ، وما الى ذلك • بينما نراه جعلها فى « المثل السائر » ثمانية أنواع ، والنوع الثامن هو « المنافرة بين الألفاظ فى السبك » هذا بالإضافة الى أنه فى كتابه المثل السائر أوضح دراسة اللفظة المفردة ، واللفظة المركبة التى قصدها بالصناعة اللفظية ، أو صناعة تأليف الألفاظ •

وبينما عد الصناعة المعنوية تسعة وعشرين نوعا فى الجامع الكبير ، جعلها ثلاثين نوعا فى كتابه الآخر وهو المثل السائر ، ولكن ليس ثمة فرق كبير لان الأبواب هى نفسها باستثناء بعض أوجه الخلاف فى التسمية • ومن ذلك تسمية الالتفات فى المثل السائر ، بشجاعة العربية فى كتابه الآخر الجامع الكبير ، وزاد فيه ما أسماه بالتعقيب المصدرى ، وكالتجريد الذى لم نره بين الأنواع التسعة والعشرين التى جاءت بالجامع الكبير •

وكما سلف أن أشرنا ، فإنه لم يفرد فى أى من كتبه ، فن البديع بدراسة مستقلة ، فانفرد عقد هذا الفن بين الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية ، فمثلا نراه ضم التجريد والتورية ، وأطلق عليهما الأحاجى كما ضم ، التضمين ، والارصاد ، والتوشيح والسرقات. وبعض ألوان البديع الأخرى الى الصناعة المعنوية ، وجعل فى اطار الصناعة اللفظية السجع والجناس ، والترصيع والموازنة ... الخ ، ونكرر ما قلناه سلفا ان الرجل محق فى ذلك والصواب معه لأن فن البديع ثالث الثلاثة يجب أن ينقسم بين فنى المعانى والبيان •

وقد كان الرجل على هدى وبصيرة من أمره حيث حدد هدفه من تأليفه كتبه فقال فى الجامع الكبير : (فحيث أحرزت هذه الفضيلة، وحصلت عندى هذه العقيلة ، أحببت أن أفرد لها كتابا ، وأفصلها أقساما وأبوابا ، ليكون مقصورا على شوارد هذا العلم وغرائبه ، ورموزه الخفية وعجائبه ، وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته ، ويعلم به مواقع الصواب فى صناعته) •

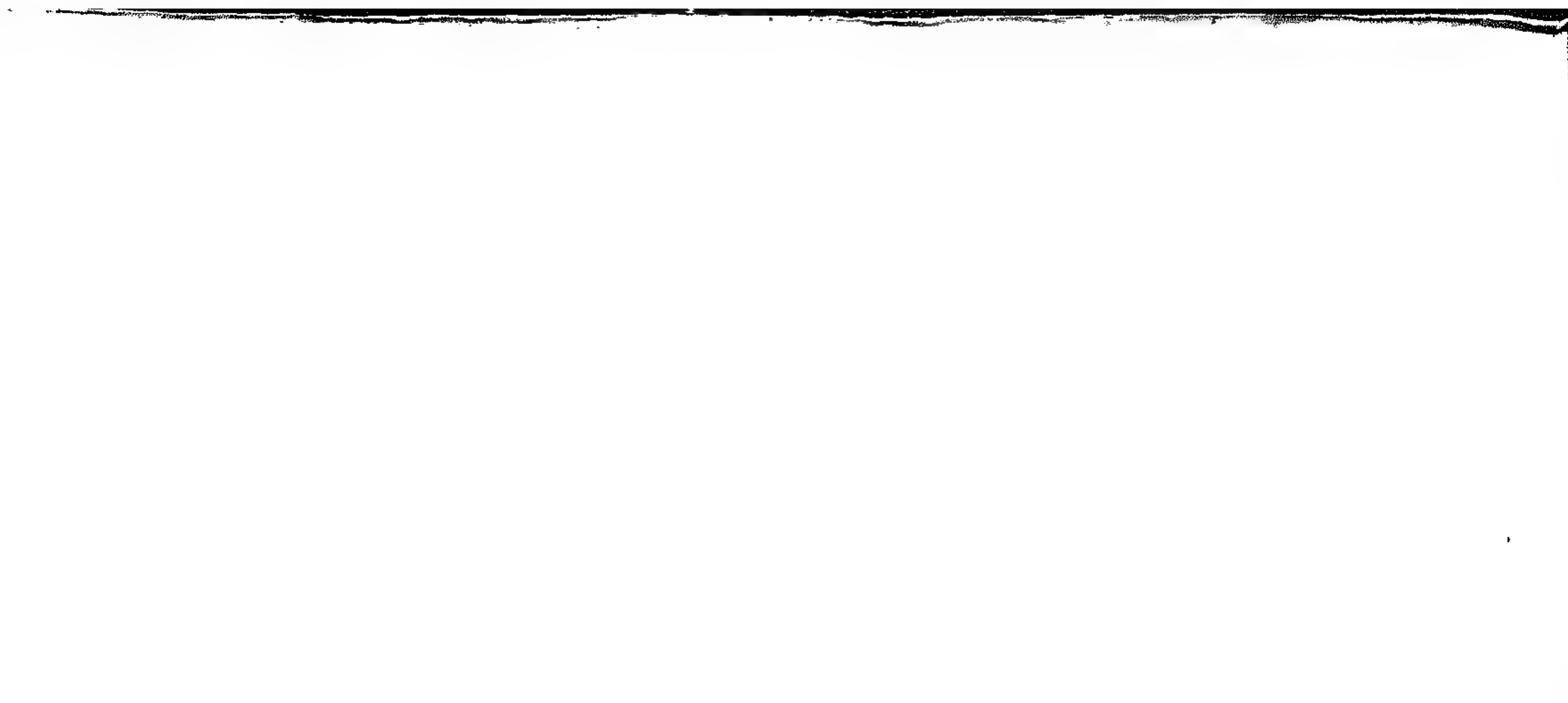
بل ان عناوين كتبه لتدل بنفسها على ما أورده المؤلف منها ، فنجد الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، أو : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، وأيضا : المفتاح المنشأ لحديقة الانثى ، والوشى المرقوم فى حل المنظوم والمنثور ، وكلها قواعد وقوانين يجب أن يسير عليها الكاتب فى ديوان الانثى حتى يصير صانعا محترفا فى مهنته ، ولاعجب فى ذلك فهو استاذ الكتاب، وتلميذ القاضى الفاضل مما جعله حريصا على هذه الصناعة لدرجة انه قد اقترح وجود محتسب ليحاسب فاسدى الكتاب وجاهلهم •

وما نقدمه بين يدى القارئ الكريم ، ما هو الا جهد متواضع أردنا به اماطة اللثام عن آراء وأفكار آخر رواد المدرسة الأدبية الذوقية البلاغية ، حيث جفت البلاغة ، ونضبت ركيبتها فيها بعد حتى غدت قواعد وقوالب ومتون تحفظ ويقاس عليها ولا عبرة بمعنى المعنى المخبوء خلف ظاهر الألفاظ •

(ربنا لا ترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) •

ومن الله التوفيق والهداية ، انه نعم المولى ونعم النصير •

د / عبد الواحد الشيخ



البلاغة
عند ابن الأثير

« ان البلاغة سجودا
كسجود الكتاب »
ضياء الدين بن الاثير

1. The first part of the document is a header section containing the title and the author's name.

2.

3.

4.

5.

6.

تكلم ابن الأثير كثيرا حول صناعة الكتابة ، فأوصى الكتاب
والشعراء بما يجب عليهم أن يعرفوه ، بل ما يتقنوه فى نظمهم ،
ونثرهم ، غير أن الناظم يجب عليه أن يعرف العروض ، والوزن
حتى يستقيم كلامه ، وهذا ليس شرطا للنثر ، ومن ثم وجدنا كتبه
للنثر والشاعر أى فى صناعة الشعر والكتابة ، وان كان فن الكتابة
قد شغل باله واستحوذ على لبه ، فسيطر على معظم كتبه ، كما
سبق أن بينا ، لذا وجدناه دائما يوجه كلامه وكتاباتة الى جماعة
الكتاب ، وكما رسم لهم طريق اصول وأركان الصناعة فانه فى هذه
الصفحات سوف نراه يرسم لهم طريق زخرفة وصحة العبارة
لفظيا ومعنويا ، فهو الوجه الآخر لصورة واحدة لا تستقيم ، ولا تكمل
الا اذا اجتمع هذين الوجهان ، أو الروح والجسد ، فبهما معا دون
أحدهما تحيا صناعة الكتابة ، ومن هنا فان ابن الأثير فهم الصلة ، بل
وثقها بين الكتابة وعلم البلاغة والفصاحة بأصوله وفروعه •

وفى عجاله سريعة نقول : ان العرب كانوا يتكلمون لغتهم نحوا
وبلاغة وتصريفا بالفطرة والسليقة ، يتقنها القائل ويفهمها السامع
ويدرك ما فيها من جمال نابع من التناسق اللفظى والمعنوى ، وكان
الابناء خير خلف لخير سلف ، ولذا وجدنا القرآن الكريم يصف
العرب فى جاهليتهم ، بأنهم قوم خصمون ، وأنهم ذووا السنة حداد ،
فالله سبحانه وتعالى وصفهم بهذا الوصف ليخبرنا من ناحية عن
فصاحتهم ومعرفتهم بالالفاظ والمعانى ، وكيف ، ومتى تستخدم •
ولكى يدل على قوة عارضتهم وبراعة معرفتهم بالبيان من ناحية
أخرى ، ولذا وجدنا القرآن الكريم يتحدثاهم بأن يأتوا ولو بآية من

القرآن الكريم ، وما كان الله سبحانه وتعالى ليبتداهم هذا التد
الا وهو سبحانه عالم عارف بلسنهم وفصاحتهم وقوتهم على ا
البليغ .

ولذا فاننا نبيح لأنفسنا القول بأن البلاغة والف
سمتان اساسيتان متلازمتان لناطقى الضاد من لدن جاه
الجاهلة ، حتى عصور الاحتجاج قبل أن تختلط الألسن ، و
اللهجة العربية ، بين خضم اللهجات أو اللغات الأخرى لأولئك
الذين دخاوا في دين الله أفواجا فامتزجت الألسن ، واختلط ا
بالنابل ، والعربى بالأعجمى ، ففسدت اللغة بفساد مت
وطبائعهم ، بما فى ذلك العرب أنفسهم .

وكانت الركبة العذبة ، والمورد الصافى المشرب ، الخالي
الكدر ، والرنق وردا مورودوا لكل ناهل فهم فيه سواء ، لا
بين عربى ، وأعجمى الا بقدر ما يحسن ويحفظ ويتمثل من
الركبة ، أعنى القرآن الكريم فكلهم ناهل منه ، وكلهم شاخص
يثلوه ، ويحفظه ، ويتذوقه ويقف على براعة تصويره وقوة ترك
وسحر بيانه ، وجميل نظمه ، ونظيم لفظه وحلاوة معناه ، و
أيضا يتسامى للوصول الى كنهه اعجازه وبيان سحر بلاغته ف
الوطيس بين الادباء ، وعلماء الكلام فى بيان اعجاز القرآن و
فى ذلك طرائق قدردا ، فتكاثف العجاج ، وشجر الخلاف
المتكلمين ، وبين الادباء ، بل بين علماء الكلام أنفسهم ، والا
أيضا فى بيان وجوه تحسين الكلام حتى يرتقى فى مدارج البلا
فبعض القوم مال الى رصين الكلام الجامع بين العذوبة والجز

وقوة العبارة ونصاعتها • وبعضهم أولع بالمنمق الموشى بألوان
البديع •

ولذا آضت الحالة ملحة الى وضع قوانين للبلاغة والفصاحة ،
وقواعد تقعد أصولها وفصولها ، وتكون دستوراً يهرع اليه عند
الاختلاف فتكون ميزاناً يقيم المعوج ويصلح الفاسد ، كما تكون
ناموساً للناظرين فى الأدب العربى منثوره ومنظومه •

وقد ساعد بعض من اتقن غير العربية ، من يونانية وفارسية
وسريانية وغير ذلك فى اثراء البحث البلاغى ، وتقنيته وتبويبه ،
وبين هذا التلاقح الفكرى نشأ البحث البلاغى المنظم ، لان من
يتقن العربية وغيرها من اللغات قارن وبحث عن أوجه البلاغة
والفصاحة أصولاً ، وفروعاً فيما يتقنه من لغات ثم ينقله الى العربية
بعد أن يهذبه ويترجمه ويجعله مسائراً لما فى لغة العرب ، ولن
نذهب بعيداً فعندنا الأمثلة ماثلة فى كتب ابن الاثير — التى بين
أيدنا فكان يتقن الى جانب العربية بعض اللغات الأخرى ، ففى
أثناء كلامه عن الكناية مثلاً يقول : (وما وجدته من الكناية فى
لغة الفرس ...) (١) • ونقرأ له أيضاً قوله (واعلم أن
هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا فى غير اللغة
العربية ، ووجدتهما فى اللغة السريانية فان الانجيل الذى بأيدى
النصارى ، قد أتى منهما بالكثير ...) (٢) • لكن ليس معنى هذا ان

(١) المثل السائر ص ٣٩١ •

(٢) المثل السائر ص ٣٩١ •

البحث البلاغى العربى ، أو البلاغة العربية كانت فقيرة ، أو كانت محتاجة الى من يساندها لكي تقوم علما ، كلا ، فان البلاغة العربية، استحصدت مرتها ، مثلها فى ذلك مثل باقى علوم العربية كالنحو واللغة ، فكان العرب يستعملون الألوان البلاغية كلها بالسليقة عدا القليل من أبواب البديع كزوم مالا يلزم مثلا - وكانوا أيضا غير محتاجين لمن يعلمهم اياها ، أو يوقفهم على اسمائها ، والدليل على ذلك أدب فترة ما قبل الاسلام - فانه يعج بهذه الألوان البلاغية لدرجة ان امرأ القيس قد شهد له كل من تكلم عنه بأنه برع فى التشبيه بدرجة لم يسبقه اليها غيره من شعراء العربية .

غير ان الذى نعنيه من معرفة لغات غير العربية ، هو التلاقح الفكرى بين المعانى العربية وغير العربية خاصة اليونانية ، التى اعتبرت عند بعض علماء العربية ، بل شاع عند الجميع ان هذه اللغة هى التى أمدت اللغة العربية بكل ما كان ينقصها نحوا ، ولغة ونقدا وبلاغة فهذا قول جائر حائف ، يغمط حق اللغة العربية وينتقصها قدرها فاذا كانت الثقافة اليونانية ، وخاصة الفلسفة قد أثرت فى الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين ، فان العلوم العربية الأصيلة لم تكن قاصرة حتى تتوكأ على اليونانية ، وليس كتابا الخطابة والشعر قرآنا ، انتظره علماء العربية حتى ينتقنوا ما جاء بلغتهم ، بل كان كل شىء ثابتا مقرورا فى لغة العرب وتكلموا به ، وورد فى أشعارهم وأقوالهم ، ومن أراد أن يجادل فى العقائد يمم شطر كتب فلاسفة اليونان ، ويومها شاع عند علماء العرب أن من تمنطق تزندق ، لكنهم احتاجوا الى كل ما فى اللغة من الوان

وأساليب لى تعينهم على دحر خصومهم والانتصار عليهم وخاصة فى أبحاث العقائد والجدل الذى دار حولها ، أما من ناحية اعتماد البلاغة العربية على علوم اليونان فهذا أمر مريب عندى مشكوك فى صحته يحتاج الى الكثير من القرائن والادلة حتى تقوم دليلا ، ولن توجد هذه الأدلة الا اذا افترضنا أن العربية كانت قاصرة عن الوفاء بحاجة ابنائها ، وهذا أمر مدفوع بشعر العرب ونثرهم ، بل بقرآن الاسلام والمسلمين •

والذى نقوله بعد هذا كله هو أن بعض من اتقنوا العربية ، وجادلوا فى مسائل العقيدة ، استعانوا بالفكر الفلسفى اليونانى ، وخلصوا لهم منه فكرا فلسفيا عربيا ، أسس على الأصول العربية ، وهؤلاء هم طائفة المتكلمين أو الفلاسفة ، وظل قوم آخرون على عربيتهم وأدبها ، فكانوا يسيرون فى بحوثهم وتعليمهم وتعلمهم على طريقة العرب البلغاء ، لاعلى طريقة العجم وأهل الفلسفة •

يقول د/ عبد اللطيف حمزة عن طريقة العجم ، وطريقة العرب فى البلاغة (ان الطريقة الأولى — وهى طريقة العجم — على حد قولهم — كانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى العلم ، وكانت تعنى بالمصطلحات البلاغية ، وتشرح الغرض منها وتفسر هذا الشرح •

وأما الطريقة الثانية وهى طريقة العرب فكانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى الأدب المحض ، وكانت تعنى بالشواهد والنماذج بقصد تربية الذوق ، ومن ثم كانت تجنح هذه الطريقة الى الإقلال

من الأصول ومن القواعد . ومن ذكر المصطلحات البلاغية بدلا
من ذكر الشواهد والأمثلة (٢٠) .

وكان لزاما على الكاتب في ديوان الانشاء أن يقف على
الطريقتين ويحذف المذهبين ، فالدولة الاسلامية ليست وقفا على
العرب وثقافتهم بل دخلت ثقافات جديدة على ثقافة العرب . لها
ثقلها ، ونفعا . ونذا وجد ابن الأثير يفتن بطريقتين . ويعمل
من يقرأ كتبه سوف يجده قد غنى بالمصطلحات البلاغية وشرحها
وشرحها وفلسف هذه التسمية كما سوف ترى أثناء كلامه عن
الكناية والتعريض ، أو المطابقة مثلا . بالإضافة الى أنه غنى بالشواهد
وأورد كثيرا من النماذج وحللها وبين ما فيها من جمال وروعة
أو قبح وسخف وطبق ذلك على الأدب بهدف تعليم ناسي الكتاب
وتربية ذوقهم على ملكة البلاغة والفصاحة . خاصة أنه ضوف
بين مشرق الدولة الاسلامية ومغربها واتصل بكل الفئات الأدبية
والثقافية في المدن الاسلامية .

ففي كتاب المثل السائر نجد ابن الأثير قد جعل الصناعة
الأدبية الانشائية أساس البحث . كما أن الأحكام النقدية التي أوردتها
مدعومة بتجاربه وملاحظاته . حيث تناول أكثر الفنون البلاغية
على أساس جديد نوعا ما في التقسيم ، فأفرد الصناعة اللفظية
في جانب ، والمعنوية في جانب آخر وقد بنى هذا الكتاب على مقدمة

(٣) القلقشندي في كتابه صبح الاعشى ص ٦١ ، ٦٢ .

ومقالتين ، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتين تشتملان على فروع هذا العلم ، الأولى منهما فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية •

أما كتابة الثانى وهو الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور فهو على منوال المثل السائر ، بل ان فيه أبحاثا موجودة بنصها فيه مما يستحق الملاحظة وان كان قد زاد فيه فصولا كثيرة مثل عنايته باللفظة المفردة بالإضافة الى أبحاث أخرى سوف نتعرض لها عند الدراسة •

وكتابه المفتاح المنشأ لحديقة الانشا (٤) عبارة عن صورة مصغرة للمثل السائر أو للجامع الكبير فبعد ما أورد ما يجب على الكاتب أن يفعله أو يحتث به أتى ببعض أبواب علم البيان وثنواهد ذلك ، مما يساعد الكتاب فى صناعتهم ، ويعينهم على أداء رسالتهم •

ومن ثم فان الرجل كان حفيا بالفصاحة والبلاغة ، بل بالبيان بصفة عامة (لأن علم البيان لتأليف النظم ، والنثر بمنزلة اصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام) (٥) بل فى نظره علم البيان بالنسبة لصناعة الكتابة بمنزلة الميزان الذى يقيم أودها ويصلح معوجها لأن (تأليف الكلام مما لا يوقف على غوره ، ولا يعرف كنه أمره

(٤) نقوم الان بتحقيقه •

(٥) المثل السائر ص ٤ •

الا بالاطلاع على علم البيان الذى هو لهذه الصناعة بمنز
الميزان (١) ، فيجعله الكاتب ، ومؤلف الكلام رأس بضاعته ، ويبيع
به مواقع الصواب فى صناعته .

ومن مظاهر احتفائه بالبلاغة والفصاحة ختامه كتابه المشر
السائر بفضل البلاغة والفصاحة ، فيرى هذا الفن أشرف الفضا
وأعلاماً منزلة ، ومن ثم افتخر به رسول الله ﷺ — ولم يفتد
بشئ سوى ذلك عندما قال : « أنا أفصح من نطق بالاضاد » (٢)
كما أن مرد الاعجاز الى الفصاحة والبلاغة ، فكان المعجزة الكبرى
التي أعجزت العرب وهم من هم فى الفصاحة والبلاغة ، واللس
وبها أيضا يفضل كاتب كاتباً ، وشاعر شاعراً ، ومن ثم آلى عل
نفسه فى كتبه التي ألفها أن يضرب بسهم وافر ، ويحقق القول فى عا
البيان ومرد ذلك كله هو أن (يجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته
ويعلم به مواقع الصواب فى صناعته) (٣) .

ولما كان علم البيان شغله الشاغل فرق بنيه وبين بعض علو
العربية كالنحو مثلاً ، فهما وإن اشتركا فى الدلالة العامة حي
ينظران فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى
فإن صاحب البيان يمتاز عن النحوى بأنه ينظر فى فضيلة تا
الدلالة ، وهى دلالة خاصة (والمراد بها أن يكون على هي
مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والاعراب) (٤) فليد

(٦) الجامع الكبير ص ١ .

(٧) المثل ص ٤٩٩ وما بعدها .

(٨) الجامع الكبير ص ٣ .

(٩) المثل السائر ص ٤ .

للنحوى فى النحو الا السؤال عن الألفاظ والمعانى من جهة الأوضاح اللغوية فقط ، بينما البيانى يبحث عما وراء ذلك من معان مستترة ليس للنحوى صلة بها ، وهو ما يعرف عند علماء البلاغة بمعنى المعنى فلو سئل نحوى مثلاً عن هذه الآية من قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) لتحول ذهنه الى الاعراب من بيان الفعل والفاعل والمفعول ، وليس له دخل فيما وراء ذلك عكس البلاغى فانه يعنى بالنحو والبلاغة ولذا شاع عن البلاغة بأنها النحو العالى ، وعلى هذا فسر ما فى القرآن والشعر العربى الرضين من آيات الفصاحة والبلاغة مما لا دخل للنحو والاعراب فيه ، بل يتوقف عند حدوده الخارجية فقط .

كما نرى ابن الأثير أيضاً فرق بين وضع علم النحو ، واستنباط اصول علم البيان ، فيتساءل قائلاً (هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب ؟ أم بالنظر وقضية العقل ؟) (١٠) .

أى أن علم البيان كباقى علوم العربية أخذ بالاستقراء والتتبع لأقوال العرب ، واستنباط الأصول النحوية منهم كما هو شائع ومعروف فى وضع علم النحو الذى أخذت أقسامه بالتقليد ، فهؤلاء العلماء الذين تصدوا لجمع وتقعيد النحو سمعوا عن العرب رفع الفاعل ، ونصب المفعول من غير دليل على ذلك لأن العربى كان

يتكلم لغته بالسليقة ، كما كان غير محتاج لمن يعلمه أسباب رفع
الفاعل أو نصب المفعول ، أو ما أشبه ذلك ، فجاء جماع اللغة
ووضعوا هذه الألفاظ كما سمعوها ، وحاولوا استنباط الأدلة والعلل
لذلك •

بخلاف علم البيان فإنه لم يؤخذ بالاستقراء (لأن العرب الذين
ألفوا الشعر والخطب لا يخلوا أمرهم من حالين : إما أنهم ابتدعوا
ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو
أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم ، فإن كانوا ابتدعوه عند
وقوفهم على أسرار اللغة ، ومعرفة جيدها من رديئها وحسنها من
قبحها فذلك هو الذي أذهب إليه ، وإن كانوا أخذوه بالاستقراء
ممن كان قبلهم ، فهذا يتسلسل الى أول من ابتدعه ولم يستقره (١١) •

والدليل على ذلك هو أن علم النحو مقرر معروف باسمائه
عند علماء النحو ، فالفاعل هو الفاعل من لدن ابى الأسود الدؤلى
الى ابن هشام •

وكذا المفعول ، والفعل بأنواعهما فلا خلاف على ذلك بينهم ،
عدا علم البيان فإن علماءه قد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا وتريدوا
فيه زيادات كبيرة فهذا مثلا علم البديع أول ما استنبط كان هينا
يسيرا ثم جاء شعراء البديع وأكثروا وتريدوا فيه حتى نيف على
المائة نوع وقد جاء فى كتاب جوهر الكنز أن أقسام البديع بلغت

سبعون نوعا ، ويعلق د / زغلول سلام على ذلك قائلا (بلغت أقسام
البديع أكثر من ذلك فهي عند ابن منقذ خمسة وتسعون ، وعند
ابن أبي الأصبع في تحرير التعبير مائة وخمسة وعشرون بابا) •
فهذا دليل على أن البيان وعلومه مأخوذة بالابتداع والابتكار ، ولم
تؤخذ بالاستقراء والتتبع وهذا ما يذهب إليه أيضا ابن الأثير ،
ومصدق ذلك قوله (واعلم أنه قد اختلف أرباب هذه الصناعة في
تسمية أنواع علم البيان ، حتى أن أحدهم يضع لنوع واحد اسمين
اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الأمر كما وقع
له بل هما نوع واحد) (١٢) •

ويضرب أمثلة لذلك مما استدركه على علماء البلاغة أمثال
الغانمي فقد عرف التبليغ بقوله : هو أن يأتي الشاعر بالمعنى في
البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكر موضع ، ثم يأتي بها
لحاجة الشعر إليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى في
الجودة ، ويضرب لذلك مثلا قول امرئ القيس :

كان عيون الوحش حول خبائنا . . . وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب
فقد جاء بالبيت كاملا قبل القافية وهو :

كان عيون الوحش حول خبائنا . . . وأرحلنا الجزع . . .

فانه قد استكمل عناصر التشبيه في هذا الجزء من البيت فأتى
بأداة التشبيه وهي « كان » ثم بالمشبه وهو عيون الوحش ثم بالمشبه

(١٢) الجامع الكبير ص ٢٤٠ : وانظر جوهر الكنز ص ٤٨ ، ص ٤٩ حيث قال
(ان من علماء البيان من ذكر في مصنفاته أبوابا وعدة من البيان، ومنهم
من عد تلك الأنواع بعينها في مصنفاته من البديع فعلى هذا يفسر
الفرق بين البديع والبيان في كل المواضع) •

به وهو الجزع ، وتم المعنى بذلك ، غير انه عندما احتاج الى القافية جاء بها فزادت المعنى حسنا وهو قوله «لم يثقب» * ثم أتى بعد التبليغ هذا بيباب آخر سماه الاشباع وعرفه بقوله (هو أن يأتي الشاعر بالبيت معلقا بالقافية على آخر أجزائه ولا يكاد يفعل ذلك الاحذاق الشعراء وذلك أن الشاعر اذا كان بارعا جلب بقدرته وذكائه وفطنته الى البيت — وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة — قافية متممة لأعاريضة ووزنه فجعلها نعتا للمذكور كقول ذي الرمة :

قف العيس من أطلال مية فاسال . . رسوما كاخلاق الرداء المسلسل (١٣)

فانه هنا أيضا استكمل عناصر التشبيه ، ولما احتاج صنع صنع امرئ القيس فأتى بزيادة حسنة وهي قوله « المسلسل » *

فانه تارة يطلق على هذا اسم التبليغ ، ومرة ثانية يسميه الاشباع * ويأتي أبو هلال العسكري ويسمى هذين النوعين بالايغال، ويضرب أمثلة لذلك ببيت ذي الرمة الذي ذكرناه آنفا ، كما يختلف ابن الأثير مع أبي هلال في تسمية التوشيح فيسميه ابن الأثير بالارصاد للمناسبة بين الاسم والمسمى ، وغير ذلك كثير بين علماء البلاغة (١٤) *

وهذا الاختلاف في التسمية — كما سوف نعالجه عند ما نتعرض لذكر الكناية ، أو الاستعارة ، أو الطباق ، أو الجناس عند ابن الأثير — دليل على أن هذا العلم ، أعنى علم البيان

والشعر في اللغة العربية

ص ٢٤١

(١٣) الجامع ص ٢٤١

(١٤) الجامع ص ٢٤٠

لم يؤخذ بالاستقراء والتتبع مثل النحو أو اللغة ، بل أخذ بالابتداع ، ومن ثم كان لكل عالم وجهة هو موليتها ومذاق خاص فى تذوق الألوان والأساليب البلاغية ، خاصة فى مرحلة النشوء والارتقاء البلاغى قبل أن تستقر وتستغلظ على سوقها وتصبح علما محدد الاركان والأصول ، عكس النحو الذى أخذ بالاستقراء فاستقرت أصوله منذ ولدت اللغة العربية ، ومنذ أعرب العربى البدوى عما فى نفسه ، ومن ثم يظهر البون شاسعا بين النحوى والبلاغى ، فللنحوى نحوه ، وللبلاغى بلاغته ، وصدق ابن الاثير عندما قال — (النحاة لا فتيا لهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث أنهم نحاة) (١٥) قد أوقفوا ذوقهم وفهمهم على دراسة النحو فقط ، والنحو بطبيعته جاف جامد فيقفون عند الحدود الخارجية للألفاظ والمعانى لانهم غير قادرين على الغوص داخلها وسبر أغوارها ، واستخراج مكنونها ، ومن ثم لم يفقهوا أسرار البلاغة التى لا تعطى سرها ، ولا تكشف عن مفاتها الا لعالم تدرس بعدد ضخم من الأقوال البلاغية وسبر غورها واستخراج دررها ، وكان خبيرا بصيرا بالتقنية البلاغية ، وفهم أن الكلمة كما تكون حقيقة تكون مجازا ، وعرف كيف يرجح المعنى بين الحقيقة والمجاز ، وهذا لا يتيسر للنحوى ، بل لا يهمه ذلك لأن له وجهة هو موليتها ، وليس ذلك قدحا أو ذما للنحو

وللنحاة فطبيعة النحو هكذا ولا نكلف الأشياء ضد طباعها فنكون كمن يرقم على الماء ، فإذا كانت طبيعة النحو تجعل النحو يحفل بعوامل الرفع ، وعوامل النصب وما أشبهه — فإن البلاغة تجعل البلاغى يحفل بالحقيقة والمجاز ومواطن البلاغة والفصاحة والاصابة ومراعاة المقال للمقام وما الى ذلك ، وهذا الذى نستنتجه من كتب ابن الاثير ، فنراه يبسط القول فيها ويسمو بها فوق السها والفرقدين بل يحفها بالقداسة مما دفعه أن يقول فيها (ان للبلاغة سجودا كسجود الكتاب) (١٦) بل أثر عنه فى نهاية كتابه الذى اختار فيه من شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمنتبى أنه قال :

تمتع به علقا نفسيا فانه اخ . . تيار بصير بالامور حكيم
اطاعته أنواع البلاغة فاهتدى . . الى الشعر من نهج اليه قويم (١٧)

فكلفه بالبلاغة جعله يفسر فيها القول بقدم راسخ ونفس طويل
وبصر بصير بمواقعها ومواقفها ، فرأينا تناول بأسهاب الفصاحة
والبلاغة ، كما تناول بعض أبواب المعانى ، والبيان والبديع ،
وهذا ما سوف نصول ونجول معه فى الصفحات القادمة وأول
ما نبدأ به هو كلامه عن الفصاحة والبلاغة ان شاء الله فمنه التوفيق
وبه الهداية •

(١٦) الوشى المرقوم ص ٤٤ •

(١٧) المثل السائر ترجمة المحقق محيى الدين عبد الحميد ص ١١٢ •

الفصاحة والبلاغة

عند ابن الأثير

تناول كثير من علماء البلاغة والفصاحة ، الفصاحة والبلاغة بالشرح والتفصيل وكان لكل منهم ذوق خاص فى فهم دلالة هاتين اللفظتين ، أعنى الفصاحة ، والبلاغة ، فمن قائل بأن الفصاحة شىء غير البلاغة ، ومن قائل بأن الفصاحة خاصة بالألفاظ فقط ، وأن البلاغة خاصة بالمعانى .

فهذا مثلاً أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين يبين الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، فذهب الى أن البلاغة مأخوذة من قولهم بلغت الغاية ، اذا انتهيت اليها ، ولذا سميت البلاغة بهذا الاسم لأنها تنهى وتبلغ المعنى الى قلب السامع فيفهمه ، فيتمكن فى نفسه ، لتمكنه فى نفس المتكلم قبل أن يلقيه عليه ثم يخرجها فى صورة مقبولة ومعرض حسن (١٨) .

واشترط للبلاغة الصورة المقبولة والعرض الحسن لأن الكلام ربما يكون رث العبارة مهلهل النسج ، فلا يسمى بليغاً حتى وان أفهم المعنى وكشف المغزى المقصود منه لأن المعول ليس على المعنى فقط ، بل الصورة التى عرض فيها هذا المعنى . فلا بد أن يكون سليم النسج رائق العبارة .

كما يجعلها صفة للكلام فقط ، وليست صفة للمتكلم فيقال كلام

بليغ ولا يقال متكلم بليغ ، مستدلا على ذلك بأنه لا يجوز أن يوصف الله عز وجل بأنه بليغ لانه لا يجوز أن يوصف سبحانه وتعالى بصفة كان موضوعها الكلام ، وعندما نصف متكلما بأنه بليغ انما نصفه على التوسع فى الكلام لان حقيقته هو ان كلامه البليغ (١٩) .

لكن ثمة فرقا بين الآلة ، وما ينتج عن هذه الآلة ، وأصبح ثمة ترابط بين الآلة ومنتوجها فاذا كانت الآلة جيدة أخرجت ثمارا طيبة ، والعكس صحيح أيضا ، فاذا كان المتكلم لديه القدرة على التعبير السليم استطاع أن ينتقى ويختار ، وهذا ما يعرف بملكة أو موهبة البلاغة ، وهوى هذه الحالة يشبه الصائغ ، فان الدر هو هو لم يتغير ولم يتبدل فاذا أخذنا بعض هذا الدر وأعطيناه لصائغين أحدهما بارع فى صناعته والآخر أقل منه خبرة أخرجنا لنا عقدين متفاوتين ، فالصائغ الماهر الخبير أخرج لنا عقدا يخلب اللب جمالا وحسنا ، والآخر يخرج لنا عقدا ربما ينفر الرائي من رؤيته والدر كما سلف آنفا واحد لم يتغير .

فكذلك الكلام والمتكلم ، فالفاظ اللغة واحدة لم تتغير منذ أن أفصح بها العربى الى وقتنا الحاضر ، وانما العبرة ، بالمتكلم ، فاذا كان خبيرا بصيرا بالالفاظ ودلالاتها وكيفية صياغتها أخرج لنا آيات بينات من البلاغة الرائعة الجميلة ، واذا كان عيبا ، فهمها كانت الألفاظ ، ومهما كانت الدلالات ، فانه سوف يخرج نسجا مهلهلا ، غثا لاطائل من ورائه حتى لو أفهم ما يرمى اليه ويقصده

ومن ثم فأننى ارى الأصوب أن نصف بالبلاغة الكلام والمتكلم
لا مذهب اليه أبو هلال العسكرى •

أما الفصاحة عنده ففيها خلاف ، فرأى قوما يقولون أنها
مأخوذة من قول القائل أفصح عما فى نفسه اذا أظهره ، وهذا
موافق لكلام العرب خاصة قولهم أفصح الصبح اذا أضاء ، وأفصح
اللبن اذا انجلت رغوته فظهر ، فصح وأفصح الأعجمى اذا أبان
وعبر عما فى نفسه وأظهره •

وتبعا لهذا فان أبا هلال يرى انه اذا كانت الفصاحة بهذا
المعنى ، فانها والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وان اختلف
أصلاهما فى اللغة ، فكل منهما يعنى الابانة عن المعنى والاظهار
له (٢٠) •

ويورد رأيا آخر فى الفصاحة فقال : (وقال بعض علمائنا
الفصاحة تمام آلة البيان) ، وبعد مناقشات تتصل بالله سبحانه
وتعالى وهل يوصف بالفصاحة أو لا يوصف يخلص الى أن الفصاحة التى
هى تمام آلة البيان تكون مقصورة على اللفظ لأن الآلة تتعلق باللفظ
دون المعنى والبلاغة انما هى ! نهاء المعنى الى القلب فتكون مقصورة
على المعنى (٢١) •

أما عبد القاهر الجرجانى ، فالفصاحة والبلاغة عنده مترادفتان
لأنه رأى أن البلاغة والفصاحة يجب أن تكونا سمة للمعنى لا للفظ

(٢٠) الصناعتين ص ١٦ •

(٢١) الصناعتين ص ١٧ •

واللفظ دال على المعنى ، بل الألفاظ عنده عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام ، وعن زيادات تحدث فى أصول المعانى (٢٢) ويذهب الى أن المعنى مقدم على اللفظ (فأنت تتوخى الترتيب فى المعانى فاذا تم ذلك أتبعته الألفاظ) (٢٣) فالمزية والفضيلة عنده انما هى للمعانى دون الألفاظ (فغرضنا من قولنا الفصاحة فى المعنى أن المزية التى من أجلها يستحق اللفظ الوصف بأنه فصيح عائدة فى الحقيقة الى معناه) (٢٤) * ومن ثم ييطل وصف اللفظ بالفصاحة ، من حيث هو لفظ ونطق لسان (٢٥) * فالكلام كله ينصب على المعنى دون اللفظ الذى هو فى نظره ليس الا وسيلة يتوصل بها للمعنى ، ومن هنا فالفصاحة والبلاغة للمعنى دون اللفظ (والفصاحة والبلاغة أوصاف راجعة الى المعانى ، والى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها) (٢٦) ، وبالتالي فانه ينفى الفصاحة عن اللفظة المفردة ، واذا وصفت فمن جهة المعنى ، وانما التفاضل بين لفظة وأخرى أن هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن حروف هذه أخف من تلك *

وان كان يحمد لعبد القاهر تحطيم الثنائية بين اللفظ والمعنى فى وقت شاع فيه وانتشر سؤال مؤداه هل اللفظ أفضل أم المعنى ،

-
- (٢٢) دلائل الاعجاز ص ٢٠٠
 - (٢٣) دلائل الاعجاز ص ٤٤
 - (٢٤) دلائل الاعجاز ص ٢٠٧
 - (٢٥) دلائل الاعجاز ص ٣٤٨
 - (٢٦) دلائل الاعجاز ص ٢٠٠

وكانت التفرقة شائعة بين اللفظ والمعنى ، الا أننا يجب أن نقول بأن الفصاحة لفظ توصف به الكلمة أى اللفظة المفردة والكلام والمتكلم من حيث هو كلام وليس تابعا للمعنى أو دالا على المعنى ، فقد يكون المعنى جميلا ، واللفظ الذى استعمل فيه قبيحا أو منفرا كلفظة البعاق مثلا فلو استعمل المتكلم لفظ المطر بدلا منها لكان آلف للسمع وأحسن ، فالمعول ليس على المعنى فقط ، بل نأخذ فى الحسبان الصورة التى عرض بها هذا المعنى كيلا نكون كمن علق قلائد من العقيان فى جيد خنزير .

ثم يأتى الخطيب القزوينى ويفرق بين الفصاحة والبلاغة ، ويرى أن الفصاحة والبلاغة وردت فيهما أقوال مختلفة لم يرض القزوينى بأياها تصلح تعريفا للفصاحة والبلاغة ، غير أنه فرق بينهما فالفصاحة تقع صفة للكلمة المفردة ، والكلام ، والمتكلم ، أما البلاغة فتكون صفة للكلام ، والمتكلم فقط (٢٧) ، ولا يقال عنده كلمة بليغة اذا قصدنا الكلمة المفردة ، على سبيل الحقيقة ، لكن يجوز أن نقول هذه كلمة بليغة وذلك على سبيل المجاز ، اذا أردنا بها مجموعة الكلام المركب من باب اطلاق الجزء على الكل فنقول مخاطب ، أنت ألقيت كلمة بليغة فى حفل الأمس ، والمقصود الخطبة ألقيت كما يمكننا أن نقول عن كل كلام فصيح هو بليغ ، وليس العكس لأن البلاغة أعم وأشمل من الفصاحة ، ونعنى بالكلام ما يقابل

الكلمة المفردة فيشمل المركب الاسنادى ، والمركب الناقص اذا صح أن يطلق عليه أنه كلام فصيح باعتبار فصاحة مفرداته .

وقد تناول أيضا ابن الأثير فى كتبه الفصاحة والبلاغة وأسهب القول فيهما اسهابا ، وما ذاك الا لان الفصاحة والبلاغة من أدوات الكاتب الذى لا يمكنه الاستغناء عن ذلك حتى يستقيم كلامه ، وتتسبك صنعته ، وقد فهم ابن الاثير أن ثمة فرقا بين الفصاحة والبلاغة ، وان لكل منهما موصوفات خاصة بها كما فهم أن البلاغة أعم وأشمل من الفصاحة ، كما أن الفصاحة عنده نسبية كالحسن والقبح ، وقد أورد اثناء كلامه عن الفصاحة والبلاغة شروط كل كما سوف نوضح .

ولكن يريد أن يؤكد أن البحث فى الفصاحة والبلاغة ليس شيئا هينا أو متيسرا لكل طارق فيراه بابا غامضا متعذر الولوج ، ومسلكا صعبا وعرا ، والناس أمامه خيارى يحاولون الولوج فتتقدمهم قوتهم وتتخذ لهم همتهم (٢٨) . ويستشهد على ذلك بقول عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز عن الفصاحة والبلاغة عندما قال : (لم أزل منذ خدمت العلم انظر فيما قالوه فى معنى الفصاحة والبلاغة وأستكشف عن المعنى فى ذلك ، فلا أجد الا كالرمز ، والاشارة ، ولا أقف فيه على قول شاف ، ولا كلام كاف ، فلما رأيت الأمر كذلك علمت أنه لا يكفى فى معرفة هذا العلم العظيم ، الذى كان به اعجاز القرآن الكريم ، قول مهمل ، ولا كلام مجمل ، بل لا تتم معرفته حتى يفصل فيه القول ، ويدل على الخصائص التى تأتى فى تأليف

الكلام ، ويوضح ايضا جليا من غير مغادرة لشيء من ذلك ، حتى تكون المعرفة بهذا العلم كمعرفة الصانع الحاذق الذى يعلم هدبة منسوجة من الابريسم فى الثوب والديباج ... فانك اذا نظرت الى هذا العلم الشريف احتجت عند ذلك الى طول مكث وتدبر ، وكثرة تأمل وتفكر ، والى همة تأبى أن تقنع الا بأعلى المنازل واسمى المراتب ... (٢٩) •

وكذلك تدبر ابن الأثير وتأمل وتفكر فى الفصاحة فوجد أصلها فى وضع اللغة هو الظهور والبيان ، يقال أفصح الصبح اذا بدأ ضوءه ، وأفصح الرجل عما فى نفسه اذا أظهره ، وانما سمي اللفظ فصيحاً لأنه يبين المقصود منه ، ويوضح المعنى المندرج تحته (٣٠) • غير أن ابن الأثير يرفض هذا التعريف البلاغى ، ويعترض عليه بجملة من الاعتراضات كلها تبنى عن فهم وذوق ابن الأثير ورسوخ قدمه فى هذا المضمار •

فنراه يحتج على من قال بأن الفصاحة تعنى الظهور والبيان ، ويقف عند ذلك الحد ، ويلقيه على عوانه دون أن يكشف عن السرفيه ، غيرى أن هذا الحد أو التعريف للفصاحة قاصر لا يبين حقيقتها ثم يورد الاعتراضات التالية :

أولا : اذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحاً ، ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحاً •

ثانيا : اللفظ الفصيح البين هو الذى يستخدمه الفصحاء ،

(٢٩) الجامع الكبير ص ٧٦ وانظر دلائل الاعجاز ص ٤٠ وما بعدها •

(٣٠) الجامع ص ٧٧ •

وبالتالى فان اللفظ غير الفصيح من نصيب العتى غير الفصيح ،
فاللفظ اذن لفظان حسب استخدام المتكلم له فتارة هو فصيح لأن
زيدا فصيح ، وأخرى غير فصيح لأن عمروا غير فصيح ، وهذه قسمة
ضيضى فى رأى ابن الأثير ، بل فى رأينا أيضا ، لان الفصيح فصيح
عند الجميع لا خلاف فيه بخال من الأحوال •

ثالثا : اذا جىء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك
ظاهر بين ، ينبغى والحال هكذا أن يكون فصيحاً ، وهذا غير صحيح ،
لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ ، لا وصف قبحه (٣١) •

وبهذه الاعتراضات الثلاثة ، يرفض هذا التعريف اللغوى
للفصاحة ويشرح تعريفا آخر لها استقاء من كثرة ملابسته ومعاركته
لفن الفصاحة حتى انكشف له السرفيه •

غير أن الكلام الفصيح هو البين ، المفهوم الألفاظ من غير
حاجة لاستخراج من كتب اللغة ، وهذه الشروط لا تتوفر الا فى
الألفاظ مألوفة الاستعمال عند الشعراء والكتاب ، لمكان حسنها
بعد الفحص والتدقيق ، ومن ثم يخلص الى أن الفصيح من الألفاظ
هو الحسن شكلا ولا دخل للمعنى فى الحسن أو القبح والدليل
على ذلك — كما يورده — الفاظ المزنة ، والديمة ، والبعاق ، فان المزنة
والديمة أفضل وأحسن ويستلذهما السمع ، خلا لفظة البعاق فانها
قبيحة يكرهها السمع ، والألفاظ الثلاثة بمعنى واحد وهو المطر (٣٢) •

(٣١) المثل السائر ص ٤٠ •

(٣٢) يراها مترادفة ولكن الواقع أنها غير مترادفة بل توجد فروق بين
هذه الصفات •

ومع هذا فان اللفظين الأولين يحسن استعمالهما ، والثالثة يقبح ،
والذى حسن أو قبح هو الالف والاستعمال (وانما كان مألوف الاستعمال
لمكان حسنه وحسنه مدرك بالسمع والذى يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه
صوت يتألف من مخارج الحروف ، فما استلذه السمع فيه فهو الحسن ،
وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح
غير موصوف بفصاحة) (٣٣) •

أى أن مرد الفصاحة عنده الادراك بالسمع ، والذى يسمع هو
اللفظ ، والذى يعقل هو المعنى ، فالفصاحة خاصة بالالفاظ دون
المعانى لأن الفاظا مثل المزنه والديمة والبعاق كلها تعنى فى الدلالة
المطر أو ما نزل من السماء من ماء ، سواء أكان وابلا أم سيلا
أم غير ذلك من أشكال المطر لكن لفظة ديمة ، ومزنه ، مقبولتان
سمعا ، وخفيفتان نطقا ، عدا لفظة بعاق ، فان السمع ياباها ،
لما لها من ظلال ثقيلة على الأذن ، والنفيس أيضا ، ومن ثم كانت
غير فصيحة فلو كانت الفصاحة مردها للمعنى لتساوت هذه الألفاظ
الثلاثة فى الدلالة على المعنى ، وكانت كلها فصيحة ، غير أن واقع
الحال غير ذلك ، ولما كان الأمر كذلك أصبحت الفصاحة تخص اللفظ
دون المعنى •

ولكن لا يفهم من ذلك أن ابن الأثير من دعاة التفرقة بين
اللفظ والمعنى ، بل أراد أن يتناول ما تكون عليه الألفاظ ، وما تكون
عليه المعانى ، لان المعنى يجىء ضمنا وتبعاً للفظ ، ومن ثم لا ينفصلان ،
وينتبه هو لذلك فيقول (وليس لقائل ههنا أن يقول : لالفظ الا بمعنى

فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فانى لم أفصل بينهما ، وانما خصصت اللفظ بصفة هي له ، والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعاً (٣٣) •

ويزيد من تأكيد وجهة نظره — وهو محقق في هذا شأن الفصاحة خاصة باللفظ دون المعنى ، فيشفع رأيه بالناحية الاشتقاقية اللغوية فيرى أن فعيل بمعنى فاعل ، أى فصح ، فهو فصيح واللفظ هو الفاعل للإبانة عن المعنى ، فكانت الفصاحة مختصة به ، كما يرد على من ادعى بأن بعض آيات القرآن فيها غموض وتحتاج الى تفسير وهذا يتعارض مع قوله عن اللفظ وفصاحته ، فيرد بأن الغموض آت من جهة التركيب لا من جهة الألفاظ المفردة ، التى يتداخل معناها بالتركيب وتصير له هيئة تخصه ، فهى من ناحية الألفاظ المفردة فصيحة لانها ظاهرة واضحة ، وهذه سمة التراكيب اللفظية لا فرق بين قرآن كريم أو حديث نبوى شريف أو قصيدة شعرية أو خطبة أو مكاتبة (٣٤) •

هذا عن الفصاحة ، أما البلاغة فانه يتناولها بالشرح والتمثيل مثلما فعل مع الفصاحة ، فيقول عن البلاغة (وأما البلاغة فان أصلها فى وضع اللغة من الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ الشئ منتهاه ، وسمى الكلام بليغا من ذلك ، أى أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية) (٣٥) •

(٣٣) المثل السائر ص ٤١ •

(٣٤) المثل ص ٤٢ • وهذا مخالف لما ذهب اليه عبد القاهر الجرجاني الذى يرى أن الفصاحة راجعة للمعنى دون اللفظ • انظر الدلائل

ص ٥٢ وما بعدها •

(٣٥) المثل ص ٤٣ •

فهو فى هذا التعريف قد تناول البلاغة بمعناها اللغوى وهو الوصول والانتهاء ولكنه هنا وصول من نوع خاص فان كل من أسمعتة كلاما لزمتك أن تبلغه فيه معنى من المعانى المفهومة المقصودة من سياق الكلام ، وسميت البلاغة بلاغة لأنها تنتهى المعنى الى قلب السامع فيفهمه •

غير ان ابن الاثير قد أورد فى نهاية هذا التعريف قوله : وسمى الكلام بليغا من ذلك ، أى أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية ، وهذا الكلام قريب جدا من المعنى الاصطلاحي للبلاغة عند علمائها ، فانها تعنى عندهم فى الاصطلاح أنها تقع وصفا للكلام والمتكلم ، (٣٦) وبلاغة الكلام تعنى مطابقتها لمقتضى حال الخطاب مع فصاحة الفاظه مفردة ومركبة ، ومقتضى الحال هذا مناسبة الكلام لحال المخاطبين وواقعهم مما يلزم المتكلم أن يخرج كلامه على وجه مخصوص ، فعلية القوم كلام وللسوقة كلام ، والعلماء كلام وللجهلة كلام ، فيخاطبهم المتكلم على قدر عقولهم ، كما أن موقف الفخر غير موقف الرثاء ، غير موقف المديح ، وبهذا فان البلاغة تنصب على اللفظ والمعنى ، أى الكلام والمتكلم ، وليس لها دخل بالمفرد من الألفاظ فلا يجوز أن يقال كلمة بليغة ، فان جاز ذلك فى الفصاحة فانه لا يجوز هنا فى البلاغة لأن الكلمة المفردة لا تعد بليغة الا اذا دخلت فى تركيب فيظهر حسنها أو قبحها كأن تكون قلقة فى موضعها ، أو غير متوائمة مع ما قبلها وما بعدها (لأن اللفظة المفردة

(٣٦) الايضاح ص ٧ وما بعدها •

برأسها إذا وردت فى الكلام لا يراد بها الا معنى واحد من غير زيادة ، وفى الكلام ما يزيد معناه على لفظه وذلك انما يكون مركبا لامفردا (٣٧) والمفرد لا يفيد معنى •

وما ليس بمفيد فلا يسمى بليغا ، فهو بهذا الكلام يكون قد تناول معنى البلاغة لغة واصطلاحا •

وكما رأينا فى كلامه عن البلاغة فانها عنده تشمل الألفاظ والمعانى بخلاف الفصاحة فانها مقصورة على الألفاظ سواء أكانت مفردة أم مركبة من حيث هى ألفاظ ، بالاضافة الى قائل هذه الألفاظ فالبلاغة تشمل الفصاحة ، فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا ، ويشترط فى هذا الكلام أن يكون مركبا ، فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم بلاغة — الا مجازا كما سلف أن أوضحنا — ولكن نطلق على هذه اللفظة المفردة سمة الفصاحة لوجود صفة الحسن فيها (٣٨) غير أنها وهى بهذه الصورة — أى الافراد — لا تعطى معنى مفيدا •

بهذا القيد استطاع ابن الاثير أن يفرق بين الفصاحة والبلاغة فأرجع الأولى الى الألفاظ ، وخص الثانية بالألفاظ والمعانى ، وجعل البلاغة أخص من الفصاحة لعموميتهما ، ونراه قد أوضح هذا فى كتابه المثل السائر فى المقالة الاولى عندما تناول الصناعة اللفظية فقسمها الى قسمين : الأول فى اللفظة المفردة ، والثانى فى الألفاظ المركبة (٣٩) •

(٣٧) الجامع ص ٧٩ •

(٣٨) انظر مثلا ص ٢١٤ المثل السائر •

(٣٩) انظر المثل السائر ص ١١٤ •

فبالنسبة للفظة المفردة فإن على الكاتب أن يراعى ثلاثة أشياء:
الاول : اختيار الألفاظ المفردة ، فعلية أن يختار وينتقى قبل
الكتابة •

الثانى : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ، كيلا يكون
الكلام قلقا أو نافرا عن موضعه •

الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه •
(فهذه ثلاثة أشياء لابد للخطيب والشاعر من العناية بها ،
وهي الأصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر ، فالأول
والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة، والثالثة بجملتها
هى المراد بالبلاغة) (٤٠) • وهذا معنى كلامه أن الفصاحة خاصة
بالألفاظ والبلاغة تنصب على المعانى ومدار التفاوت والتفاضل ،
انما يقع فى التراكيب أكثر مما يقع فى المفردات ، وما ذاك الا
لأن التركيب أعسر وأشق ، والدليل على ذلك أن القارئ قد
يقع على لفظة فى كلام سواء كان نظما أو شعرا فيعجب بها ، ثم
يراهها فى كلام آخر فينفرد منها •

اذن التركيب الذى دخلت فيه هو الذى حسنها أو قبحها ،
وهذا رد على من قال ان الألفاظ كلها حسنة لأن الواضع لم يضع
الا ألفاظا حسنة (٤١) فيدحض ذلك ويرى أن الاستعمال هو الذى
حسن أو نفى الحسن ويضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم ،
والشعر العربى قائلًا : (وهما من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت

(٤٠) المثل ص ٨٦ ، ٨٧ •

(٤١) المثل ص ٨٩ •

فى آية من القرآن الكريم ، وفى بيت من شعر الفرزدق ، فجاءت فى القرآن حسنة وفى بيت الشعر غير حسنة ، وتلك اللفظة هى لفظة القمل ، أما الآية فقولہ تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع ، والدم آيات مفصلات » وأما البيت الشعري فقول الفرزدق :

من عزه احتجرت كليب عنده زربا كأنهم لديه القمل

وانما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت فى الآية ضمن كلام ، ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت فى الشعر قافية : أى آخر انقطع عندها الكلام (٤٢) .

ونكاد هنا نسمع صوت عبد القاهر الجرجاني الصادر من كتابه دلائل الإعجاز عندما تكلم أيضا عن الفصاحة والبلاغة فقال نفس الكلام (ان الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفرد ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى يليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك ، وتوحشك فى موضع آخر ، كلفظ الأخدع فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الاصغاء ليثنا وأخدعا
وانى وان بلغتنى شرف الفنى وأعتقت من رق المطامع أخدعى

فان لها فى هذين البيتين مالا يخفى من الحسن ، ثم انك تتأملها
فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعك فقد . أضجبت هذا الانام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير
أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة (٤٣) .

أذن المعول على الاستخدام هو الوضع فى تركيب وهذا
مترك للشاعر أو الكاتب ، ومن ثم اشترط ابن الاثير الشروط
الثلاثة سالفة الذكر من حيث الاختيار للفظه ونظمها فى سياق تكون
فيه خالية من التنافر والقلق ، كما أنها بعد ذلك وقبله لابد أن تكون
ظاهرة بينه راعت المقام وأدت المقصود بها . ورأى أن الأول والثانى
المراد بهما الفصاحة ، والثلاثة تراد بها البلاغة أى أن الكلام لا يكون
بليغا الا بمجموع هذه الاشياء ، فلو عرى من واحد منها فليس
ببليغ (لأن الكلام لا يطلق عليه اسم البلاغة حتى يكون فصيحاً ،
فالفصاحة اذا شرط فى البلاغة لا تتم الا به ، فلما كانت الحال
كذلك وجب أن تعم البلاغة اللفظ والمعنى معا . أما الفصاحة فليست
كذلك لأنها محض ابانة ووضوح فقط ، وذلك يتعلق باللفظ .) (٤٤)

ومن ثم فانه لا فضل ولا مزية للكلمة المفردة من حيث هى
مفردة حتى تدخل فى سياق يبرزها ويظهرها وتظهر براعة الكاتب فى
استخدامها فى مكانها الصحيح ، فلا تكون قلقة ، ولا نافرة ، اذ

(٤٣) دلائل الاعجاز ص ٤٦ ، ص ٤٧ وما بعدها وانظر ايضا المثل

ص ٨٦ وما بعدها ، والجامع الكبير ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٤٤) الجامع ص ٨١ .

أنها قبل أن تدخل فى سياق تكون كلمة معجمية باردة لا تؤدي معنى محددًا ، ولذا لا يتصور أن يكون بين لفظة وأخرى تفاضل من حيث هما الفاظ ، فكل منهما تؤدي معنى ، والتفاضل لا يقع فى المعانى المختلفة ، وإنما التفاضل يقع فى التركيب وهل أدت اللفظة دورها فيه بحيث يكون مستخدمها قد أجاد فى استخدامها أم لا . أما من حيث هى مفردة فالفضل والمزية التى تثبت لها هوكونها مألوفة الاستعمال أو غريبة وحشية ، أو أن تكون حروفها أخف وأحسن كما أن اللفظة لا تكون أفضل من اللفظة التى فى معناها إلا بالشروط السابقة مثل كلمة البعاق والديمة كما قدمنا يقول ابن الاثير : (اعلم أن اللفظة قبل دخولها فى سبيل التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التى تسمى كلاما دالا على معنى من المعانى لا يكون لها مزية على اختها التى فى معناها ، إلا بأن تكون هذه أشرف من هذه بعلامات توجد فيها ، أما أن تكون احدهما مستعملة مألوفة ، والأخرى وحشية متوعدة ، وأما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو احسن امتزاجا مع صواحبها +++) (٤٥) .

فهو بهذا قد حدد شروط فصاحة الكلمة أو اللفظة المفردة قبل أن تدخل فى سياق ، فذكر العيوب التى ترد بها كأن تكون وحشية متوعدة ، أو أن تكون حروفها سهلة النطق ، وهذا ما ذهب اليه علماء البلاغة من شروط الفصاحة كما سنوضحهما بالترتيب : الكلمة :
فالكلام ، فالتكلم .

أولا فصاحة الكلمة :

فصاحة الكلمة هو أن تخلو من العيوب المخلة بها مثل :

(أ) خلوصها من تنافر الحروف : كي تصير عذبة رقيقة تخف على اللسان ولا تثقل على السمع ، فلفظ ديمة أو مزنة أخف من لفظ بعاق ، كذا لفظ أسد أخف من لفظ فدوكس أو العمثل •

(ب) خلوصها من الغرابة وتكون مألوفة الاستعمال •

(ج) خلوصها من مخالفة الوضع حتى لا تكون شاذة •

(د) خلوصها من الكراهة في السمع (٤٦) •

ففصاحة الكلمة تأتي من تكونها من حروف متألفة يسهل على اللسان نطقها من غير عناء مع وضوح معناها ، وكثرة تداولها بين المتكلمين ، وموافقتها للقواعد الصرفية ومرد ذلك الذوق السليم ، والالام بمتن اللغة وقواعد الصرف وبذلك تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من الخل •

وتنافر الحروف :

ناتج عن ثقل الكلمة على اللسان فيعسر النطق بها وهو نوعان تنافر شديد كلفظة الظش للموضع الخشن ، والهعزع لبنات تراعاه الابل ، فهاتان الكلمتان غير فصيحيتين لما فيهما من تنافر الحروف تنافرا شديدا يشعر به كل ناطق وهو خلل واقع في مادتهما •

— والتتافر الخفيف ، وهو أقل من السابق ، لكن يشعر به القارئ ، مثل قول امرئ القيس :

غدايره مستشزرات الى العلا .: تضل العقاص في مثنى ومرسل

فكلمة مستشزرات تتقارب مخارج حروفها مما أدى الى تنافرها ، ولكن بصورة أقل مما قبلها .

وضابط تنافر الحروف هو قرب مخارجها ، أو بعدها فلفظة الهعخع ثقيلة التنافر لتقارب حروفها في المخرج وذلك لأن الهاء ، والعين ، والخاء ، خارجة كلها من مخرج واحد وهو الحلق ، غير أن بعضها خارج من أقصاه وبعضها قريب منه .

ولفظة مستشزرات متنافرة لتقارب حروفها في المخرج كذلك إذا أن حروفها ما عدا الميم خارجة من المخرج الواحد وهو اللسان ولكن بعضها خارج من طرفه ، وبعضها من وسطه .

لكن هذا الضابط المذكور غير مطرد ، لأننا لا نجد تنافرا في لفظي الجيش والشجى برغم تقارب الجيم والشين في المخرج ، كما لا نجد تنافرا في كلمتي علم ، وملح مع تباعد العين والميم ، أو الميم والحاء ، في المخرج .

غير أننا لو اعتبرنا التقارب في المخرج ، أو التباعد فيه سببا للتنافر المخل بالفصاحة ، لاقتضى ذلك وقوع غير الفصيح في القرآن ، فقد ورد قوله تعالى « ألم أعهد اليكم يا بنى آدم » مع تقارب الهمزة والعين ، والهاء في المخرج كما ذكرت في مادة علم في — غير موضع — مع تباعد العين والميم في المخرج وورود غير الفصيح في القرآن الممدود في أعلى طبقات الفصاحة مما لا يذهب اليه

عاقِل • اذا فقرب المخرج أو بعده لا يصلح ضابطا يعول عليه فى ضبط التنافر لعدم اطرادہ ، بل مرد ذلك كله الى الحكم السليم والذوق الفصيح ، فما اعتبره الذوق ثقيلًا متعسر النطق به فهو متنافر والعكس صحيح •

وهذه الأحكام ليست خاصة بزمان دون آخر ، أو مقصورة على قوم دون آخرين ، فلا يقول قائل بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغى أن تعلم أن ما يستحسن فى وقت من الاوقات هو عينه كان عند العرب حسنا كما أن ما يستقبح أيضا كان عندهم قبيحا ، كما ان الاستعمال ليس دليلا على الحسن وايشا فان الاستحسان غير مؤخوذ بالتقليد للعرب لانه شئ ليس للتقليد فيه مجال ، بل ثمة دلائل اذا وجدت كان اللفظ فصيحًا واذا انعدمت قبح اللفظ ، فنحن الآن نستسيغ لفظة المزن ، ونستقبح لفظة البعاق ، وكانا كذلك عند العرب أيضا ، فاذا استعملها بعض العرب لا يكون هذا سببا فى حسنها ، بل يعاب من استعملها (٤٧) •

وان كنت ارجح أن مصدر عيب هذه الكلمات ليس بسبب غرابتها أو وحشيتها كأن يستعملها قوم دون آخرين طالما فهم السامع ما يقصده المتكلم والدليل على ذلك ما جاء عن النبى ﷺ وحديثه مع طهفة بن أبى زهير النهري عند ما قال له (أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة على أكوار الميس ترتى بنا العيس نستجلب العبير ونستحلب الخبير ونستعصد البرير ، ونستخيل الرهام

ونستخيل الجهم فى أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشفأ
المدهى ، وييس الجعثن وسقط الاملوج ، ومات البعلوج ، وهلك
الهدى وفادى الوذى برئنا اليك يا رسول الله من الوثن والفتن ،
وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام وشريعة الاسلام ماطمى البحر
وقام تعار ، ولنا نعم همل أغفال ما تبعن ببلال ووقير كثير الرسل
قليل الرسل ، أصابتنا سنية حمراء مؤزلة ليس لها علل ولا نهل» • فقال
رسول الله ﷺ : « اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ، ومذقها
وفرقتها ، وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر ، وافجر له الثمد ،
وبارك له فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى
الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا ، لكم
يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط فى الزكاة ، ولا
تلحد فى الحياة ، ولا تتأقل عن الصلاة » •

وكتب معه كتابا الى بنى نهد « من محمد رسول الله الى بنى
نهد ، السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم بابنى نهد فى الوخيفة
الفريضة ، ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب ، والغلو
الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يجبس دركم ولا يؤكل
أكلكم مالم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقر بما فى هذا الكتاب
فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة)

ومن ثم لا نستطيع أن نصف هذه الألفاظ بالوحشية أو الغرابة
حتى لو ثقل النطق بها على اللسان لعدم الف اللسان على نطق

مثلها وما ثقل على اللسان فهو ثقل على السمع أيضا ومن ناحية أخرى فان الألفاظ التي نعتت بخلوها من الفصاحة انما نقلت من دلالتها الأصلية واستخدمت على سبيل المجاز فى المعنى الجديد وعندما نقلت الى المعنى الجديد فانها لم تفقد كل المعنى القديم أو حتى الظلال الباهتة لهذا المعنى فصارت علاقة المشابهة قائمة فى ذهن المتكلم الذى استعارها لتؤدى هذا المعنى الجديد ، فهو عندما يستخدمها وفى ذهنه هذا الجزء أو هذه الظلال الباقية للمعنى القديم، فانه اما أن ينفر منها أو أن يستحسنها اذا كان المعنى المنقولة منه حسنا، والعكس صحيح ويؤيدنا فى هذا ان اللغة قائمة على المجاز ، والا لصارت ضيقة مكرورة الألفاظ والمعانى ، فجاء المجاز ووسع نطاقها وأرحب دائرتها •

فاستبشع الناطق الفاظا مثل جحيش ، اطلخم ، بعاق ، وجفح وما أشبهه ، ونحن لو تدبرنا صورة هذه الألفاظ لوجدناها تتركب من حروف الأبجدية العربية العادية ، ولن نستطيع أن نقول ان واضح الأبجدية العربية عندما وضعها قسمها أو نص على أن هناك حروفا فصيحة وأخرى غير فصيحة ، بل كان فى وضعها على السواء ، والدليل على ذلك أن لفظة كملع مثلا لا تدخل دائرة الفصاحة ، وهى مركبة من الميم واللام والعين واذا عكسنا نطق هذه اللفظة وجعلنا الآخر أول لصارت الكلمة علم ، ومن ثم تدخل هذه اللفظة من أوسع أبواب الفصاحة على الرغم من أنه لم يتغير من حروفها شيء فان قيل بأن موسيقا الكلمة قد تغيرت من توالى حركات الفتح الى فتح فكسر ففتح ، نقول ان هناك الفاظا كثيرة تتولى

ففيها حركات الفتح ولا ترد فصاحتها وذلك مثل كلمة ضَرَبَ ، وما شابه ذلك فانها فصيحة لا غبار عليها ، ومن ثم فان حروف الكلمة وموسيقاها ليسا برادين فصاحة الكلمة أو مثبتاتها ، وانما المعول في ذلك على ما كان لها من معنى قديم حقيقى نقلت عنه الى المعنى المجازى الجديد لعلاقة المشابهة ، ومعلوم أن كل مجاز له حقيقة لأنه لا يصح لنا أن نطلق عليه اسم المجاز الا لنقله عن حقيقة موضوعة له فالمجاز اسم للموضع الذى ينتقل فيه من مكان الى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة الى غيرها ، ولكن ليس معنى هذا أن كل حقيقة لا بد لها من مجاز ، فأسماء الاعلام مثلا بعضها لا مجاز له لانها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات .

ومن ثم كان المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب
الفصاحة والبلاغة .

ولما كان الأمر كذلك فان معظم الاسماء التى وسمت بعريها عن الفصاحة ما هى الا ألفاظ أخذت من الحقيقة ونقلت الى المجاز وما ذلك الا لتشبيه حالة المنقولة اليه بحالة المنقولة عنه وذلك مثل لفظة بعاق فان هذه اللفظة قد يؤدى غير ما تدل عليه تكلفظة الديمة والمزنة والبعاق كلها تدل على المطر ، غير أن العرب استحسنوا الديمة والمزنة لأنهما المطر الذى يأتى بما يتمناه الانسان من غير ضرر ولا أذى فيسقى الحرث والنسل ، وينبت العشب والكلأ وتزدهر الحياة غضة ندية ، بخلاف البعاق ، فانه وابل يهلك الحرث

والنسل ويجرف ما أمامه ويلحق الأذى وتتشقق منه الأرض ،
بالإضافة الى أن المعنى الحقيقى للبعاق هو الشق أو تعنى الذبح
واسالة الدماء الغزيرة عندما تنحر الابل ، كما أنها تعنى فى الأصل
الكشف والابانة عن شىء مستور ، فالمعنى الحقيقى لها سواء أكان
الشق فى الأرض أو النحر واسالة الدماء أو اظهار شىء مستور كلها
مكروهة ، فلما استعيرت للمطر ظلت العلاقة قائمة فى ذهن المتكلم
فأطلقوها تبعا لذلك على المطر المهلك وليس الذى يستفيد منه الحرث
والنسل ، فلذا — للعلاقة بين المجاز والحقيقة — كره استخدامها
ورميت بعدم الفصاحة •

يقول الزبيدى فى تاج العروس (البعاق كغراب شدة الصوت
قاله الليث وقد بعق الرجل وغيره وبعقت الابل بعاقا ، والبعاق
من المطر الذى يفاجئ بوابل وهو « مجاز » والبعاق السيل الدفاع
قال أبو حنيفة هذا الذى يجرف كل شىء ... وقد بعق الوابل
الأرض بعاقا بالضم اذا شققها وأسالتها، وبعق الجمل بعقا اذا نحره،
وأسال دمه ، وفى حديث حذيفة أنه قال ما بقى من المنافقين الا أربعة
فقال رجل فأين الذين يبعقون لقاحنا ، وينقبون بيوتنا فقال
حذيفة أولئك هم الفاسقون ... وبعقه عن كذا بعقا اذا كشفه
عن ابن عباد ، وبعق البئر بعقا حفرها نقله الزمخشري ، ويقال عقاب
مثل عقبناة نقله الجوهري ، وكذلك عنبقة ومقبناة ، وذلك اذا كانت
حديدية المخالب ، وقيل هى السريعة الخطف المذكرة ... والتبعيق
التشقيق وقد بعق زق الخمر تبعيقا أى شققها ، والانبعاق أن يتبعق

عليك الشيء فجأة من حيث لا تحسبه وأنت لا تشعر به ، ، فقه
الجوهري وأنشد :

بينما المرء انما راعه را . . . شع حشف لم يخش منه ابتعا

وانبثق المزن انبعج بالمطر نقله الجوهري وهو مجاز قد
الزمذشرى وذلك اذا انفتح بشدة قال رؤية :

يرون تحت الاثل سياح الدسق . . . اخضر كالبرد غزير المنيع

وانبثق في الكلام اذا اندفع فيه ، ومنه الحديث أنه فقه
لديه رجل فقال كم دون لسانك من حجاب قال شفتاي وأسفاه
فقال ان الله يكره الانبعاق في الكلام فرحم الله امراً أو جزء
كلامه ، وروى عن عمر رضى الله عنه الانبعاق فيما لا ينبغي ،
شقائق الشيطان (٥٥٥) (٤٨) اذا حقيقة الكلمة شيء غير محبب لد
النفس الصافية فعندما نقلت الكلمة من الحقيقة للمجاز عا
طريق المشابهة ظل في ذهن السامع شيء من هذه الحقيقة فرميت بعد
الفصاحة لذلك .

كما أنا لو عكسنا حروف هذه الكلمة « بعق » فانها تكون قعد
ومنها القعب في حديث لرسول الله ﷺ مع أحد فقراء المسلمين
الذى جاء يستعين به على الحياة فقال له ﷺ ما عندك ، قال

(٤٨) تاج العروسي من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي لم تذك
سنة الطبع المجلد السادس ص ٣٩٦ منشورات دار الحياة لبيد
بيروت .

وقعب نشرب فيه الماء ، وهو الاناء المعد لذلك وهى كلمة فصيحة
لاشية فيها .

أما خلو الكلمة من الغرابة فكونها مألوفة الاستعمال ظاهرة
الدلالة من غير كبير عناء أو مشقة ، لكن أحيانا تكون الكلمة غير
ظاهرة الدلالة على المعنى الذى سيقت من أجله ، أو تكون غير
شائعة الاستعمال ، وذلك لسببين :

الأول : عدم شيوع استعمال هذه الكلمة استعمالا يجعلها
مألوفة عند السامع والمتكلم ، فيحتاج الى البحث عن معناها فى
معاجم اللغة وأحيانا يجده وأحيانا لا يعثر عليه ، وفى هذه الحالة
يحاول استنباط معناها من السياق الموجودة به لأنها استخدمت فى
غير ما وضعت له فتخرج تخريجا بعيدا فالأولى مثل قول عيسى
بن عمر « فالكم تكأكنم على كتكأ كؤكم على ذى جنة افرنقوا »
أو كقول بعضهم نحن فى رخاخ من العيش ، أى فى رغد وسعة
الى غير ذلك من ألفاظ لا يفهم معناها بسهولة بل تحتاج الى
تنقيب .

والثانية كما فى قول رؤية بن العجاج :

أيام أبدت واضحا مقلجا . . . اغر براقا وطرفا ادعجا
ومقلة وحاجبا مزججا . . . وفاحما ومرسنا مسرجا

فكلمة مسرج تطلق أساسا على أنف البعير اذ هو موضع
الرسن منه ، ثم اطلق بعد ذلك على الأنف مجازا ومن ثم اختلف
فى تخريج المعنى (فقل هو من قولهم للسيوف سريجىة منسوبة
الى قين يقال له سريج ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف

السريجي ، وقيل السراج يريد أنه في البريق كالسراج وهذا يقرب
من قولهم سرج وجهه أي حسن وسرج الله وجهه أي بهجه
وحسنه (٤٩) •

ومهما يكن من أمر فانها غير ظاهرة الدلالة لأن فعل — المضعف
العين — يدل على نسبة الشيء الى أصله ، فيقال كفر فلان فلانا
أي نسبه الى الكفر أو فسقه ، نسبة الى الفسق ، وأيضا النسبة
التشبيهية (٥٠) • لا تدل عليها المادة المذكورة ، فأخذ ذلك منها بعيد ،
لذا كان اللفظ بعيدا غريبا خفى الدلالة ، لعدم استعماله عند العرب
بهذا المعنى ولعدم وجود قرينة تحدد المقصود من هذه الكلمة •
وأحيانا قد لا يستدل القارئ على تفسير لها مثل قول أبي الهميسع
من طمحة صبيها جحانج . . . لم يحضها الجدول بالتنوع

فلفظة جحانج هذه لم يعثر لها على تفسير (٥١) •

أما مخالفة الوضع : لما ثبت عن الواضع دليل على عدم فصاحة

لما ثبت عن الواضع دليل على عدم فصاحة الكلمة وقد عبر
الكلمة وقد عبر الخطيب القزويني بقوله مخالفة القياس (٥٢) غير أن

(٤٩) الايضاح ص ٤ •

(٥٠) وهي أن يكون المنسوب شبيها بالمنسوب اليه •

(٥١) انظر أيضا جواهر البلاغة ص ١١ •

(٥٢) الايضاح ص ٤ وكلهم اخذ عنه •

الأولى أن نقول مخالفة الوضع لأنه أنسب للمعنى المراد منه ، وهو مخالفة الكلمة لما ثبت عن الوضع ، سواء خالفت القياس الصرفي أولا (٥٣) فالمعول على ما ثبت عن الواضع بغض النظر عن القياس المذكور مثل قول المتنبي :

فان يك بعض سـيـفا لدولة .: ففى الناس بوقات لها وطبول

فلفظة بوقات غير فصيحة لمخالفتها لما ثبت عن الواضع ، وأيضا مخالفة القياس الصرفي والأخرى أن تجمع على أبواق كما ثبت عن الواضع وما يقتضيه القياس الصرفي .

وأيضا عندما يفك الادغام فى الكلام فانه يرد فصاحته بذلك مثل قول أبى النجم :

الحمد لله العلى الاجل .: الواحد الفرد القيم الاول

فالقياس يقتضى الأجل بالادغام ولا مسوغ لفكه وغير هذا كثير غير أن هناك ألفاظا وردت مخالفة للواضع ، لكنها موافقة للقياس الصرفي ومع ذلك تعد فصيحة ، مثل الفعل أبى ، فاننا نقول يأبى بالفتح لا بالكسر وأيضا استحوذ ، وعور ، فالقياس أن يقال استحاذ ، عارت بقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فتحقيق الواو مخالف للقياس الصرفي لكنه فصيح ، لأنه ورد هكذا عن الواضع استحوذ وعور ومنه قوله تعالى « استحوذ عليهم الشيطان » .

فالمعول في المخالفة هو أن تخالف الكلمة ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القياس الصرفي أو وافقته ، فهذا مخرج للكلمة عن دائرة الفصاحة ، وبهذا أيضا يكون التعبير بمخالفة الوضع أولى من مخالفة القياس لما قدمنا . .

أما بالنسبة للكلام المركب فإن له أيضا شروطا لفصاحته يقول القزويني (وأما فصاحه الكلام فهي خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد مع فصاحتها) (٥٤) .

وقد اشترط فصاحة اللفظة المفردة قبل أن تدخل في سياق ومثل الكلام في هذا مثل البناء فإنه لن يكون قويا متماسكا إلا إذا كانت أحجاره قوية متماسكة صلبة والعكس بالعكس ، ولذا اشترطت فصاحة الكلمة حتى تدخل في سياق ومن هنا تظهر براعة المتكلم ، كما يظهر الفرق بين متكلم وآخر فالمادة واحدة متصفة بالفصاحة فعند الصياغة والنسب نجد أن هذه المادة الواحدة قد تنوعت واختلفت لأن المستعمل للألفاظ يحوطها بحرارة الانفعال الفريد الأصل كما قال برجسون ، ولذا فإن قصيدة لامرئ القيس تختلف عن قصيدة للنابغة تختلف عن قصائد آخر لطرفة أو لحسان ابن ثابت أو للمتنبى ، أو المعري أو البحتري أو أحمد شوقي أو البارودي وغيرهم ، ومن ثم يأتي معيار التفرقة فيقدر الاستطاعة والهيمنة على اللفظة وقدرة الانتقاء يحصل التمييز والفرق كالجواهر مثلا إذا صيغت في عقود لدى الصائغ ، فحبات الدر واحدة شكلا

ومضمونا ، ولكن براعة التقنية عند صائغ تجعله يجذب أنظار
المشاهد بخلاف الصائغ الآخر ، فالاول قد صاغ عقدا فائق الجمال
وناسب بين حبات اللؤلؤ وبعضها بعضا فخرجت آية فى الفن ،
والآخر كان حاطب ليل وضعها كيفما اتفق فزادها قبجا ونقر الناس
منها رغم أن الدر واحد فى الحالتين ، فالعيب فى الصائغ لا فى
مادة الكلام •

وهذا نفسه ينطبق على اللفظة المفردة والعلاقة بينها وبين
الكلام المركب ، فهذا الكلام يتكون من مجموعة الألفاظ ، فلكى
يكون الكل سليما فصيحاً ، لابد أن يسلم الجزء ، فما سلم جزؤه
سلم كله وما سلم كله كان جزؤه سليماً فمثلاً محمداً أصدق مودة من
أخيه أو شعر هند مستشزر ، غير فصيح مع أنه كلام
سليم من العيوب الثلاثة المخلة بفصاحته باعتباره كلاماً مركباً ،
لكنه لما لم يسلم من العيوب المخلة بفصاحة بعض أجزائه لم يكن
فصيحاً ، إذ الشرط فى فصاحة الكلام سلامته من عيوبه وغيوب
أجزائه أى مفرداته •

ولذا اشترطوا فصاحة الكلمة حتى يكون الكلام فصيحاً ، فإذا
اعتبرنا الكلمة فصيحة وأخذها المستعمل لها يجب أن يراعى شروط
فصاحة الكلام المركب ، وفصاحته أن يبرأ من عيوب ثلاثة •

(أ) تتنافر الكلمات مجتمعة •

(ب) ضعف التأليف •

(ج) التعقيد اللفظى والمعنوى •

(أ) تنافر الكلمات مجتمعة :

هو كون الكلمات المفردة متصلا بعضها ببعض اتصالا يسبب صعوبة في نطقها ، وتعسر أدائها واستغلاق معناها على الفهم بسبب التركيب الذي جاءت فيه ، لكن اذا كانت الكلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها لتآلفها وتسنى للعقل أن يفهمها بسبب ترتيب الألفاظ وفق المعانى كانت فصيحة صحيحة ، والمعول فى ذلك على الذوق العربى السليم والوقوف على قواعد اللغة والنحو والاسلوب فاذا فقد ذلك كان الكلام غير فصيح وعيب بالتنافر ، والتنافر اما أن يكون شديدا ، أو خفيفا .

التنافر الشديد :

وهو الذى يتعثر اللسان فى نطقه ، فاذا نطقه فانه لا يستطيع أن يردده أكثر من مرة ومثلوا له بيت الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر . . . وليس قرب قبر حرب قبر

فتوالى حروف القاف والباء والراء على هذا المنوال مما يصعب نطقه ، مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها ما كانت مستكرهة ولا ثقيلة ، ويقال ان البيت لا يعرف قائله ونسبوه للجن ، وقد علق عليه الجاحظ بقوله (ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض استكراه) (٥٥) .

(٥٥) انظر دلائل الاعجاز ص ٥٢ وانظر البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧ .

ومثله في شدة التنافر قول الآخر يصف فرسا بالخفة
والسرعة :

ازج زلوج هرز في زفازف .: هزف يبذ الناجيات الصوافنا-
أما التنافر الخفيف :

وهو أخف نطقا من سابقه كقول أبي تمام •

كريم متى أمدحه أمدحه والورى .: معى واذا مالتة لمتة وحدى (٥٦)

فان في تواتر هاتين اللفظتين نوع ثقل يشعر به القارئ
لهذا البيت من وجود الحاء مع الهاء تم اتباع ذلك بنفس الحمة
تم الهاء التي تليها هذه الهمزة فالاولى من اقصى الحلق والآخرى
من داخل البلعوم ، فيؤدى ذلك الى ارباك الناطق بها •

١ - ضعف التاليف :

وله ألوانه العديدة كأن يخرج الكلام على قوانين النفاة
والصرفيين ، أو تكرار الاضافة أو اتصال الضمير بعد الا • ولها
شواهد عديدة نجتزى منها عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة
مثل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كسبر .: وحسن فعل كما يجزى سنمار
فعاد الضمير في « بنوه » على « أبا الغيلان » وهو متأخر

لفظاً ورتبته أو قول الشاعر :

وما علينا إذا ما كنت جارتنا .: ألا يجاورنا الاك ديار

أو قول الآخر :

حمامة جرجا حومة الجندل اسجعى .: فأنت بهراى من سعاد وسمع

فأضاف حمامة الى جرجا — مؤنث أجرع وقصرت للضرورة —
المضافة الى حومة المضافة الى الجندل •

٣ — التعقيد :

وينشأ من كون الكلام خفى الدلالة على ما يراد به من معنى
وينشأ هذا من أمور عدة كأن تأتى الألفاظ غير مرتبة وفق المعانى ، أو
الفصل بأجنبى فى مواضع لا يجب الفصل فيها ، مثل الفصل بين الصفة
والموصوف ، أو البديل والمبدل منه ، أو بين المستثنى والمستثنى منه (وله
سببان أحدهما ما يرجع الى اللفظ ، وهو أن يختل نظم الكلام ،
ولا يدرك السامع كيف يتوصل منه الى معناه • • • والثانى
ما يرجع الى المعنى ، وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول
الى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهر) (٥٧) • فالتعقيد
أذن ينقسم الى قسمين ، فمنه ما يرجع الى اللفظ ، ومنه ما يرجع
للمعنى :

(أ) التعقيد اللفظى : وينقسم هو الآخر الى قسمين شديد
وخفيف •

١ — فالتعقيد اللفظي الشديد مثل قول الشاعر :

فأصبحت بعد خط بهجتها . . . كان قفرا رسومها قلما

وتقدير الكلام : فصبحت بعد بهجتها قفرا ، كأن قلما خط رسومها فقد فصل بين المتضايقين بالفعل خط ، كما فصل بين كأن واسمها باللفظ قفرا الذي هو خبر أصبح ، ويلفظ رسومها الذي هو مفعول خط ، كما فصل بين الفعل الذي هو خط ، وبين رسومها الواقعة مفعولا ، وبهذه الأمور استغلق المعنى على الفهم ، إذ لا يستطيع الانسان أن يفهمه الا اذا أرجع الامور الى أصلها ونفى هذا التشابك العجيب .

ومثله في التعقيد ذلك البيت المشهور من قول الفرزدق عندما مدح ابراهيم بن هشام المخزومي ، خال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي :

وما مثله في الناس الا مملكا . . . أبو أمه حي أبوه يقاربه

فنجد فاصلا كبيرا بين البدل وهو « حي » والمبدل منه هو « مثله » ، وفيه تقديم المستثنى ، وهو مملكا على المستثنى منه وهو « حي » برغم موافقته قوانين النحاة الا أنه زاد التعقيد ، كما فصل الشاعر بين المبتدأ والخبر (أبو أمه ، أبوه) بكلمة حي وفصل بين النعت والمنعوت بكلمة « أبوه » حتى صار التعقيد في أبشع صورة (٥٨) .

٢ — أما التعقيد اللفظي الخفيف كقول المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم .: شيم على الحسب الاغر دلائل

اذ تقدير الكلام : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الاغر ،
وهم لا يجفخون بها * والفصل بين المتلازمين واضح ، غير انه أقل
من سابقه تعقيدا للمعنى *

(ب) التعقيد المعنوى :

وينشأ من استعمال الألفاظ فى غير المعنى الذى وضعت له ،
واستخدامها العرب كقول العباس بن الأحنف :

ساطلب يعد الدار عنكم لتقربوا .: وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

فالشاعر لم يوفق فى استخدامه لفظة « لتجمدا » لأداء المعنى
الذى يريده منه على وجه استخدامه الصحيح ، اذ أن جمود العين
أصلا هو جفافها من الدمع عند الدافع اليه أو المسبب له كالحزن
وفراق الأحبة ، فاستخدمها بدلا من انسياب الدمع فأغلق المعنى
على الفهم اذ أن شعراء العرب تواردوا على أن جمود العين بخل
بالدمع ، مثل قول الخنساء :

أعينى جودا ولا تجمدا .: الاتيكيان لصخر الندا

أو قول أبى العطاء بن هبيرة :

الا ان عينا لم تجد يوما بواسط .: عليك بجارى دمعها لجمود

فكلام ابن الأحنف ومثله مما خفيت دلالتة على المعنى المراد
فلا يكون فصيحاً *

ومما تقدم يتضح لنا أن الكلام غير الفصيح يكون فيه أحد العيوب المذكورة سواء أكانت في اجزائه أم في تأليفه أم دلالاته على المعنى المراد منه فاذا سلم من هذه العيوب عد في عرف البلغاء فصيحاً ، والعكس صحيح .

أما فصاحة المتكلم : فهي ملكة راسخة متمكنة فيه فبها يستطيع التعبير عن مقصوده بلفظ فصيح ، حتى تصير تلك الأمور عزيزة فيه يستطيع متى شاء أن يستخدمها في أي ضرب أو فن من فنون الكلام وضروبه مع تنوعها ، ولن يتسنى له ذلك إلا إذا تمرس بعدد ضخم من أساليب العرب في عصور البطولة القولية ، ووقف على أسرار اللغة وحفظ كثيراً منها شعراً ونثراً حتى يتكون لديه الإطار ويكون أمامه المثل فيحذو حذوه .

البلاغة

وبعد أن انتهينا من الفصاحة بما لها وما عليها ندلف الآن للكلام عن البلاغة وقد عرفت البلاغة لغة واصطلاحاً .

فالبلاغة في عرف اللغويين هي الوصول والانتهاء ، وسميت بذلك لأنها تنتهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ، فيقال بلغ الرجل بلاغة إذا أصاب من نفس مخاطبه حاجته ، وبلغ منه ما أراد .

أما البلاغة اصطلاحاً ، فهي وصف للكلام وللمتكلم فقط ، فنقول هذا كلام بليغ ، وهذا متكلم بليغ ، ولا يصح أن توصف بها الكلمة فلا يقال هذه الكلمة بليغة (إلا على سبيل المجاز) ونحن نقصد الكلمة المفردة لعدم ورود السماع بذلك .

وبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع سلامته من

العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة مفرداته ، وهذا معنى قولهم لكل مقام مقال ، فيستدعى هذا أن يضع المتكلم فى كلامه ما يناسب حاله المخاطب زيادة على المعنى الأصلي •

وقد اشترط فى البلاغة سلامة الكلام من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه ، وبهذا تصير البلاغة أخص من الفصاحة وأن كل كلام بليغ لابد أن يكون فصيحاً ، وليس كل كلام فصيح بليغاً •

أما بلاغة المتكلم ، فمثلها مثل الفصاحة باعتبار كونها ملكة قائمة بنفس المتكلم يمكنه بواسطتها أن يعبر عن المعانى التى يريد إفادتها لغيره بعبارات بليغة ، فإذا لم يكن ذا ملكة يقتدر بها على التصرف فى أغراض الكلام وفنونه بقول رائع ، وبيان بديع بالغاً من مخاطبه كل ما يريد لم يكن بليغاً (٥٩) (وتلك غاية لن يصل إليها الا من أحاط بأساليب العرب خيراً ، وعرف سنن مخاطبتهم فى منافراتهم ومغاخراتهم ومديحهم وهجائهم وشكرهم واعتذارهم فيلبس لكل حالة لبوسها ولكل مقام مقال) (٦٠) •

وبعد هذا العرض للفصاحة والبلاغة نتساءل عن موقف ابن الاثير من الفصاحة ، بعد أن عرضنا أيضاً للبلاغة عنده ، أى كيف كان موقفه من فصاحة الكلمة ، وفصاحة الكلام المركب ؟

قبل أن نخوض فى الاجابة على هذا السؤال نود أن نعرض لشيء هام جداً عند ابن الاثير فبعد أن فرق بين الفصاحة والبلاغة على عادة اهل البلاغة ورأى أن الثانية أخص من الاولى فالبلاغة

(٥٩) الايضاح ص ٧ •

(٦٠) جواهر البلاغة ص ٣٥ •

شاملة للألفاظ والمعاني وهى أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان •
فكل إنسان حيوان وليس كل حيوان إنسانا ، كذلك يقال كل كلام
بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا ، ويفرق بينها وبين
الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام هو أنها لا تكون الا فى اللفظ
والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم
بلاغة ، ويطلق عليها اسم الفصاحة ، اذ يوجد فيها الوصف المختص
بالفصاحة ، وهو الحسن ، أما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها
من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما (٦١) •

بعد هذا نرى ابن الأثير قد أرجع الفصاحة الى الذوق فما
عده الذوق من الألفاظ — سواء أكانت مفردة أم مجموعة — حسنا
فهو حسن مقبول ، وما اعتبره الذوق سيئا فهو كذلك ، ولكن ليس
أى ذوق بل يشترط أن يكون الذوق صحيحا غير سقيم ، ونضيف
نحن أنه ذوق تدرب وتمرس بعدد ضخم من النصوص البليغة
الفصيحة ووقف على الحسن والردىء منها ، ولذا قال عنه ابن
الأثير كما سوف نرى الذوق الصحيح •

فعندما نتناول اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها قرر فى غير موضع
أن للذوق دورا كبيرا فى ذلك المضمار ، فنراه عندما نتناول الافراد
والجمع فى اللفظ ، تبين الفروق الرقيقة المتموجة بين لفظ وآخر
وتبعا لهذه الفروق يختلف جمع الألفاظ ، فمثلا كلمة عين أحيانا
يقصد بها العين الناظرة وأحيانا يقصد بها الإنسان النبىه من
الناس ، فان قصدنا العين وهى حاسة الابصار جمعناها على عيون ،

أما اذا قصدنا بها النبيه المتقدم من الناس جمعناها على أعيان ،
ويرى أن هذا يرجع فيه الى الاستحسان لا الى الوضع اللغوي
ومن ثم عاب قول المثني :

والقوم فى أعيانهم خـزـر . . . والخيل فى أعيانها قبل

لأنه جمع العين وهى حاسة الابصار على أعيان والاحرى
جمعها على عيون فيعلق على ذلك بقوله (فجمع العين الناظرة على أعيان
وكان الذوق يأبى ذلك ، ولا نجد له على اللسان حلاوة ، وان كان
جائزا) (٦٢) •

فعندما مجه الذوق ، ولم يستسغه اللسان كان معيبا برغم
جواز جمعه عند اللغويين على هذا الجمع ، ومن ثم يظهر الفرق بين
اللغة والبلاغة ، وهاك نصا آخر ينص فيه على ضرورة الذوق للفصاحة
ولكن ليس أى ذوق بل اشترط أن يكون ذوقا سليما ، وعند كلامه
على اسماء الفاعلين والثلاثى منها تناول أثناء ذلك الكلام على فعل
وافتعل ، فان لكل منها موزعا يحسن استعمالها فيه ، فنقول قعدت
الى فلان أحدثه ، ولا نقول اقتعدت اليه ، وكذا نقول اقتعدت غارب
الجمال ، ولا نقول قعدت غارب الجمل (وان جاز ذلك لكن الأول
أحسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فانه لا يمكن أن
يقام عليه دليل) (٦٣) •

وكما أن لكل من فعل وافتعل مكانا لا يحسن الا فيه ، كذلك

(٦٢) المثل السائر ص ١٧٦ •

(٦٣) المثل السائر ص ١٧٧ •

لوزن فعلة فان لها استخدامات لا تحسن الا فيها ، بل الغالب عليها في الاستخدام أن تكون حسنة نحو همزة ولمزة وجثمه ونومه ولكنه ، فانها يغلب عليها الحسن والفصاحة ، وقد استعمل القرآن همزة ولمزة ، وفي النهاية يطلب من القارئ أن يتأمل اختلاف صيغ الالفاظ ليعلم كيف يضع يده في استعمالها ، فكثيرا ما يقع فحول الشعراء والخطباء في مثلها اذا لم ينعموا النظر ويعملوا الفكر في مثل هذه المواقف والاستخدامات فيجب أن ترد هذه على الذوق الصحيح حتى يتأكد الانسان حسنها (ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر اذا مرت به الفاظ عرضها على ذوقه الصحيح ، فما يجد الحسن منها موحدا وحده ، وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الالفاظ) (٦٤) *

وبعد فما رأى ابن الأثير في فصاحة الكلمة والكلام *

أولا : فصاحة الكلمة المفردة

يقرر ابن الأثير أنه لا مزية ولا فضل للكلمة المفردة ، مثله في ذلك مثل باقي النقاد ، وهو على صواب في ذلك لان الفظة المفردة لفظه معجمية باردة لا تعطى معنى اكثر مما في حروفها ، كما لا يمكن وصفها بالبلاغة كما أوضحنا سلفا الا اذا دخلت في سياق وأدت دورا صحيحا كاملا في هذا السياق غير أن الفضل والمزية التي يمكن أن توصف بهما وهي مفردة هل هي مألوفة الاستعمال أو غير مألوفة وحشية أو أن تكون حروفها أخف حركة وأحسن امتزاجا

وبذا أيضا تتفوق على اختها التي في معناها (اعلم ان اللفظة قبل دخولها في سبيل التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التي تسمى كلاما دالا على معنى من المعاني لا يكون لها مزية على اختها التي في معناها الا بأن تكون هذه أشرف من هذه بعلامات توجد فيها اما أن تكون احدهما مستعملة مألوفة ، والاخرى وحشية متوغرة ، واما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو أحسن امتزاجا مع صواحبها ... ولا يتصور بين اللفظتين تفاضل في الدلالة على المعنى الذي اشتركا فيه حتى تكون احدهما أحسن في الدلالة على ذلك المغنى من الأخرى) (٦٥) .

ومدلول الدلالة في هذه العبارة هو العلاقة بين المعنى الحقيقي الذي وضعت له اللفظة أساسا ، وبين المعنى المجازي الذي استعيرت له فاذا كانت علاقة المشابهة قريبة ومفهومة بالاضافة الى حسن مخارج حروفها كانت الكلمة بذلك أحسن في الدلالة على المعنى الجديد الذي وضعت أو نقلت اليه .

ومما يحسب لابن الاثير ، كلامه عن اللفظة المفردة وانتباهه الى أن هذه اللفظة لا يمكن الحكم لها أو عليها حتى تدخل في سياق ويظهر التوافق والتواءم بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها ، وهذا نفسه ما عناه عبد القاهر الجرجاني عندما تكلم عن البلاغة والفصاحة فذهب الى أنه لا يمكن أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ، قبل أن تدخل في سياق من التأليف والنظم ، أما خلا ذلك فانه لا يمكن الحكم لها الا بأن تكون مألوفة مستعملة ، أو غريبة وحشية أو أن تكون

حروفها أخف وامتزاجها أحسن ، كما لا تكون ثقيلة تكدر
اللسان (٦٦) * وقد تساءل ابن الاثير هل فصاحة الكلمة مقيسة
بمخارج حروفها ، سواء أكانت متباعدة أم متقاربة ؟

نراه ينفي ذلك ، ويرى أن ثمة ألفاظا متقاربة الحروف وهي
غاية في الحسن ، وأخرى متقاربة وتكون غاية في القبح ، والحال
أيضا كذلك بالنسبة لتباعد مخارج الحروف ، فليس اذن التباعد
أو التقارب سبب حسن أو قبح الكلمة بل هناك اعتبارات أخرى كما
سلف أن أوضحنا وبالنسبة لتباعد مخارج الحروف فإن معظم اللغة
العربية دائرة عليه ، لأن الواضع قسمها الى ثلاثة أقسام : ثلاثيا :
ورباعيا : وخماسيا ، فالثلاثي من الألفاظ هو الأكثر ، ولا يوجد
فيه ما يكره استعماله إلا الشاذ النادر وأما الرباعي ، فإنه وسط
بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عددا واستعمالا وأما الخماسي
فإنه الأقل ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر ، وعلى
هذا فإن أكثر اللغة مستعمل غير مكروه ، كما عني بالمماثلة بين
حركات الفعل في الوجود وحركات المصدر في النطق ، كالغليان ،
والضربان ، والنقدان فإن حروفه كلها متحركة وليس فيها حرف
ساكن وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود ، اذن فإن واضع
اللغة نظر الى كل هذه الدقائق والاصول المعول عليها في النطق
والمعول على حسن أو قبح هذه الألفاظ هو حاسة السمع ، فهي

الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح، واستحسناتها أو استقبحاتها إنما هو اعتبار المخرج لا بعده سواء أكانت متباعدة أم متقاربة فهناك ألفاظ تقاربت مخرجها وتكون محمودة لا قبح فيها ، فالكلمة التي تتكون من الجيم والشين والياء المتقاربة المخرج (اذ هي من وسط اللسان بينه وبين الحنك) تكون حسنة رائعة لا قبح فيها مثل جيش ، وشجى فكاتا هما محمودة ، أيضا الحروف الشفهية ، كالباء والميم والفاء اذا نظم منها شيء من الألفاظ كان جميلا مثل فم ، أو ذقت هذا بفمى .

كما أن المتباعد فيه الحسن والقبيح أيضا (ولو كان التباعدا سببا للحسن لما كان سببا للقبح ، اذ هما ضدان لا يجتمعان) (٦٧) ، مثل كلمة ملح ، فالميم من الشفة واللام من وسط اللسان ، والعين من الحلق وبرغم هذا التباعدا فان هذه الكلمة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ، غير أننا لو عكسناها لصارت علم ، وهي كلمة حسنة لا قبح فيها برغم عدم تغير مخرجها (ولو كان مخرج الحروف معتبرا في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في ملح وعلم) .

اذن مخرج الحروف سواء أكان من الحلق الى الشفة أو من الشفة الى الحلق لا دخل له في حسن أو قبح الكلمة فاذا كانت كلمة ملح قبيحة وكلمة علم حسنة فان غيرها لو عكس لصار هو وعكسه فصيحاً حسناً ، كغلب وبلغ ، وعقر ، ورقع ، وعرف وفرع ، وحلف وفلح وما أشبه ذلك . غير أننا رأينا في موضع آخر ينص على أن التباعدا سبب في حسن الكلمة وهذا شيء غريب اذا عد

التباعد بين الأوصاف السبعة التى تستحق بها الكلمة مزية الحسن والجودة وعدّها على الوجه التالى :

الاول — تباعد مخارج الحروف •

الثانى — ان لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعدة •

الثالث — أن لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة •

الرابع — أن لا تكون عبر بها عن معنى يكره ذكره ، فاذا أوردت وهى غير مقصودة بها ذلك المعنى قبحت •

الخامس — أن تكون مصغرة يعبر بها عن شىء لطيف ، أو أخف ، أو نحو ذلك •

السادس — أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا •

السابع — أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة (٦٨) •

وبعد أن عدد هذه الأوصاف السبعة ، قام بدراسة ضافية عن الحروف ومخارجها وتعريف الصوت والحروف الحلقية والشجرية ، والذليقة والشفهية والخيشومية (٦٩) نراه يعود مرة أخرى فيقرر ما قررناه سلفا بأن (تباعد المخارج ليس بكاف فى حين اللفظة ، ولا مقنع فى جودتها فانه قد تأتى لفظة مؤلفه من حروف متباعدة المخارج ولكنها تكون مبنية من حركات ثقيلة أو تكون وحشية ، أو غير ذلك من الصفات الذميمة فيعارض ذلك الوصف المحمود

(٦٨) الجامع الكبير ص ٣٣ ، ٣٤ •

(٦٩) الجامع ص ٣٥ وما بعدها وانظر المثل السائر ص ٩٢ •

هذا الوصف المذموم فيذيله ويذهب به) وان كنت لا أرى أن تباعد مخارج الحروف أو تقاربها سببا للحسن أو الرداءة لأن واقع لغتنا العربية يدحض ذلك ، وبالتالي فإن هذا الوصف لا اعتبره من صفات حسن أو قبح اللفظة وأنه بعيد عن باب الفصاحة ، وكذا قوله (ان الغالب على المتباعد المخارج من الالفاظ الجودة والحسن والغالب على المتقارب المخارج الرداءة والقبح) (٧٠) *

ثانيا - أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعدة ، ويعنى ابن الأثير بالوحشى قلة الاستعمال فى الكلام ، وأن أحسن الالفاظ عنده ما كان مألوفا دائرا فى الكلام قد صقلته الألسنة، وأنسته الاسماع والقلوب ، والحال هنا نسبية ، فما كان من الكلام غير مألوف عند قوم فهو مألوف عند آخرين كما أن اللغة ليست وقفا على قوم دون آخرين فللمتكلم الحرية فى أن يأخذ من أى الاقوام شاء ، ماشاء من الكلام مما يتناسب وموضوعه الذى يتكلم فيه فليس ثمة عيب فى هذه الكلام بل العيب فىمن ابتعد عن استخدامه ، فما ذنب السيف ان كان الضارب كليلًا ، والدليل على ذلك حديث طهفة بن أبى زهير مع رسول الله ﷺ حتى ان عليا بن أبى طالب سأل الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا (يارسول الله نحن بنو أب واحد ، وريينا فى بلد واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره) فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم (أدبنى ربى فأحسن تأدينى ، وربيت فى بنى سعد) (٧١) *

(٧٠) الجامع الكبير ص ٣٥

(٧١) الجامع الكبير ص ٤٥

فان الله قد الهمة هذا الكلام وتلك المعانى وأنطقه بها ، كما أن تربيته فى البادية فى بنى سعد علمه ذلك الأسلوب ، وما زال الجميع على بداوتهم ، فمثل هذا الكلام مستعمل مألوف ، وما جاء منه فى الكلام جاء عفوا غير متكلف ، ينساب فى سهولة ورقة ويسر لكن المعيب هو أن يلبس المرء غير لباسه ، ويمتطى جودا لا يعرف كيف يسوسه ، فانما الكلام كالمهر الاران ، لا يسلم عنانه الا لمن كان قادرا على أن يمتطيه ، والا جمع به ومنه • فلا يأتى انسان ويتكلم فى عصرنا الحاضر بما كان يتكلم به صعاليك العرب مع قوم حظهم من الثقافة العربية ضئيل ، اما اذا استعمل مع من يفهمه لم يكن وحشيا ولا غريبا ، حتى وان كان فى زمان غير زمانه لأن اللغة كائن حتى متكامل •

وشبيه بهذا ما ذكره فى المثل السائر (٧٢) عن استعمال الألفاظ بين ساكن المدينة وساكى البيداء الذى يقول شعرا يقطر عذوبة ورقة كشعر السموءل بن عاديا ، وعروة بن اذنية أو غيرها ، ثم يأتى ساكن المدينة الذى يعيش فى رفاغة من العيش ورقة الحياة يحاول أن يأتى بوحشى الالفاظ ، وشظف العبارات لكى يثبت لنفسه الفصاحة والبلاغة وهو على غير ذلك ، وما جره الى ذلك الا محاولة التقيقه والتقعر وااثبات قدرته القولية ، وكان الأجدر به أن يواكب زمانه وخلانه فان فعل لم يكن معيبا وان اتى بالوحشى الذى يفهمه من يسمعه •

(٧٢) المثل السائر ص ١٠٣ وما بعدها وانظر الجامع الكبير ص ٤٦ •

غير أنه يرى أن الالفاظ الوحشية قد خفى فهمها وظنت من المستقبح من الالفاظ وهي ليست كذلك ، ثم يقسم الوحشي الى قسمين :

• (أ) غريب حسن

• (ب) غريب قبيح

ويذهب الى أن هذه الفئة «الوحشي» مستعارة من وحوش القفار ، وفيها الوحش الحسن ، والوحش القبيح ، وأيضا فان أحسن الوحش ما كان مقبولا من الجميع ، وكذا الالفاظ فأحسنها ما كان مألوفا متداولاً ، وأقبحه ما كان مهجورا لنفور الناس منه ، والحسن المألوف المتداول أيضا على درجات تبعا لحسنه ومن ثم فان الألفة تنقسم الى ثلاثة أقسام قسمين حسنين ، وقسم قبيح :

الأول — ما تداول استعماله بين الناس لا فرق في ذلك بين السلف والخلف •

فكما استعمله الآباء استعمله الأبناء وهذا حسن لا يسمى وحشيا • الثاني ما تداول واستعمل عند الأدباء في الزمان الاول وابتعد عن استعماله بعض الأبناء لا لأنه وحشي ، أو يعاب من استعماله وهجر الناس له قربة من الوحشية ، أو على الأقل جعلته كالنافر من الوحوش ، لكن اذا استؤنس صار حسنا أليفا ومنه في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أشياء تعرف باسم غريب القرآن وغريب الحديث (٧٣) كحديث طهفة بن أبي زهير •

الثالث : وهو القبيح من الألفاظ ويعرفه بأنه الوحشى الغليظ لان سمع السامع يستثقله بل يكرهه ، وما ذلك الا لانه أولا غريب الاستعمال وثانيا ثقيل على السمع كريحه على الذوق (واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته * وهـ و الذى يسمى الوحشى الغليظ ، ويسمى أيضا المتوعر ، وليس وراءه فى القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن أصلا) (٧٤) ويضرب لهذا النوع العديد من الامثلة التى وردت ضمن أبيات للعديد من الشعراء ، كلفظة جحيش فى بيت تأبط شرا واطلخم ودهاريس فى قول أبى تمام :

وقد اطلخم الامر وانبعث . : عشوا تلية نجسا دهاريسا
أو لفظة جفخ فى قوله المتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم . : شيم على الحسب الاغر دلائل
وان كنت لا أوافقه على رأيين له فى استعمال الغريب الوحشى من الألفاظ وهما :

١ — العرب لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ بل تلام على استعمال الغريب القبيح منها ، أما الحضري فيلام على استعمال الغريب الحسن ، والغريب القبيح * .

٢ — الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات * .

أما عدم لوم العرب على استعمال الغريب الحسن ، ولومها على الغريب القبيح فأنى أتساءل ما معيار الغرابة عنده ؟ كما أرى أن الحال نسبية فما كان عنده غريباً ربما لم يكن عند العرب كذلك ، وأيضا بالنسبة للقبيح فهل كان رأيهم فيه أيضا أنه قبيح ، وهل درى هو بذلك ؟ أما الطامة الكبرى فإنه يحرم على ساكن المدينة ما أباحه للعرب سكان البادية ، والسؤال هو هل تتجزأ اللغة العربية فيكون جزء منها لساكن المدينة ، وآخر لساكن الحضر ؟ الواقع يرفض ذلك بل اللغة كل لا يتجزأ ، فما كان صالحا لساكن البادية صلح لساكن المدينة وما عيب على ساكن الحضر ، عيب على ساكن المدر أيضا •

أما قوله بأن الغريب الوحشى الحسن يستعمل فى الشعر دون النثر ويصف من لا يوافقه فى هذا بصفات غريبة • فأنى أيضا أرفض ذلك منه فاللغة فيهما واحدة وإنما الذى يختلف هو الاحساس والشعور والعاطفة من موقف لآخر والموقف نفسه هو الذى يفرض النمط اللغوى الذى يستعمله الانسان وقت صياغته ما يريد ، والدليل على ذلك أنه أتى بأبيات شعرية فيها ألفاظ يمجها الذوق وتتنفر منها الاذن ، ومع ذلك سوغ استعمالها كلفظة شرنبته فى قول الفرزدق أو لفظة مشخمر لبديع الزمان الهزانى الذى أخذها منه بشر بن عوانه العيذى (٧٥) • أو لفظة الكنهور للمتنبى وما أشبه ذلك من ألفاظ يراها جميعا حسنة غير مستكرهة ولا أدرى كيف ذهب هذا المذهب •

(٧٥) انظر المثل السائر ج ١ ص ١٦٦ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ،
وانظر الجامع الكبير ص ٤٨ •

ثالثا : ان لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة كان تكون ساقطة سوقية أو أن العامة حولتها من المعنى الموضوع لها ما الى معنى قبيح ، أو الى معنى آخر وان كان غير قبيح لكنه ليس المعنى الذى وضعت واستعملت من أجله ، واليك بيان كل قسم :

الاول : ما كان من الالفاظ دالا على معنى وضع فى أصل اللغة فغيرته العامة وحولته الى معنى آخر وهو نوعان :

(أ) ما يستقبح ذكره ويكره كقول المتنبي :

أذاق الغواني حسنه ما اذا قتنى . . . وعف فجازاهن عنى بالصريم

فالفعل صرم فى أصل اللغة يعنى القطع عكس الوصل ، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره وأبدلت السين صاداً (٧٦) لذاكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها من ألفاظ .

(ب) استعمل فى غير معناه الاصلى ، فأنكر استعماله وصار مبتذلاً (والذى ترجح فى نظرى أن المراد بالمبتذل من هذا القسم انما هو الالفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة) (٧٧) .

فليس المقصود من استعمالها ، اذا المقصود كيف استعملت فتسمية الشيء باسم غيره دون علاقة ، مثل بفصاحة اللفظة كأن تصف انسان

(٧٦) الجامع الكبير ص ٤٩ وانظر المثل السائر ج ١ ص ١٨٢ تحقيق

محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٧٧) المثل السائر ج ١ ص ١٨٢ .

بالظرف اذا كان دمث الاخلاق حسن الصورة مهندما ، لكن الظرف
فى أصل اللغة صفة للنطق كما أن لباقي شمائل الانسان صفات
دالة عليه ، وهذه الالفاظ جاءت فى شعر معظم الشعراء قديمهم
وحديثهم لكن تتفاوت درجة الاتيان به بين القلة والكثرة ومنه
ما ورد عن المتنبى كقوله :

وملومة سيفية ربيعية .: يصبح فيها الحصا صياح اللقالق

فاللقالق جمع لقلق وهو طائر كبير بالعراق ، وهذه اللفظة
واسعة الانتشار بين العامة .

رابعا : وهو خاص بالمشتراك اللفظى ، فيكون للكلمة معنيان
أحدهما يكره ذكره والآخر لا يكره ، فلا بد من قرينة فى الكلام
حتى يتحدد المعنى المقصود والا انصرف الوهم الى ما يقبح ذكره
لا شتهاره به دون غيره (٧٨) وذلك مثل لفظة التعزير ، فان هذه
اللفظة عندما تطلق يتبادر الى الذهن العقوبة التى تسبق حد الجلد
أو ما شابه ذلك ، ومعناها التعنيف أو الاهانة فاذا استخدمت فى
سياق دون قرينة تحدد المعنى المقصود سواء أكانت قرينة ظاهرة
أو خفية استخدمت للمعنى المتداول المعروف وهو الاهانة اما
اذا استخدمت معها القرنية تحدد ما يرادفها فلو قلت قابلت محمدا
فعرزته عندها ينصرف الذهن للاهانة أما لو قلت قابلت محمدا
فعرزته وأكرمته لبان المقصود ، وعليه جاء قوله تعالى : « فأما الذين
آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك
هم المفلحون » فالقرائن المذكورة مع هذه اللفظة فى الآية دلت
على أن المقصود هو المعنى الحسن من التعظيم والاكرام .

وكذلك لفظة مقاعد ، وجحر فقبحت الأولى فى قول الشريف الرضى :

أعزز على بأن أراك وقد خلا . . عن جانبك مقاعد العواد

وقد استعملها القرآن الكريم استعمالا حسنا فقال تعالى :
« واذا غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال » أو كقوله
تعالى : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع » وما أشبه ذلك .

خامسا : والأوصاف التى توجد فى اللفظة ، وتستحق بها مزية
الحسن والجودة هو كون الكلمة مصغرة فى موضع يعبر بها عن
شئ دقيق أو ضعيف ولكن بشرط أن لا يكثر منه المتكلم حتى
لا يهجن كلامه فيكفى الوجه شامة واحدة لإبراز حسنة وجماله ،
أما اذا زاد تغير الوضع الى ضده كقول الشريف الرضى :

هل ناشد لى بعقيق اللوى . . غزىلا مر على المركب (٧٩)

غير أن له رأيا آخر فى التصغير : وهو أن المعنى يسوق اليه
ومن ثم فلا حاجة لذكره (٨٠) .

سادسا : أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تأليفا (٨١)
وبذا استحسن الثلاثى وبعض الرباعى ، أما الخماسى فإنه رآه
قبيحا ويقطع بعدم وجود شئ منه حسن ، وذلك كجحمرش ،
وصهصلق ، ويعلل ذلك بأن أصول الثلاثى وبعض أصول الرباعى

(٧٩) الجامع الكبير ص ٥٦ .

(٨٠) المثل السائر ج ١ ص ١٥٥ ت محيى الدين عبد الحميد .

(٨١) المثل السائر ط ص ١٨٨ ت محيى الدين والجامع ص ٥٧ .

قد ركبت من حروف قليلة خفت على النطق لقصرها ، ومن ثم سهل التعبير بها على اللسان بسرعة فراغة منها ، والعكس صحيح فإذا ركبت الكلمة من حروف كثيرة كان فى النطق بها كلفة على الناطق لتطاولها وامتداد الصوت بها •

فالثلاثى عذب والخماسى المعيب كقول المتنبى :

ان الكرام بلا كرام منهم . . . مثل القلوب بلا سويداواتها

فكلمة سويداواتها خرجت عن القبول لأنها تطاولت وخرجت عن حد الاعتدال كما يقول (٨٢) ، غير أن الغريب العجيب أنه فى كتابه الجامع الكبير قد جعل طول اللفظة عيب فيها وخروج عن الاعتدال ، ثم فى كتابه المثل السائر ينفى ذلك معلقا على قول ابن سنان الخفاجى حول كلمة سويداواتها قائلا (وقال : — اى ابن سنان — ان لفظة سويداواتها طويلة ، فلهذا قبحت ، وليس الأمر كما ذكره ، فان قببح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وانما هى لأنها فى نفسها قبيحة) (٨٣) •

سابعاً : أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ، وحروف قليلة ، حتى تكون سهلة النطق يسيرة التشكيل بالحركات ، أى أن موسيقية الكلمة حروفا وحركات لا بد أن تكون متناسقة بين الخفة والثقل ، فلا تكون كلها « نشازا » فتكون مكونة من حروف كثيرة ونغمات أو حركات ثقيلة ، ومن ثم فان الحركات اما خفيفه

(٨٢) الجامع الكبير ص ٥٨ •

(٨٣) المثل السائر ج ١ ص ١٨٨ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

أو ثقيلة أو بمعنى آخر الموسيقى اما حادة أو هادئة فاذا نوالـت حركتان هادئتان ، كان لذلك وقعـه فى الأذن فتأنس به وتطرب له ، وأيضا اذا كانت حركة ثقيلة تتبـعها حركة خفيفة قبلتها الاذن الى حد ما ، بخلاف ما اذا كانت الحركات كلها ثقيلها فتكون عنيفة عند أصطكاكها بالاذن ، ومن ثم تنفر منها وينفر منها الناطق ، أى السامع والمتكلم •

والحركات من حيث الخفة ، والثقل تتوالى كالآتى ، فالفتحة أخف الحركات تليها الكسرة ، وآخرها الضمة لان الحركات تشابه الحروف ، ولما اشـبعت هذه الحركات انقلبت الى حروف فعندما تشـبع الفتحة تكتب ألفا ، واذا اشـبعت الكسرة كتبت ياءً ، واذا اشـبعت الضمة انقلبت واوا ولهذا السبب ذهب علماء العربية الى تسمية الضمة بالواو الصغيرة ، والكسرة بالياء الصغيرة ، والفتحة بالالف الصغيرة ، ومن ثم استثقلوا مجيء هذه الحركات على تلك الحروف ، لذا فانها تحذف للثقل أو لتعذر النطق بها لان الحركة الكبيرة تحتوى على الصغيرة فلا تظهر عند النطق بها •

وقليل من هذه الحروف تأتى عليها تلك الحركات وتكون مقبولة ، خاصة اذا كانت الكلمة ثلاثية تنساب حروفها بهذه الحركات نطقا فى خفة وسهولة ، فتتوالى هذه الحروف اما من الداخل الى خارج الفم ، أو العكس ، فتكون حركة النطق بها ميسورة فمثلا كلمة ضرب ، اذا وضعنا الفتحة على حروفها الثلاثة

كان النطق بها ميسورا هادئا ، واذا بنيت للمفعول كانت كذلك لكن لا تكون فى خفة الأولى ، بخلاف ما اذا وضعنا الضمة على جميع حروفها فان نطقها سيكون عسيرا والسبب ليس بسبب مخارج حروفها بل بسبب اختلاف تأليف حركاتها •

وان كنا قد وجدنا بعض الكلمات وضعت الضمة على جميعها ووجدنا ذلك مقبولا غير مرفوض وما ذاك الا لشيوع هذه الكلمة وتداولها بين المتكلمين ومجيئها على القاعدة التى وردت عن العرب فى مثل هذه الألفاظ • فصارت مألوفا بهذه الصورة ، والمألوف يصبح سهلا ميسورا لان الناس قد تعودوا عليه ، وألفته السنتهم وآذانهم ، وقد ورد كثير من مثل هذه الألفاظ فى القرآن الكريم ، والشعر العربى • غير أن الذى حسن ذلك انما هو شيوع هذه الكلمة أو تلك بهذه الصورة ، فصارت كوحش استؤنس فصار طيعا مألوفا ، ومن أمثلة ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وكقوله تعالى : (ان المجرمين فى ضلال وسُعر) أو (وكل شئ فعلوه فى الزبر) ومن ثم يعلق عليها ابن الأثير قائلا (فحركة الضم فى هذه الألفاظ متوالية وليس بها من ثقل ولا كراهة) (٨٤) •

(٨٤) . المثل السائر ج ١ ص ١٩٢ تـ محيى الدين وانظر الجامع الكبير ص ٥٩ وما بعدها ويعلق محققا الكتاب على قول ابن الأثير عن النوع السابع أنه هو الذى ابتكره • بل الواقع ان ابن جنى قد اشار الى ذلك ولم يخترعه أو يستنبطه ابن الأثير ، بل أخذه من ابن جنى وادعاه انظر الخصائص ج ١ ص ٩ ، ص ٧٣ - ص ٧٧ •

وأیضا قول أبی تمام :

نفس یحتثیه نفس !: ودموع لیس تحتیس

ومغان للسكری دثر !: عطل من عهده درس

شهرت ما كنت اکتبه !: ناطقات بالهوى خرس

ومن العیوب التى أوردھا أيضا ورآھا مخلة بفصاحة الكلمة ما أوردھ متناثرا فى كتبه غیر ما جمعه فى صعيد واحد كما تقدم ، وذلك مثل فك الادغام فى الفعل الثلاثی ونقله الى اسم الفاعل وعلى هذا فلا یحسن أن یقال : بل الثوب فهو بال ، ولاسل السیف فهو سائل ، ولا أن یقال هم بالأمر فهو هامم ویسمى هذا النوع بالمنافرة وهو (أن یذكر لفظ أو ألفاظ یكون غیرھا مما هو فى معناھا أولى بال ذکر) (٨٥) ویقسمه قسمین :

(أ) ما یوجد فى اللفظة الواحدة •

(ب) ما یوجد فى الألفاظ المركبة •

وسنتناول أولا بالحديث ، اللفظة الواحدة ، ونرجىء الكلام عن الألفاظ المركبة لحينها •

یرى أن ما یوجد منه فى الألفاظ المركبة یمکن تبديله أو تغیره سواء كان الكلام نثر أو شعرا ، أما ما یوجد فى اللفظة المفردة سواء تعددت أو لم تتعدد فانه لا یمکن تبديله بغيره خاصة فى الشعر ، وان تمکنا فى النثر ، وأعتقد أنه ممکن فى الشعر والنثر

(٨٥) المثل السائر ج١ ص ١٨٣ تحقیق محمد مجیب الدین عبد الحمید •

طالما كان المتكلم حاذقا بصيرا بأسلوب الكلام . ولا يعوقه عائق الوزن أو غيره فان فى اللغة ثراء كبيرا وسعة ، ويضرب مثلا لذلك بقول المتنبي :

فلا يبرم الامر الذى هو حال . . . ولا يحال الامر الذى هو يبرم
(لفظة حال نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل عوضا عنها لفظة ناقض فقال :

فلا يبرم الامر الذى هو ناقض . . . ولا ينقض الامر الذى هو يبرم

لجاءت اللفظة قارة فى مكانها غير قلقة ولا نافرة (٨٦) .

ومن هذه العيوب يتضح اننا فهم ابن الأثير لما ينبغى أن تكون عليه اللفظة المفردة حتى تكون فصيحة مقبولة .

ثانيا : فصاحة الكلام

وكما تناول ابن الأثير فصاحة الكلمة وحدد معالمها تناول أيضا فصاحة الكلام فيحدد هذه المعالم وضرب الأمثلة وكلها تدل على بصر ثاقب باللفظة المفردة ثم عند دخولها فى سياق ، وهو ما يعرف عند ابن الأثير بصناعة تركيب الألفاظ (٨٧) وكما أوضحنا سلفا فانه انتهى الى أن اللفظة المفردة قبل دخولها فى سبل التأليف وقبل أن تصير كلاما مفهوما دالا على معنى من المعانى

(٨٦) المثل السائر ج ١ ص ١٨٤ وانظر الجامع الكبير ص ٢٧٣ .

(٨٧) الجامع الكبير ص ٦٤ .

لا يكون لها مزية ولا فضل الا من حيث الألفة والاستعمال ، وما أشبه ذلك مما سبق أن أشرنا اليه •

وأیضا لا يمكن أن يحكم الانسان على أى كلام قبل أن ينظر الى شروط الفصاحة فى كل كلمة على انفرادها ، ثم اذا رأى أنها توفر فيها شروط الفصاحة ينظر اليها من خلال التأليف ، أى فى مكانها الجديد هل هى متمازجة متواكبة غير قلقة مع سياق الألفاظ الذى قبلها ، أو يعدها ، وهل هى مناسبة فى هذا المكان أو مضطربة •

اذا المعول عنده بعد اختيار اللفظة التى تؤسم بالفصاحة وتحققت شروط الفصاحة فيها هو حسن التأليف وجودة التركيب فلا بد أن يتواءم اللفظ والمعنى والتركيب حتى يتحلى الكلام بالرونق والطلاوة ، واذا كان المعنى جيدا والتركيب فاسدا ، فسدت لذلك قيمة العمل الأدبى كله ، وفقد رونقه وحلاوته ومثال ذلك العقد الثمين الذى أفسد نظمه ، فوضعت كل درة مع ما ينافيها ولا ولا يناسبها ، فصار مختل المنظر ، بخلاف عقد غير ثمين ، وضعت فيه كل حبة مع ما يناسبها ، فأحسن تنفيذه ، فخرج رائقا فى منظره (وحسن التأليف : هو أن توضع الألفاظ فى مواضعها ، وتجعل فى أماكنها ، وسوء التأليف بخلاف ذلك) (٨٨) أى بأن تدخل بعض العيوب على الألفاظ فى مواضعها ، فيختل نظمها ويفسد تركيبها كأن يقدم ما حقه التأخير أو العكس ، أو عاظل فى الكلام فتصير

(٨٨) الجامع الكبير ص ٦٤ وانظر المثل ص ٨٧ وما بعدها :

المعاني تبعا لذلك نافرة قلقلة عن مواضعها مضطربة (ومثال ذلك كالصورة التي تحول بعض أعضائها الى موضع بعض ، فتحول الرأس الى موضع اليد أو الرجل أو غير ذلك فانه اذا فعل هذا قبحت الصورة . وفسدت هيئتها الجميلة الحسنة) .

وكذلك الألفاظ اذا وضعت في غير مكانها الصحيح وركبت مع أخواتها (فان لتركيبها حكما آخر وذلك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ، ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة) (٨٩) .

فالعييب ليس في اللفظة ، وانما العيب كل العيب في استخدام اللفظة في سياق اذا عند ما تدخل هذا السياق ، أحيانا نصفها بأنها متمكنة مرضية ، أي حسنة الاتفاق بين الألفاظ بعضها مع بعض ، وقد نصفها بأنها قلقلة مستكرهة ، أي غير ملائمة ولم تتوافق مع صوابها فقد ينظر الانسان الى لفظة واحدة جميلة رائعة قبل أن تدخل في سياق ، فاذا دخلت في هذا السياق أو ذاك حكم عليها في أحدهما أنها جميلة متمكنة ، وفي آخر قلقلة نافرة ، ومن ثم فالعييب ليس فيها ، وانما العيب في سبكها مع صوابها ، ومثال ذلك ما أورده الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز حيث تكلم عن لفظة « الأخدع » ولفظة شيء فان هذه اللفظة كانت رائعة مستحسنة في كلام ، وكانت قبيحة نافرة في كلام آخر حيث يقول : (الألفاظ تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، لا من حيث هي كلمة مفردة

(٨٩) الجامع الكبير ص ٦٥ وانظر المثل ص ١١٤ ويضرب لذلك مثلا بالعقد .

وأن الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى
التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظة ، مما يشهد
لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها
تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظة الأخدع فى بيت
الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدنتى . . . وجعت من الاصغاء لبيتنا وأخدعا
وبيت البحترى :

وانى وان بلغتنى شرف الفنى . . . واعتقت من رق المطامع أخدعى
فان لها فى هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ثم انك تتأملها
فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعك فقد . . . أضججت هذا الانام من خرقك
فتجد لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير
أضعاف ، ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة (٩٠) .
وكذا لفظة شيء فى قول عمر بن أبى ربيعة أو أبى حية الذى
يقول :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة . . . تقاضياه شيء لا يمل التقاضيا
بخلاف قول المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه . . . لعوقه شيء عن الدوران

(٩٠) دلائل الاعجاز ص ٤٦ ، ص ٤٧ .

وهذا نفسه ، ماعناه ابن الأثير ، بل اننى أراه فى كثير من جوانب عرضه للموضوع يتوكأ على الجرجانى ، فيأتى بكلامه هو نفسه ، ويستشهد بأبياته ، فبعد أن رأى مثل الجرجانى أن اللفظة تروق وتحسن فى مكان وتستكره وتثقل هى نفسها فى مكان آخر ، وضرب لذلك مثلاً بلفظة الأخدع فى بيت الحماسة والأخرى فى بيت أبى تمام سالف الذكر ، نراه يعقب على ذلك بقوله : (ألا ترى أنه قد وجد لهذه اللفظة بيت أبى تمام من الثقل على النفس والكراهة أضعاف ما وجد لها فى بيت الحماسة من الروح والخفة والايناس والبهجة) (٩١) •

ومهما يكن من أمر فإنه قد عرض للعيوب المخلة بفصاحة الكلام كالمعازلة والمنافرة ، والتعقيد ، والاعتراض والحشو ، وتكرار الحروف وما أشبه ذلك مما سنعرض له بالتفصيل •

المعازلة : مأخوذة من قولهم تعازلت الجرادتان ، اذا رتبت أحدهما الأخرى ، واستعيرت للكلام المركب ، لعلاقة المشابهة بين تراكب الجرادتين ، وتراكب الكلام ، فسمى الكلام المتراكب بذلك على سبيل الاستعارة سواء كان التراكب فى اللفظ ، أو فى المعنى ، وقد قسمها الى معازلة لفظية ، وأخرى معنوية (٩٢) •

أولاً : المعازلة اللفظية : ويقسم هذا النوع من المعازلة الى خمسة أقسام :

(٩١) الجامع الكبير ص ٦٧ •

(٩٢) المثل السائر ج ١ ص ٢٩٢ ت محيى الدين عبد الحميد •

(أ) ما يتصل بحروف الجر ، نحو من ، الى ، عن على ، فاذا سبكت هذه الحروف مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما ثقل ، بخلاف ما تسبك مع ألفاظ تثقل منهما ، فالأول كقول قطري بن الفجاءة :

ولقد أرانى للرماح دريئة . . من عن يمينى مرة وأمامى

فلم يثقل بهما ، بخلاف قول أبى تمام :

الى خالد راحت بنا أرحبية . . مرافقها من عين كراكرها نكب

فانهما عندما أضيفتا الى لفظة الكراكر ثقلت منهما .

وهذه الحروف أيضا متفاوتة فى الثقل ، فان منها ما هو أشد ثقالا من هذا وهو قول المتنبى :

وتسعدنى فى غميرة بعد غميرة . . سيوح لها منها عليها شواهد

ويعلق ابن الأثير على هذا البيت قائلا (قوله لها منها عليها من الثقيل الثقيل الثقيل) (٩٣) .

(ب) تكرير الحروف ، وليس المقصود من ذلك تكرير حروف اللفظة الوحيدة فقط ، بل تكرير حرف أو حرفين فى كل لفظة من ألفاظ الكلام المركب سواء أكان منثورا أم منظوما فيثقل حينئذ النطق به ، ويمثل لذلك بالبيت المشهور المعروف فى ذلك وهو :

وقبر حرب بمكان قفر . . وليس قرب قبر حرب قبر

ويعلق عليه بقوله • (فهذه القافات والراءات كأنها
في تتابعها سلسلة ولاخفاء بما على الناطق بها من الكلفة) (٩٤) •

ويورد أيضا قول الحريري في مقاماته :

وازور من كان له زائرا . . . وعاف عاف العرف عرفانه

فكرر في الشطر الثاني من البيت •

وكما يقع التكرير في الشعر يقع أيضا في النثر ، من ذلك
ما حكاه ابن الأثير عن بعض الوعاظ أنه أورد في كلامه : جنى
جفات وجنات الحبيب ، فصاح رجل كان بالمجلس وتغاشى فسأله
الذى كان الى جانبه عما حدث له فقال سمعت جيما في جيم ، في
جيم فصحت فيعلق عليه ابن الأثير قائلا (وهذا من أقبح عيوب
الالفاظ) (٩٥) •

(ج) أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا ، فتثقل
في الاستعمال ولو عطف المتكلم بينها بحروف العطف لزال هذا
الثقل :

فنجد هذه المعازلة في قول القاضي الأرجاني في وصف شمعة
تحترق :

بالنار فرقت الحوادث بيننا . . . وبها نذرت أعود أقتل روحى

(٩٤) الجامع الكبير ص ٢٧٣ وعبارة المثل السائر : ولاخفاء بما في ذلك

من الثقل المثل السائر ج ١ ص ٢٩٦ ت محيي الدين •

(٩٥) المثل ج ١ ص ٢٩٧ ت محيي الدين •

فأنى بالصيغ نذرت أعود أقتل متتابعة ، ومثله قول المتنبي :

قل أنل اقطع احمّل عل سل عد . . . زد هش بش اذن سر صل

فكر أيضا صيغة الفعل كأنه قال افعل ، افعل . . . فلو عطف

لكان أفضل درءا للعيب مثل قول عبد السلام بن رغبان :

فسد الناس فاطلب الرزق بالسيد . . . ف والانمت شديد الهزال

احل وامرر وضر واتقع ولن واخش . . . بن وايرز ثم انتدب للمعالي

فالعطف بالواو زال تعاضلها ، وعليه جاء قوله تعالى (. . . فاقتلوا

المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم

كل مرصد) * وعلى حد تعبير ابن الأثير (لو كان معاذلة لما ورد

فى القرآن الكريم مثله) (٩٦) *

(د) تتابع الاضافات الكثيرة : وهو أن يتوالى أكثر من مضاف

ومضاف اليه فى الكلام ، وكلما زادت الاضافة كلما زاد الكلام

قبجا وثقلا ، فالاول كقولنا : سرج فرس غلام زيد ، والثانى مثل :

لبد سرج فرس غلام زيد ، وعلى هذا المنوال ورد قول الشاعر

ابن بابك :

حمامة جرجا حومة الجندل اسجى . . . فانت بمر اى من سعادومسمع (٩٧)

(٩٦) المثل السائر ج ١ ص ٣٠١ ت محيى الدين *

(٩٧) المثل السائر ج ١ ص ٣٠١ *

(هـ) تعدد الصفات : كقول أبي تمام فى وصف جمل :

ساخرق الخرق بإبن خرقاء كالـ :: هيف اذا ما استحم من نجده
مقابل فى الجدیل صلب القرا :: لو حك من عجبہ الى كتده
تامكه نهده مداخله :: ملمومة مخزله أجده

ويعلق على هذا البيت ابن الأثير بقوله (فالبيت الثالث من
المعازلة التى قلع الأسنان دون إيرادها) (٩٨) *

ويخلص من هذه الأبيات ومثيلاتها ليخرج بنتيجة قطعية وهى
أن المعازلة اللفظية توجد فى شعر أبى الطيب المتنبى كثيرا ،
بخلاف المعازلة المعنوية فانها كثيرا ما تقع فى شعر الفرزدق (٩٩) *

ثانيا المعازلة المعنوية

وبعد أن فرغ من الكلام على المعازلة اللفظية بأقسامها ،
تتناول المعازلة المعنوية ، ويراهم بأنها تداخل معانى الكلام بتقديم
ما كان يجب تأخيرها ، وتأخير ما كان يجب تقديمه وما أشبه ذلك (١٠٠) ،
ويقسمها الى أقسام كما فعل فى المعازلة اللفظية فيقول : عن المعازلة
المعنوية (وأما المعنوى فهذا بابها وموضعها ، وهو كتقديم الصفة
أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول وغير

(٩٨) المثل السائر ج ١ ص ٣٠٢ *

(٩٩) المثل السائر ج ١ ص ٣٠٤ *

(١٠٠) الجامع الكبير ص ٢٣١ *

ذلك مما يرد بيانه (١٠١) • والمعاظلة بهذه الصورة تجعل الكلام غير مفهوم أو غير واضح الدلالة وتبعا للتقديم والتأخير ، أو الفصل بين العامل ومعموله تتفاوت درجات المعاظلة فى القبح لأن الكلام اذا اختلفت معانيه صعبت مراميه ومقاصده ، ولن يفهم الا اذا أعيد ترتيبه وفق معانيه حتى يفهم المقصود منه فمثال :

تقديم الصفة وما يتعلق بها على الموصوف كقول الشاعر :

فقد والشك بين لى عناء . . بوشك فراقهم صرد يصيح

فقدم بوشك فراقهم وهو معمول يصيح التى هى صفة لصرد وكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها ، فانه لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها •

ومما بلغ درجة الغاية فى القبح قول الشاعر :

فاصبحت بعد خط بهجتها . . كان فقرا رسومها قلما

فتقدير البيت : فاصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها • وعلى هذا النحو نراه قد قدم خبر كأن عليها ، وهو خط ، وفصل بين أصبح وخبرها وهو قفرا بكأن مما أخل بالمعنى وجعله مضطربا وعلى قول ابن الأثير (والمعاظلة فى هذا الباب تتفاوت درجاتها فى القبح وهذا البيت المشار اليه من أقبحها لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضا) (١٠٢) •

(١٠١) المثل السائر ج ٢ ص ٤٤ •

(١٠٢) المثل السائر ج ٢ ص ٤٥ وانظر الجامع الكبير ص ١١٣ وما بعدها

ومنه قول الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا .: أبو أمه حتى أبوه يقاربه

وهذا من أشد أنواع التعاضل المعنوي الذي يجعل الشعر مشوها لأنه جاء أولا متكلفا ، وثانيا أن الهدف المراد من الكلام وهو الإيضاح والابانة وافهام المعنى انعدمت في مثل هذه الأبيات فاذا ذهب المقصود من الكلام ذهب المراد به وسقط تبعاً لذلك الكلام ، وأصبح عارياً عن الفصاحة ، لأن هذا الكلام ضدها (١٠٣) .

المنافرة

وهي من الأشياء المخلة بفصاحة الكلام المركب ، وحدها : أن تذكر ألفاظ يكون غيرها مما في معناها أولى بالذكر منها (١٠٤) . وبهذا تفترق المنافسة عن المعاظة وكما سبق أن أوضحنا ، فإن المعاظة هي التراكم والتداخل اما في الألفاظ ، واما في المعاني ، بخلاف المنافسة التي لا تراكم فيها بل كما سبق تعريفها هو ايراد ألفاظ غير لائقة بمكانها التي وضعت فيه ويوجد غيرها أولى منها بالذكر في هذا المقام لأنه سيكون أوضح وأبين على المعنى المراد .

وأثناء حديثنا عن فصاحة اللفظة المفردة تناولنا المنافسة في اللفظة المفردة ، هناك وأوردنا أمثلتها ، والآن سوف نتناول المنافسة في الكلام المركب فمن أمثلتها في الكلام المركب قول أبي الطيب

(١٠٣) المثل السائر ج٢ ص ٤٦ وانظر أيضا الجامع الكبير ص ٢٣١ .

(١٠٤) المثل السائر ج١ ص ٣٠٤ .

المتنبى :

لا خلق اكرم منك الا عارف . . بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

فان عجز هذا البيت نافر عن موضعه (١٠٥) •

وبهذا ينهى ابن الأثير كلامه عن الفصاحة ، وكنا نود لو أنه أسهب القول فى شروط فصاحة الكلام المركب ، مثلما أسهب فى شروط فصاحة اللفظة المفردة ، فقد رأينا فى الصفحات السابقة شدة احتفائه بالتركيب الذى يعطيه أهمية كبيرة ومما يحمد له فى هذا المضمار أنه انتهى الى أن التركيب فى الكلام ، اما أن يعلو به ، أو يهبط ، وضرب لذلك مثلا باللؤلؤ والعقد (١٠٦) • غير أنه اكتفى بذلك ولم يكمل ، بل قسم الكلام المركب الى ألوان بلاغية متعددة ثم درسه من خلال هذه الألوان كما سنعرض فيما بعد •

(١٠٥) المثل السائر ج١ ص ٣٠٩ •

(١٠٦) المثل السائر ج١ ص ١١٤ •

دراسات ابن الأثير
لفنون البلاغة

أولا
علم المعاني

تمهيد :

بعد أن عرض ابن الأثير لقضايا الفصاحة والبلاغة نثر في كتبه بعض الألوان البلاغية للعلوم الثلاثة أعنى المعانى والبيان والبديع ، فناقش وحل ومثل لبعضها بعد أن سبر أغوارها ، فاستخرج دررها ، وبعضها مسها برفق كأنه يريد أن يعلم كاتب الانشاء بالألوان البلاغية التى يجب عليه أن يعرفها لكى يكسب كلامه رونقا وبهاء ، فعرض لما يهم الكاتب ، وإن كان فى عرضه هذا قد اضطرب وخلط أحيانا ، وقد سيطرت عليه شهوة المعارضة والمجادلة ، من أجل المعارضة والمجادلة فقط مما أوقعه فى الخطأ كثيرا مثلما خلط بين التشبيه مضمرة الأداة والاستعارة أو بين الوان الاستعارة والكناية ، وأيضا أدت به معارضته فى المجاز المرسل لابن جنى ، والغزالي الى خلط غير مقبول من هذا العالم التحرير ، وأيضا هذه التقسيمات العديدة التى جعلها للكناية لم تخرج فى مجملها عما ذهب اليه علماء البلاغة من كناية عن صفة أو موصوف أو نسبة ، ولكن شهوة المعارضة من ناحية ومحاولة الزهو من ناحية اخرى أودت به الى هذا المنعطف الحاد .

لكن ليس معنى هذا أن الرجل كان متخبطا ، بل كان ذا قدم راسخة فى علوم البلاغة وتلك التفريقات التى أتى بها ، وهذه المناقشات التى تدل على ذوق أدبى رائع خاصة ما وجدناه فى المقابلة والطباق والجناس ، وأيضا التفرقة الدقيقة بين الكناية والتعريض ، ومناقشة مسائل الإيجاز والاطناب والمساواة على الصورة التى أوردها لتدل بصدق على ترف ذوقى بلاغى كبير لدى

الرجل وكما يقال لكل جواد كَبُوة ، ولكل صارم نبوة فيكفيه أن
تعد معاييه دليلاً على فضله وثاقب فكره .

ومهما يكن من أمر فانه عرض لبعض علوم البلاغة الثلاثة ، ولذا
سوف نتناول ما أورده بالدراسة ، وأول نبدأ به هو علم المعانى
والسؤال الذى يطرح نفسه الآن وهو كيف عرض ابن الأثير لعلم
المعانى ؟ والاجابة على السؤال تكون بدراسة مواد علم المعانى عنده

علم المعانى

معلوم من دراسة البلاغة بالضرورة أن علم المعانى مجموعة من
القواعد التى توجد فى الكلام ، وتكون هشتمة على خصوصيات
يقتضيها الحال ويفرضها المقام كى يوصف صاحبه بالبلاغة والفصاحة
فهو يضيف ظلالاً على أسلوبه بهذه الخصوصيات تميزه عن فقدها .
وتنحصر مباحث علم المعانى فى ثمانية أبواب :

١ — أحوال الاسناد الخبرى .

٢ — أحوال المسند اليه .

٣ — أحوال المسند .

٤ — أحوال متعلقات الفعل .

٥ — القصر .

٦ — الانشاء .

٧ — الفصل والوصل .

٨ — الأيجاز والاطناب والمساواة (١) •

هذه هي مباحث علم المعانى كما وردت فى الأيضاح لكن ابن الأثير لم يتناولها كلها وإنما تناول بعضها ودرس وشرح ومثل ، وأحيانا تكون الدراسة عميقة وأحيانا أخرى تكون مجرد تعريف بالشئ والانتقال الى غيره كما سوف نرى •

أولا : الاسلوب الخبرى : لم يحدد ابن الأثير هذا العنوان الذى وضعناه لدراسة هذا الاسلوب ، وإنما ذكره تحت عناوين متفرقة ، ولم يفصل حقيقة الاسناد وإنما دراسة تحت عنوان : (الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما) (١) هذا كلامه فى كتابه المثل السائر ، أما كلامه فى الجامع فقد قال (الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية الموكدة بأن المشددة، وتفضيل أحدهما على الاخرى) (٢) وان كانت دراسته الاولى فى المثل أو فى من الثانية الموجزة •

والملاحظ على هذه الدراسة أنه لم يبسط القول فى ركنى الاسناد ، أى المسند أو المسند اليه ، وإنما تناول مباشرة الجملة ، وأيهما أكد وأبلغ ، وان ذكر بعض أدوات التوكيد ومثل لذلك • وهذا ما يعرف بأضرب الخبر تبعا لحالة السامع من التردد والشك أو التثنى أو خلو الذهن وما شابه ذلك ، وكما نعلم فان الجملة

(١) الأيضاح ص ١٠ بتصرف •

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٥٤ •

(٣) الجامع الكبير ص ٢٢٤ •

الفعلية هي التي تتكون من الفعل والفاعل أو ما ناب عناب الفاعل وتوضع هذه الجملة لكي تفيد التجدد والحدوث في وقت محدد مع الاختصار اذا كان الفعل ماضيا نحو اشرقت الشمس وذهب الليل ، أما اذا كان الفعل مضارعا أفادت أيضا الاستمرار والتجدد شيئا فشيئا وفق سياق الكلام بمعونة القرينة مثل : يعيش البخلاء في الدنيا عيشة الفقراء ، ويحاسبون في الآخرة حساب الأغنياء . والجملة الاسمية هي المكونة من مبتدأ وخبر أى بثبوت المسند للمسند اليه دون اعتبار التجدد والاستمرار ، اذا لم يكن في خبرها فعل مضارع ، مثل «محمد كريم» وكان خبرها مفردا ، أما اذا كان في خبرها فعل مضارع فانها تكون كالجملة الفعلية في افادة التجدد والحدوث في وقت محدد مثل « محمد يسعى لخير وطنه » (٤) .

ومعروف أن الخبر إما أن يلقيه المتكلم لسامع أو مخاطب خالى الذهن تماما مما يلقي اليه ، وهذه حالة لا بد أن يراعيها المتكلم فى كلامه ، وإما أن يكون السامع مترددا فى قبول ما يلقي اليه ، فيجب على المتكلم أيضا مراعاة حالته تلك ، وإما أن يكون السامع منكرا للخبر الذى يلقي عليه ، والانكار يختلف من مستمع لآخر قوة وضعفا وحالة السامع هذه تفرض على المتكلم اعتبارات لا بد أن يراعيها فى كلامه ، فأحيانا يخرج كلامه خاليا من التوكيد ، وأحيانا يتدلب مؤكدا أو أكثر وفق حالة المخاطب ، ولذلك قسم

(۴) انظر دلائل الاعجاز ص ۱۲۲ •

علماء البلاغة الخبر الى ثلاثة أنواع ابتدائي ، طلبى ، انكارى ، حسب ما به من مؤكدات ، يفرضها المقام •

والمؤكدات كثيرة نذكر منها ان ، واللام ، واسمية الجملة ، والقسم ، وقد وأدوات التنبيه ، ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة ، وضمير الفصل ، وأدوات الحصر ، لكنه تنبه الى أن ثمة فرقا بين كلام وكلام أوبين خطاب وخطاب ، وما يرمى اليه المتكلم ، وما تكون عليه حالة السامع أو السامعين ، فيترك المتكلم كلاما الى كلام آخر لقصد يقصده ، وغرض يهدف اليه وهذا ما عناه ابن الأثير من قوله : (وانما يعدل عن أحد الخطابين الى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة) (٥) وهذا العدول مؤسس على ما بالجملة من التوكيد الذى يعطى الكلام زيادة وقوة فى المعنى لم تكن لخالى التوكيد •

فعند ما تقول قام زيد ، فان هذه الجملة لم تنقد اكثر من الاخبار عن قيام زيد وذلك عمن كان ذهنه خاليا من هذا الحدوث أو لم يعرفه أصلا ، ولذلك رأينا الجملة من المسند والمسند اليه فقط ، ولا شئ بعد ذلك ، ومثل هذا النوع من الأخبار هو ما يسميه علماء البلاغة بالخبر الابتدائى •

أما قلنا : اذ زيدا قائم ، فنكون أخبرنا أيضا عن قيام زيد ، لكن بصورة تزيد على الأولى أنتت من دخول ان المشددة التى تفيد الاثبات لما يأتى بعدها من الكلام ، فدخول ان المؤكدة على هذه الجملة أفادت التوكيد والمبالغة لأن حالة السامع تقتضى ذلك ، لانه ربما يكون مترددا فى قبول هذا الحكم ، وهو ما يعرف بالخبر الطلبى •

أما اذا أخبرنا عن قيام زيد بقولنا : ان زيدا لقائم ، فنكون قد أكدنا الجملة بأكثر من مؤكد وهو ان ولام الابتداء الواقعة فى خبرها ، زاد توكيد الكلام لأن السامع منكر للقيام ، ومن ثم تتطلب المؤكدات الموجودة فيه ، وهذا هو ثالث الاقسام التى ذكرها ابن الاثير المعروف عند البلاغيين بالخبر الانكارى لأن المستمع منكر للحدث فتطلب الكلام أكثر من مؤكد حتى يزيل ما بنفس السامع من انكار ويتمكن لديه الحكم على زيد بالقيام ولذا يقول ابن الاثير عن النوع الثالث هذا (واذا زيد فى خبرها — اى ان — اللام فقل ان زيدا لقائم كان ذلك أكثر توكيدا فى الاخبار بقيامه) ويقول أيضا عن لام التوكيد (ومما يجرى هذا المجرى ورود لام التوكيد فى الكلام ، ولا يجيء ذلك الا لضرب من المبالغة ، وفائدته أنه اذا عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه جىء باللام تحقيقا لذلك) (٦) .

اذا فان مجيء المؤكدات فى الكلام تريد الكلام قوة وتوكيدا ومبالغة ، ولذا وجدنا ابن الاثير بعد أن ضرب الامثلة الثلاثة التى شرحناها آنفا ووضحنا ما فيها ، بعد ذلك عرض لبعض أدوات التوكيد فى جمل ، ومن دراستنا لاساليب وأدوات التوكيد عنده وجدناه على بصيرة بما يستتر خلف هذه الأدوات ، فهو دائما ينص على أن مجيء لام التأكيد لزيادة التحقيق والتقرير والايجاد ، وذلك مثل قوله تعالى : (اذ قالوا لىوسف وأخوه أحب الى أبينا) فلام

الابتداء دخلت على يوسف للتحقيق والتقرير (فاللام فى «ليوسف» لام الابتداء ، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها : أى أن زيادة حبه إياهما أمر ثابت لامراء غيه) (٧) • وأحيانا تستخدم هذه اللام مع نونى التوكيد الخفيفة أو الثقيلة ، وأكثر ذلك الاستعمال فى جواب القسم فى حالة الإيجاب دون النفى ، فإذا كان المستخدم نون التوكيد الثقيلة دون الخفيفة زادت فى تأكيد الكلام كقول القائل والله لأقوم أو والله لأقومن° ، والله لأقومن° (وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فان استعملت فى موضع فانما يقصد بها التأكيد) (٨) •

فهذه أضرب الخبر ، وهذه بعض مؤكداته وكلها يتضح منها فهم ابن الأثير لهذا النوع من الأساليب الخبرية ، وهو فهم كما رأينا يدل على ذوق أدبى رفيع يحلل ويعمل ويتذوق قبل وبعد أن يحلل ، وهذه الأمثلة على ندرتها أوردها الرجل من أجل المقايسة والتمثيل ، لا الحصر ، ولذلك وجدناه فى صدر هذا الباب يقول : (ولم أذكر هذا الموضع لان يجرى الامر فيه على ما يجرى مجراه فقط ، بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتشابهه ، ولو كان شبيها بعيدا) (٩) •

(٧) المثل السائر ج٢ ص ٥٧ •

(٨) المثل السائر ج٢ ص ٥٨ •

(٩) المثل السائر ج٢ ص ٥٤ •

ثانيا : الاسلوب الانشائي

وكما تناول الاسلوب لاخبرى ، غانه بنفس الطريقة تناول شيثامن
الاسلوب الانشائي وذلك أثناء كلامه عن التقديم والتأخير ، فتناول
أداة واحدة من أدوات الاستفهام وهى الهمزة ، وبين الغرض من
استخداماتها ، عند ما تدخل على الأسم ، وعندما تدخل على الفعل ،
ولكنه لم يشف الغلة وعلى كل فانه قال عنه (واعلم أن من التقديم
والتأخير بابا عجيب المأخذ ، كثير الفائدة ، وافر اللطائف ، وهو
باب الاستفهام ، فان حاجة مؤلف الكلام اليه ماسة ، ولنورد فى
كتابنا هذا ما يروقه) (١٠) •

والاستفهام كما هو معروف طلب العلم بشىء لم يكن معلوما
من قبل وأدواته : الهمزة ، وهل وما ، وفى ، وأين وكيف ، وأيان
وأنى ، وكم ، وأى • فمنها ما يكون تارة للتصور ، وأخرى للتصديق،
وهو الهمزة •

ومنها ما يكون للتصديق فقط وهو هل ، ، ومنها ما يكون للتصور
وهو باقى الادوات (١١) فالاستفهام عن التصور يكون فى حالة
التردد فى تعيين أحد أمرين تذكر بينهما أم المتصلة المعادلة ، وقد
تحذف هى وما بعدها اكتفاء بما قبلها ويلى الهمزة فى هذه الحالة
المستفهم عنه سواء أكان مسند اليه أم مسندا أم مفعولا أم حالا

(١٠) الجامع الكبير ص ١١٤ •

(١١) الايضاح ص ٧٨ وما بعدها وانظر دلائل الاعجاز ص ٨٤ •

أم ظرفا فنقول عن واحد منها : أمحمد مسافر أم زيد ؟ وفى حالة الاستغناء عن المعادل نقول أنت فعلت هذا بالهتتا يا ابراهيم ؟ أما التصديق فهو ادراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند اليه أو عدم وقوعها ومن ثم يكون المتكلم خالى الذهن مما استفهم عنه، فيصدق الجواب ، ويكثر التصديق فى الجمل الفعلية مثل أنجح محمد؟ وفيها تكون الاجابة ثبوتا بنعم ونفيا بلا ويقل التصديق فى الجمل الاسمية نحو : أمحمد ناجح ؟

وقد قصرنا الكلام على الهمزة دون غيرها من أدوات الاستفهام لان ابن الأثير تناول الهمزة فقط ، فأردنا أن نمهد للكلام بهذه المقدمة ليتضح بالمقارنة كيف عرض ابن الأثير لهذا الاسلوب .

نقول ان ابن الأثير تكلم عن الهمزة عند ما يأتى بعدها الفعل ، وعندما يأتى بعدها الفاعل ، وهى حالة التصديق التى تكلمنا عنها آنفا ، لكن ينص على أن الشك دائما يكون فيما بعدها ، فاذا كان فعلا كان الشك فى الفعل ، واذا كان اسما كان الشك فى الفاعل وحده ، لكن اذا كان الشك فى الفعل كان الغرض من الاستفهام العلم بوجوده لاغير وذلك مثل « أفعلت كذا وكذا » ومن ثم عبر عن تلك الحالة بكثرة التصديق فى الجمل الفعلية وتكون الاجابة ثبوتا بنعم ونفيا بلا وهذا ما عناه ابن الأثير عندما ما قال (واعلم أنك اذا بدأت فى الاستفهام بالفعل فقلت أفعلت كذا وكذا كان الشك فى الفعل ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده لاغير) (١٢) ولذا فان الاجابة تكون بنعم ، أو لا على التفصيل السابق .

واذا قلت « أنت فعلت ذاك » وقدمت الاسم على الفعل كان الشك في الفاعل دون الفعل ، لأن الفعل قد حدث والحقيقة ماثلة أمام المستفهم ، لكنه يشك فيمن أحدث هذا الفعل ، ولذلك فإن معنى الهمزة في مثل هذه المواقف هو التقرير ، ومن هنا يقل التصديق في مثل هذه الجمل .

وعليه ورد قوله تعالى حكاية عن قوم سيدنا ابراهيم (أنت فعلت هذا بالهتتا يا ابراهيم) فانهم والحقيقة ماثلة أمامهم لم يستفهموا عنها أى عن الحدث وهو فعل تحطيم الاصنام ، بل أرادوا أن يتأكدوا ممن فعل هذا الفعل ومن هنا كانت الاجابة عليهم (بل فعله كبيرهم هذا) ، فلو كان الشك في الفعل لكانت الاجابة فعلت أو لم أفعل) .

وبجانب الشك الموجود في الهمزة يوجد الانكار أيضا ، خاصة اذا تقدم الفعل وكان ماضيا وأنه لا يكون من أصله كقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبينين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما) أو كقوله تعالى (أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون) .

فاذا كان الفعل مضارعا فانه لا يخلو من ارادة الحال أو الاستقبال ، فاذا أراد المتكلم الحال كان المعنى شبيها بالماضى واذا اريد به الاستقبال كان المعنى اذا بدأت بالفعل أنك تعتمد الى انكار العقل نفسه وكأنك تريد أنه لا يحدث ولا ينبغي أن يحدث وقد مثل ابن الاثير للأول بقول امرئ القيس :

أبقتلنى وأشرفى مضاجعى . . . ومسئونة زرق كانياب أغوال

وللثانى بقولك لرجل يركب الخطر (أخرج فى هذا الوقت ؟
أغرر بنفسك ؟)

وقد يلي همزة الانكار هذه اسم فيكون الكلام موجها للمذكور بعدها بهدف انكار حدوث هذا الفعل منه لضعته وقلة عزمه ، أو لسمو قدره وعلو همته ، فالأول كقولك (أنت تمنعني ، أنت تأخذ على يدي) أى انك أعجز من ذلك ، والثاني كقولك (أهو يسأل فلانا ؟ هو أرفع قدرا من ذلك) وعلى كل فان المقصود من مثل هذا الاستفهام أنه تنبيهه للسامع حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتدع (١٣) .

وهذا هو الضرب الأول وهو منقول عن الامام عبد القاهر الجرجاني بهذه التقسيمات ، اذا أنه بعد ما فرغ من ذلك قال نفس الألفاظ والعبارات التي أوردها الجرجاني في الدلائل (١٤) أما الضرب الثاني فكما أورده الجرجاني أورده هو ، (١٥) . وهذا الضرب عنده هو أن يكون بفعل لفاعل موجود ، فان تقديم الاسم يقتضى تشبيها بما اقتضاه في الفعل الماضي من الاقرار بأنه الفاعل، أو الانكار أن يكون هو الفاعل فالأول كقوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، والثاني كقوله تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم) (١٦) .

وبهذا ينهى كلامه عن الاستفهام ولا يزيد عما قدمنا ، وبه أيضا ينتهى كلامنا عن الاسلوب الانشائي ، ونتبع هذا الكلام عن أحوال الاسناد .

(١٣) الجامع الكبير ص ١١٦ .

(١٤) دلائل الاعجاز ص ٨٥ : ص ٩٢ .

(١٥) انظر حاشية دلائل الاعجاز ص ٩٢ رقم ١ .

(١٦) الجامع الكبير ص ١١٧ .

ثالثا : أحوال الاسناد

الاسناد الخبرى هو ان تضم كلمة أو ما يقوم مقامها الى كلمة أخرى ، أو ما يحل محلها بصورة تفيد ثبوت الحكم أو نفيه وهناك عدة صور لهذا الاسناد ، لكن الذى يهمنا هو أركان الجملة الخبرية أى المسند ، والمسند اليه ، فالمسند اليه هو ما يعرف نحويا بالفاعل أو نائبه أو مبتدأ له خبر أو اسم كان أو أن ، أو المفعول الاول لظن وأخواتها •

أما المسند فهو الخبر ، والفعل ، والمفعول الثانى لظن وأخواتها ، ولا بد أن يكون هناك رابط يربط المسند بالمسند اليه ، وهذا الرابط معروف لدى البلاغيين بالنسبة الكلامية •

ولكل من المسند اليه والمسند أحوال كثيرة كالذكر والحذف ، والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير •

وكالمسند اليه والمسند هناك متعلقات الفعل كالمفعول ، والحال والتمييز والاستثناء والنواسخ الثلاثة ، والتوابع الأربعة وغير ذلك ، تعرض لها أحوال أيضا ، كتلك التى تعرض للمسند اليه والمسند •

غير ان ابن الاثير لم يتعرض لكل هذه الأمور ، وانما عرض لبعضها ، وكان فى بعض جوانب هذا العرض مائلا للإيجاز ، وليتفه أسهب لانه يتمتع بذوق أدبى بصير فيما يعالج أو يعرض من أمور بلاغية ، وان كان أحيانا يتوكأ على الامام الجرجانى خاصة فى كتابه دلائل الاعجاز ، ولكن يكفيه ما قدم ، وهو ما سوف نعرض له بالدرس الآن •

١ — التقديم والتأخير •

عرض ابن الاثير لبعض صور التقديم والتأخير (١٧) ويقسمه الى قسمين (الاول يختص بدلالة الالفاظ على المعانى ، ولو آخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو آخر لما تغير المعنى) (١٨) .
فنتناول تقديم الخبر على المبتدأ ، والظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل ، ويرجع كل هذه الأحوال الى :

١ — الاختصاص •

٢ — مراعاة النظم •

وقد يكون التأخير كما يرى هو الأصوب الأبلغ (يكون التأخير هو الأولى والابلاغ اما لفائدة تقتضى ذلك ، واما خوفا من فساد المعنى واختلاله) (١٩) • اذن تكلم عن التقديم عند ما يكون التقديم أفضل من التأخير ، كما تكلم عن التأخير عند ما يكون أفضل من التقديم ومن ثم قسمه الى :

القسم الذى يكون فيه التقديم هو الابلغ ويضرب لذلك أمثلة بتقديم ما ذكرنا ويكون للاختصاص ، فتقديم المفعول على الفعل مثل زيدا ضربت ففى تقديم المفعول « زيدا » على فعله أفاد تخصيصه بالضرب دون غيره فلو قدمنا الفعل وقلنا ضربت زيدا ، كان لتكلم مختاراً فى أن يوقع الفعل على زيد أو على غيره ، فيقول

(١٧) المثل السائر ج٢ ص ٣٨ وانظر الجامع الكبير ص ١٠٨ •

(١٨) المثل السائر ج٢ ص ٣٨ •

(١٩) الجامع ص ١٠٩ •

ضربت محمداً ، أو علياً ، فإذا قدم المفعول لزم الاختصاص •
ومثله تقديم الخبر على المبتدأ وضرب مثلاً لذلك وهو زيد قائم
فزيد مبتدأ وقائم خبر ، فلو قدم لقال قائم زيد فقدم الخبر
على المبتدأ • وعلى نفس المنوال تكلم عن الجار والمجرور والحال
والاستثناء وأرجع هذا التقديم للاختصاص وهو القسم الأول
فى كلامه •

أما ما يكون تقديمه مراعاة لنظم الكلام فهو مثل قوله تعالى :
« اياك نعبد واياك نستعين » (وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى
الذى هو على حرف النون ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك
الطلاوة وزال ذلك الحسن) (٢٠) • ومثله فى تقديم المفعول قوله
تعالى « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » (فان تقديم الجحيم على
التصلية ، وان كان فيه تقديم المفعول على الفعل الا أنه لم يكن
ههنا للاختصاص ، وانما هو للفضيلة السجعية) (٢١) •

أما فى تقديم خبر المبتدأ عليه فكقوله تعالى « وظنوا أنهم
ما نعتهم حصونهم من الله » فهذا أفضل لمراعاة النظم مما لو قال
وظنوا أن حصونهم ما نعتهم من الله ، وكذلك تقديم الظرف أو الجار
والمجرور ، وينتهى الى ان القرآن الكريم قد قدم الظروف كثيراً
وأنها لم تقدم للاختصاص (وانما قدمت لمراعاة الحسن فى نظم

(٢٠) المثل ج ٢ ص ٣٩ •

(٢١) المثل السائر ج ٢ ص ٤٠ •

الكلام (٢٢) أما تأخيرها فإنه يقتضى النفى من غير تفضيل لأن تقديمه يقتضى النفى عنه ، فالأول كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لأريب فيه) والثانى كقوله تعالى (لافيهما غول ولا هم عنها ينزفون) (٢٣) •

الايجاز والاطناب والمساواة

كلام المتكلم ينحصر فى صورة من ثلاث صور بحيث يكون مقبولا مفيدا معنى ، فاما أن يكون هذا الكلام ، جاء التعبير فيه على قدر المعنى لا زيادة ولا نقصان أى أن الالفاظ مساوية للمعنى ، وأحيانا يزيد اللفظ على المعنى ، وهذه الزيادة اما أن تكون لفائدة فتكون محمودة ، وقد تكون على حساب المعنى فتكون مذمومة اذ لا طائل منها فتكون حشوا وتطويلا ، وربما تكون الالفاظ قليلة ولكن المعنى الذى تحتها كثير •

والمتكلم حسب رسوخ قدمه فى مضممار البلاغة يختار أية طريقة شاء لى يعبر عما بنفسه فاما أن يكون كلامه موجزا ، وربما يكون مطنبا ، أو قد يكون بين بين ، كل هذا مع مراعاة المقام الذى سيق فيه الكلام ، فإذا عدل عن طريقة الى أخرى وكان المقام يفرض هذه أو تلك فعدل عما يستوجبه المقام كان غير بليغ ، فيجب أن يستخدم الاطناب ، أو الايجاز ، أو المساواة كل فى مكانه •

ومن ثم كان لاهل البلاغة باع كبير فى دراسة هذه الألوان

(٢٢) المثل السائر ج ١ ص ٤٤ •

(٢٣) المثل السائر ج ١ ص ٤٤ وقد عبر عن الجار والمجرور بالظرفية •

وفصلوا وشرحوا ووضحوا (٢٤) وجاء ابن الأثير ففسر على الدرب،
فعرّف ومثل وشرح كما سوف نعرض .

أولا : الإيجاز : يعرفه ابن الأثير بأنه دلالة اللفظ على المعنى
من أقرب طرقه (٢٥) . أو دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة في
اللفظ على المعنى (٢٦) . وسواء كانت الدلالة عن غير زيادة أو من
أقرب الطرق والالفاظ مع قلتها تحوى الكثير من المعانى شريطة أن
تكون وافيه بالغرض المقصود مع الإبانة والافصاح .

وقد قسمه ابن الأثير الى قسمين كبيرين ، وهى نفسها
الاقسام التى قسمها علماء البلاغة الا أنه قسمها الى أقسام أخرى ،
فالقسمان الكبيران هما :

(أ) إيجاز بالحذف ، وهو ما حذف بعض أجزائه لدلالة الكلام
على المحذوف ويكون فيما زاد معناه على لفظه .

(ب) إيجاز بدون حذف وينقسم الى ضربين :

١ - ما ساوى لفظه معناه (٢٧) ويسمى التقدير .

٢ - والآخر مازاد معناه على لفظه وهو ما يعرف بإيجاز
القصر (٢٨) .

(٢٤) الايضاح ص ١٠٢ وما بعدها .

(٢٥) الجامع ص ١٢٤ .

(٢٦) المثل ج ٢ ص ٧٤ .

(٢٧) انظر الجامع ص ١٢ والمثل ج ٢ ص ٨١ وقارن بما جاء بدلائل
الاعجاز ص ١٠٤ .

(٢٨) المثل السائر ج ٢ ص ٧٨ والجامع الكبير ص ١٢٤ .

ويعلق عليه بمقولة نقلها عن عبد القاهر في كتابه دلائل
الاعجاز ويثبتها في كتابيه الجامع والمثل (*) .

وهي قوله (وذلك باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ****)
وتدفعها حتى تنتظر (**) .

ولكل أقسام .

والذي عليه القزويني في الايضاح ان الايجاز اما ايجاز الحذف
أو ايجاز القصر (٢٩) وتوارث كثير من انبلاغيين فيما بعد هذا التقسيم،
ولعل من يطالع كتبهم سوف يقف على حقيقة ما ذهبنا اليه ، أما
هذه التقسيمات فانها من صنع ابن الاثير نفسه ، ولذا فاننا سمعنا
منه غير مرة قوله المشهورة « وهو شيء استخرجته ، ولم يكن
لاحد فيه قول سابق » وهي مبثوثة في كتبه ، غير انه في هذا
التقسيم يدل على ذوق أدبي يميل الى التحديد والاستنباط ، وهذا
نتاج المدرسة الأدبية وذوقها .

الايجاز بالحذف :

وأسماء في كتابه المفتاح بالاشارة ويعرفه بقوله : (وهو
اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة) ويضرب لذلك مثلا قول
امرئ القيس :

فقل لنا يوم اذ يذ بنعممة ! فقل في مقيل نحسه متغيب (٣٠)

ويشترط أن يكون في الكلام دليل على المحذوف وهذا كلام

(*) وهذا قريب من تعريف المساواة كما سنوضح .

(**) المثل السائر ج٢ ص ٧٨ والجامع الكبير ص ١٢٤ .

(٢٩) الايضاح ص ١٠٥ .

(٣٠) المفتاح لمنشا ص ٣١١

وجيه منه ، وأحيانا يظهر هذا المحذوف عن طريق القواعد النحوية وليس ثمة حسن لهذا النوع ، أما الآخر فهو ما يظهر بالنظر الى تمام المعنى ويكون تبعا لذلك الحذف أولى فى حكم البلاغة (لأنه متى ظهر صار الكلام الى شئ غث لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن) (٣١) •

والحذف قد يكون حذف جملة كما يكون حذف مفردات ، ويقسم حذف المفردات الى أربعة عشر ضربا • أما حذف الجمل فانه على قسمين :

(أ) حذف جمل مفيدة •

(ب) حذف الجمل غير المفيدة (٣٢) •

ويقسم بعد ذلك حذف الجمل هذا الى أربعة أضرب :

— الضرب الأول : حذف السؤال المقدر وهو الاستئناف ويقسمه الى :

١ — اعادة الاسماء والصفات ويكون أحيانا باعادة اسم من تقدم الحديث عنه أو باعادة صفته ، فالاول كقولك : أحسنت الى زيد حقيق بالاحسان والثانى وهو أفضل من الاول وأبلغ لما فيه من تخصيص وهو : « أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك » وذلك كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى

(٣١) المثل ج ٢ ص ٨١ •

(٣٢) وهذا ما عناه القزوينى بقوله فى الضرب الثانى (وهو ما يكون بحذف والمحذوف اما جزء جملة أو جملة ، أو أكثر من جملة ••) الايضاح ص ١٠٦ •

للمتقين أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

٢ — الاستئناف بغير إعادة الاسماء والصفات كقوله تعالى :
(ومالى لاعبد الذى فطرنى واليه تجعون أتخذ من دونه آلهة
ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون قيل
ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من
المكرمين) فخرج مخرج الاستئناف لان ذلك من مظهر المسألة عن حاله
عند لقاء ربه ، وكأن قائله قال كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه
بعد ما كان منه ما كان ؟ فقيل : قيل له ادخل الجنة ، ولم يقل :
قيل له لان الهدف المقول لا المقول له مع كونه معلوما ، وأيضا (ياليت
قومي يعلمون) مؤسس على تقدير سؤال سائل عما وجدته .

— الضرب الثانى : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالسبب
عن السبب :

١ — فالاول كقوله تعالى : (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا
الى موسى الامر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا
فتناول عليهم العمر) فذكر سبب الوحي وهو طول الفترة بين
سيدنا موسى ، وسيدنا محمد ﷺ ودل به على المسبب الذى هو
الوحي وكأن تقدير الكلام : أننا أنشأنا بعد عهد الوحي الى موسى
الى عهدك يا محمد قرونا كثيرة ، فطالت مدة انقطاع الوحي فاندurst
العلوم ، لذا أرسلناك اليهم وعرفناك العلم بقصص موسى وما حدث
له لتتخير به قومك ، فالمحذوف اذا جملة مفيدة ولكنها اختصرت
على عادة القرآن فى الاختصار .

وأما حذف الجمل غير المفيدة ما جاء فى قصة مريم (قالت أنى
يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ، قال كذلك قال
ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا

مقضيا) ففى قوله تعالى (ولنجعله آية للناس) تعليل معمله محذوف
وتقدير الكلام وانما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس ، فذكر السبب
الذى صدر الفعل من أجله وهو جعله آية للناس ، ودل على المسبب
الذى هو الفعل

٢ — وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى : (فاذا
قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى — والله أعلم
— اذا أردت قراءة القرآن فاكتف بالمسبب الذى هو القراءة عن
السبب الذى هو الارادة والدليل على ذلك أن الاستعاذة قبل
القراءة •

الضرب الثالث : الاضمار على شريطة التفسير وهو أن يحذف
من صدر الكلام ما يؤتى به مؤخرا فيكون هذا الاخير دليلا على
الاول ، ويقسم الى أقسام ثلاثة :

١ — أن يأتى على طريق الاستفهام ، فنذكر الجملة الأولى
دون الثانية ، وذلك مثل قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره
للإسلام ، فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله
أولئك فى ضلال مبين) والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام
كمن أقسى قلبه ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (فويل للقاسية
قلوبهم) •

٢ — أن يأتى على حد النفي والاثبات كقوله تعالى (لا يستوى
منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين
أنفقوا من بعد وقاتلوا) أى لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح
وقاتل ، ومن أنفق من بعده وقاتل ، والدليل قوله :

(أولئك أعظم درجة من الذين •• ••) الآية •

٣ - ما لا يكون استفهاما ، ولا نفيا وإثباتا كقول أبي تمام

يتجنب الاثم ثم يخافها :: فكأنما حسنته اثم

ففى صدر البيت اضمار مفسر نى عجزه تقديره أنه يتجنب
الاثم فيكون قد أتى بحسنه ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسنته
آثم *

الضرب الرابع : خلاف كل ما تقدم فليس بسبب ولا مسبب ،
ولا اضمار على شريط التفسير ، ولا استئناف ، فأما ما حذف فيه
من الجمل المفيدة فكقوله تعالى (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما
حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك
سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن لا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من
بعد ذلك عام فيه يغات الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتوني
به) والحذف واضح من سياق الكلام وهو جملة مفيدة وهو جملة
الحوار بين سيدنا يوسف عليه السلام وبين فرعون مصر *

ومما حذفت منه جمل ليست بمفيدة أى ليس ثمة طائل من
وراء معناها ولذا كان حذفها أولى من ابقائها مثل قوله تعالى :
(يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا
* * * * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) فالحذف
واضح وتقديره ولما جاء الغلام يحيى ونشأ وترعرع قلنا له
يا يحيى خذ الكتاب بقوة وقد دل عليها صدر الكلام * وبهذا ينتهى
كلام المؤلف (٣٢) على القسم الاول وهو حذف الجملة ، وقد فرعها
ابن الاثير كل هذه التفريعات ، نظرا لما يتمتع به من ذوق ادبي

مرهف ، ومعرفة دقيقة بين اللفظة واللفظة الأخرى بل بين العبارة والعبارة ، كما أنه كان مدركا للمعاني المستترة خلف الكلمات •

وبعد ما انتهى من هذا القسم دلف الى القسم الثانى وهو الایجاز بالحذف ، وخصصه لحذف المفردات وقد اشترط البلاغيون لذلك ان يحذف شىء من العبارة أو الجملة أو الكلام شريطة أن لا يخل بالفهم مع وجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية وهى كثيرة متنوعة يقول القزوينى (وأدلة الحذف كثيرة منها أن يدل الفعل على الحذف والمقصود الأظهر على تعيين المحذوف +++) (٣٤) والاصار الحذف رديئا • وعلى كل فان ابن الاثير قد قسم هذا القسم الى أربعة عشر ضربا كالاتى :

١ — حذف الفاعل بدلالة ذكر فعله كقول حاتم الطائى :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى **مذم** اذا حشرجت يوما ضاق بها الصدر

أى اذا حشرجت النفس • علما بانها لم تذكر فى الكلام •

٢ — حذف الفعل وجوابه وهو على قسمين :

(أ) أحدهما يظهر بدلالة المفعول عليه وهو غالبا ما يكون فى التحذير كقوله تعالى : (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) •

(ب) مالا يظهر فيه قسم الفعل ، لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه ، بل يظهر بالنظر الى ملاءمة الكلام • وهذا اللون موجود

فى القرآن بكثرة ومنه قوله تعالى : (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) والتقدير فقبل لهم لقد جئتمونا • ومن هذا النوع ما يعرف فى النحو بالتنازع والاشتغال ، ومنه أيضا احلال المصدر محل الفعل بهدف المبالغة والتوكيد •

وأما حذف جواب الفعل ، فبشرط أن يكون الجواب مقترنا بالفاء وفعله يكون ماصيا • كقوله تعالى : ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا) والتقدير فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا اليهم فحذبوهما فدمرناهم •

٣ — حذف المفعول به كقوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) فقد حذف المفعول وهو الماشية فى أربعة أماكن من هذه الآية •

٤ — حذف المضاف أو المضاف اليه واقامة كل منهما مكان الآخر ، فالأول كقوله تعالى (واسأل القرية التى كنافيها) والتقدير أهل القرية • والثانى كقوله تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل ذلك ومن بعده •

٥ — حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام صاحبه ، وغالبا ما يقع ذلك فى الشعر وقد ورد منه فى القرآن الكريم أيضا كقوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أى آية مبصرة ، أو قوله

تعالى حكاية عن الكافرين (يأيها الساحر) أى الرجل الساحر
فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه •

أما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها ، فإنه نادر فى الكلام
لأنه غالبا يؤدي الى استغلاق الكلام وقد حصرها ابن الاثير فقال
(وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ الا فى صفة تقدمها ما يدل
عليها ، أو تأخر عنها أو فهم ذلك من شىء خارج عنها) (٣٥) •

فمثال التى تقدم ما يدل عليها قوله تعالى : (وكان وراءهم
ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صحيحة فحذفت الصفة
لأنه تقدمها ما يدل عليها وهو (فأردت أن أعيبها) ومثال التى تأخر
عنها ما يدل عليها قول يزيد به الحكم الثقفى :

كل امرئ ستنعيم منه — به العريس أو منها يتنعيم

والتقدير كل امرئ متزوج ، بدلالة قوله بعد ذلك « ستنعيم
منه أو منها يتنيم » فلا تنعيم الزوجة الا من زوج ، وهو الامن زوجة •

وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شىء خارج عن الكلام ،
فكقوله ﷺ (لا صلاة لجار المسجد الا فى المسجد) أى لا صلاة
كاملة أو قاضلة ، وهذا قد علم من شىء خارج عن الألفاظ التى صيغ
بها الحديث •

٦ — حذف الشرط وجوابه • فحذف الشرط مثل قوله
تعالى : (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية) والتقدير
فخلق فعليه فدية •

وأما حذف الجواب فكقوله تعالى : (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين) فحذف جواب الشرط والتقدير : ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به الستم ظالمين ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) .

٧ — حذف القسم وجوابه ، فحذف القسم مثل « لأفعلن » أى والله لأفعلن أو غيرها من ألوان القسم المحلوف بها ، أما حذف الجواب مثل قوله تعالى : (ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) والتقدير : ق والقرآن المجيد لتبعثن بدلالة ما جاء بعد ذلك وهو (أنذامتنا وكنا ترابا وعظاما ذلك رجع بعيد) وكثير ما حذف جواب القسم فى القرآن الكريم .

٨ — حذف لو وجوابها فحذف لو مثل (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبتطلون) أى اذ لو فعلت ذلك لارتاب المبتطلون ، وأما حذف الجواب مثل : (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وتقدير المحذوف الذى هو الجواب لو أن لى بكم قوة لدفعتكم أو منعتكم . ولا بد من دلالة على المحذوف فى مثل هذه الأمور .

٩ — حذف جواب لولا : كقوله تعالى : (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رؤوف رحيم) والتقدير لولا فضل الله عليكم ورحمته لعجل لكم العذاب .

١٠ — حذف جواب لما وأما : فحذف جواب لما مثل : (فلما أسلما وتله للجبيين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال • وأما حذف جواب أما فمثل (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) والتقدير فيقال لهم اكفرتم بعد إيمانكم •

١١ — حذف جواب إذا مثل (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ، وما تاتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) فحذف جواب إذا وهو : وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ، ثم قال ودأبهم الأعراض عن كل آية وموعظة •

١٢ — حذف المبتدأ والخبر : ومثل لحذف الخبر من الكلام بقول البحتری :

كل عذر من كل ذنب ~~ولكن~~ أعوز العذر من بياض العذار
فحذف خبر المبتدأ وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبول أو مسموع •

١٣ — حذف لا من الكلام وهي مرادة مثل (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف) أي لا تفتأ ، فحذفت لا من الكلام وهي مرادة •

١٤ — حذف الواو من الكلام وإثباتها : وهذا لا يكون إلا في كل اسم نكرة جاء خبره بعد إلا فيجوز إثبات الواو في خبره وحذفها ، فنقول ما رأيت رجلا إلا وعليه ثياب أو : إلا عليه ثياب بدون الواو ، فإن كان الذي يقع على النكرة ناقصا فلا يكون إلا بحذف الواو مثل « ما أظن قرشا إلا هو كافيك » ولا يصح أن

نقول الا وهو كافيك لان الظن يحتاج الى شيئين ؛ فلا يعترض فيه بالواو ، فيتشبه بالفعل الذى ينصب مفعولا واحدا ، وأيضا خبر كان وان ، والمفعول الثانى لظن فلا يقترن بالواو عدا ليس فنقول ليس احد الا وهو قائم فأثبتنا الواو ، وأيضا أصبح وأمسى ورأى فان الواو فيهن أسهل * وقد ورد فى القرآن الكريم أمثلة للاثبات وأخرى للحذف ، وذلك مثل قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) وقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون) ، ومن ثم يتضح قياسا على هاتين الآيتين أن الواو لا يجوز حذفها واثباتها فى كل موضع ، بل ما شابه هاتين الآيتين * .

وبعد أن فرغ من الوان الايجاز بالحذف تناول بعد ذلك الايجاز بدون حذف وقد قسمه على عادته وولعه بالتقسيمات الى قسمين : الاول ايجاز تقدير ، والثانى ايجاز قصر * .

ويرى أن هذا القسم من الايجاز فيه عسر ومشقة (فالتنبه له عسر لأنه يحتاج الى فضل تأمل وطول فكرة لخباء ما يستدل عليه ، ولا يستتبط ذلك الا من رست قدمه فى ممارسة علم البيان وصار له خليقة وملكة) (٣٦) * .

واستتباعا للايجاز فسوف نعرض لايجاز القصر عنده ثم بتضمين المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة من غير حذف (٣٧) * .

فايجاز القصر ، الذى يعرف أحيانا بأنه ايجاز البلاغة يكون بتضمين المعانى الكثيرة ألفاظ قليلة من غير حذف (٣٧) * .

(٣٦) المثل السائر ج٢ ص ٧٨ *

(٣٧) الايضاح ١٠٥ *

ويقسمه أيضا ابن الاثير الى قسمين :

(أ) ما يدل على احتمالات متعددة •

(ب) مالا يكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها (٣٨)

(أ) فالضرب الاول وهو الذى يدل على احتمالات عديدة ، فان فى القرآن الكريم الكثير منه وذلك مثل قوله تعالى فى حكاية فرعون وموسى (فغشيهم من اليم ماغشيهم) فبرغم قلة الالفاظ الا أن المعنى الذى تحتها كثير جدا وتقديره أى غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة مالا يعلم كنهه الا الله ولا يحيط به غيره ، ومنه أيضا قوله تعالى (أولئك لهم الأمن) فدخل تحت الأمن كل ما هو محبوب ونفى عنهم الخوف من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النعمة وما الى ذلك ومما ورد وشعرا قول السموعل بن عاديا :

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها . فليس الى حسن الثناء سبيل

فقد احتوى هذا البيت على جميع مكارم الاخلاق التى تجد النفس فى حملها مشقة كالشجاعة ولاسماحة والفقة والتواضع والحلم والصبر وغير ذلك •

(ب) الضرب الثانى مالا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها (وهو أعلى طبقات الایجاز مكانا وأعوزها امكانا ،

واذا وجد فى كلام البلغاء فانما يوجد شاذا ونادرا (كما يقول ابن الأثير (٣٩) •

وقد ورد منه فى القرآن الكريم كثيرا وذلك مثل قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) فان قوله تعالى القصاص حياة لا يمكن التعبير عنها الا بألفاظ كثيرة تقديرها : اذا قتل الحاكم القاتل امتنع غيره عن القتل خوفا على حياته ، فأوجب ذلك حياة لغيره من الناس • وهذا أفضل من قول العرب (أَلْقَتْل أَنْفَى الْمَقْتَل) من وجوه ثلاثة :

١ — الآية لفظتان والمثل العربى ثلاثة •

٢ — فى المثل تكرير ليس فى الآية •

٣ — ليس كل قتل نافيا للمقتل الا اذا كان على حكم القصاص (٤٠) •

وهذا معنى قوله الكلام الذى لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، وغير ذلك ليس داخلا فى هذا القسم •

لكن الغريب حقا هو ادماجه القسم الاول من هذا اللون فى الايجاز لان تعريفه له يقترب من حد المساواة التى هى تأديه المعنى المراد بعبارة مساوية أى أن تكون الألفاظ على قدر المعانى ، لا يزيد بعضها على بعض ، ويعرفه هو بقوله (ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير) (٤١) ولذا فأننى سوف اناقشه على انه الضرب الثانى

(٣٩) المثل السائر ح ٢ ص ١٢٥ •

(٤٠) المثل السائر ص ٣ ج ١ ص ١٢٦ وانظر الايضاح ص ١٠٥ •

(٤١) الجامع الكبير ص ١٤٢ والمثل ج ٢ ص ١١٤ •

وهو المساواة لان الامثلة التى أوردتها فى شرحها هى أمثلة للمساواة

كما أن كلامه عنها فى المفتاح المنشأ يتفق مع ما ذهبنا اليه فهو يقول المساواة هو أن أن يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص غير محتاج الى زيادة كقول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة . . . ولو خالها تخفى على الناس تعلم (٤٢)

ثانيا : المساواة :

وقد سبق التعريف بها فهمى تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، فتكون الالفاظ على قدر المعانى لا يزيد بعضها على بعض ، كما أننا لو حذفنا لفظا لاختل المعنى وذلك الحذف يتبعه نقص فى الكلام، ومن ثم جاءت التسمية بالمساواة وذلك مثل قوله تعالى : (من كفر فلعيه كفره) ، أو قوله تعالى : (ولا يحيق المكر السىء الا بأهله) (٤٣) وقد عرف ابن الأثير المساواة سواء فى كتبه الجامع أو المثل أو المفتاح كما أوضحنا سلفا ويمثله بقوله تعالى (قتل الانسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفه خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره) .

ويشرح هذا المثال بما لا يدع مجالا للشك بأنه المساواة وليس غير فيقول « قتل الانسان » دعاء عليه وقوله « ما أكفره » تعجب من افراطه فى كفران النعمة ، وقد وصف الله خلق الانسان الى منتهاه فقال « من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره » أى هياؤه لما يصلح له « ثم السبيل يسره » أى سهل خروجه من بطن أمه ، كما يسر له الطريق اما للخير واما للشر ، ثم « أماته

(٤٢) المفتاح المنشأ ص ٣١١ .

(٤٣) الايضاح ص ١٠٥ .

فأقبره « أى يوارى فى قبره » ثم اذا شاء أنشره « أى احياء
« كلا » حرف ردع للانسان لما هو عليه « لما يقض ما أمره » أى
أن الانسان لم يخل من تقصير قط (٤٤) اذا اللفظ على قدر المعنى
(ولو أردت أن تحذف جزءا من أجزائه لما قدرت على ذلك لأنك
كنت تذهب بجزء من معناه ، ويختل عليك نظمه ، فان أسقطت الجملة
الاولى التى هى صدر الكلام زال معنى الدعاء عليه • وأن أسقطت
الجملة الثانية زال معنى التعجب من كفران نعمة ربه ، وان أسقطت
الجملة الاستفهامية أو غيرها زال ما تضمنته من المعانى التى لولاها
لما كان (٤٥) وهذه هى المساواة بعينها ويأتى بأمثلة كثيرة من
القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة والاشعار العربية
الرصينة •

فما قاله الرسول ﷺ (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ
ما نوى) ومنه قول النابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى : وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وهذا المثل نفسه هو ما تمثل به القزوينى للمساواة (٤٦) وغير
هذا كثير •

(٤٤) المثل السائر ح ٢ ص ١١٥ ، والجامع الكبير ص ١٤٢ •

(٤٥) المثل السائر ج ٢ ص ١١٥ والجامع الكبير ص ١٤٢ •

(٤٦) الايضاح ص ١٠٥ •

ثالثا : الاطناب

وكما تكلم ابن الأثير عن القسمين السابقين وهما الايجاء والمساواة ، تكلم أيضا عن الاطناب وفرق بينه وبين التطويل والتكرار وقسمه الى أقسام ، كما ذكر الغرض البلاغى أو الفائدة من الاطناب كما سوف نعرض الآن •

فحد الاطناب عنده زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، وهذا التعريف هو ما حد به علماء البلاغة الاطناب (٤٧) ، وقد نص ابن الأثير فى التعريف على الفائدة المأخوذة من الاطناب ، وهو محق فى هذا لأن الزيادة اذا لم تكن لفائدة وغير معينةسمى تطويلا ، ولييسر اطنابا ، أما اذا كانت الزيادة فى الكلام معينة ولا تفسد المعنىسمى حشوا (٤٨) •

وهذا نفسه ما عناه ابن الأثير عندما فرق بين الاطناب والتطويل ، والحشو الذى أسماه بالتكرار ويعرفه بقوله (وأما التكرار فانه دلالة اللفظة على المعنى مرددا) (٤٩) وقد قسم التكرار الى قسمين فمنه ما يأتى لفائدة وهو جزء من الاطناب ، ومنه ما يأتى لغير فائدة وهو جزء من التطويل •

وحد التطويل بقوله (هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة) (٥٠) فاذا كان لفائدة فهو اطناب ، وان كان لغير فائدة فهو

(٤٧) الايضاح مثلا ص ١٠٢ •
(٤٨) الايضاح ص ١٠٣ •
(٤٩) المثل السائر ج ٢ ص ١٢٩ •
(٥٠) المثل السائر ح ٢ ص ١٢٩ •

تطويل ، واذا كان مرددا فهو تكرير ومن ثم فان التكرير صار بذلك قاسما مشتركا بين الاطناب والتطويل عند ابن الاثير (ان كل تكرير يأتي لفائدة فهو اطناب ، وليس كل اطناب تكريرا يأتي لفائدة ، وأما الذى يأتي من التكرير لغير فائدة فانه جزء من التطويل وهو أخص منه ، فيقال حينئذ : ان كل تكرير يأتي بغير فائدة تطويل ، وليس كل تطويل تكريرا يأتي بغير فائدة) (٥١) ♦

أما فائدة الاطناب عنده فهي (زيادة التصور للمعنى المقصود ، اما حقيقة واما مجازا ♦ وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد) (٥٢) وذلك كقوله تعالى « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » فيحصل لمن يسمع هذه الاية زيادة تصور للمدلول عليه ، لانه اذا طبقه على نفسه تصورهما جوفاً يحتوى قلبين كان ذلك أسرع للانكار ومن تأتى بفائدة هذا الاسلوب وأنماطه ويقسم ابن الاثير الاطناب الى قسمين كبيرين :

(أ) الاطناب فى الجملة الواحدة الكلام ♦

(ب) ما يوجد فى الجمل المتعددة ، وهذا هو الابلغ لاتساع المجال فى ايراده ♦ والقسم الأول الذى يوجد فى الجملة الواحدة اما أن يكون حقيقة أو مجازا ♦

١ — الحقيقة ، كقول القائل : رأيت بهيى ، وقبضته بيدي ،

(٥١) المثل السائر ج٢ ص ١٢٩ ♦

(٥٢) الجامع الكبير ص ١٥١ ♦

ووطئته بقدمى وذقته بفمى * فقد يظن ظان أن ثمة زيادة لاحتاجة إليها ، لأن الرؤية بالعين ، والقبض باليد ، والوطء بالقدم ، والذوق بالفم ، لكن ذكر هذه الأمور فى تل شىء توجد صعوبة فى الحصول عليه ، فجاءت هذه الالفاظ دلالة على التوكيد فى الحصول عليه والوصول اليه *

ومن هذا قوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) فالسقف لا يكون الا من فوق ولكن لما كان المقام مقام ترهيب وتخويف ، وانكار وتعظيم ذكر لفظة (فوقهم) للفائدة التى لا توجد مع اسقاطها (وأنت تحس هذا من نفسك فانك اذا تلوت هذه الآية يخيل اليك أن سقفا خر على أولئك من فوقهم ، وحصل فى نفسك من الرعب ما لا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة) (٥٣) وعلى ذلك فان مثل هذه الامور كثيرا ما ترد فى القرآن الكريم ، وفيها من الأسرار البلاغة الشىء الكثير وذلك بحسب المقام الذى سيقت فيه والموقف الذى ذكرت من أجله *

٢ - وقد يأتى على طريقة المجاز ، وهو يفضل الحقيقة كثيرا لأنه كما هو شائع المجاز أبلغ من الحقيقة هذا من ناحية ، وأيضا (لمكان زيادة التصوير فى اثبات وصف الحقيقى للمجازى ، ونفيه عن الحقيقى) من ناحية أخرى (٥٤) ، وذلك مثل قوله تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فالعمى يكون بطمس حدقة العين والعمى مكانه البصر ، أما استعماله فى القلب ، فعلى سبيل الاستعارة (فلما أريد اثبات ما هو خلاف

(٥٣) المثل ج٢ ص ١٣١ *

(٥٤) المثل السائر ج٢ ص ١٣٣ *

المتعارف عليه من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار
احتاج الامر الى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر أن مكان العمى
انما هو القلوب لا الأبصار (٥٥) *

هذا ما يخص القسم الأول من الأطناب عند ابن الأثير ، أما
القسم الثانى وهو المختص بالجمال فإنه يشمل أربعة أضرب *

الضرب الاول : أن يذكر الشئ فيؤتى فيه بمعان متداخله
الا أن كل معنى يختص بخصيصه ليست للآخر ، فكل معنى له
ما يخصه وهو وقف عليه لا يمكن أن يكون لغيره لأنه ليس من
أسبابه كقول أبى تمام :

قطعت الى الزابيين هياته :: والتاث فاول السحاب الميل

من منة مشهورة وضبيعة :: بكر واحسان اغر محجل

فالمنة والضيعة والاحسان تتداخل معانيها لكن الشاعر
وصف كل واحدة منها بوصف يمنعها من التداخل ، وبالتالي من
لتكرير ، فالمنة مشهورة ، والضيعة بكر لم يأت أحد بمثلها من قبل
أما الاحسان فإنه أنمر محجل ، وهذه الأوصاف المتباينة منعت
التداخل والتكرير *

الضرب الثانى : ويسميه ابن الاثير النفى والاثبات (٥٦) وهو
أن يذكر الشئ منقيا ثم يذكر مثبتا أو العكس ، ولا بد أن يكون فى
أحدهما زيادة ليست للآخر والا كان تكريرا ، والغرض به تأكيد

(٥٥) المثل السائر ج٢ ص ١٣٣ *

(٥٦) المثل السائر ج٢ ص ١٣٥ *

المعنى المقصود ، وهو أوتد وجوه الاطناب فمما جاء منه على سبيل
النفى ، ثم ذكر على سبيل الاثبات قوله تعالى (لا يستأذنك الذين
يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله
عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر
وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) فبدأ سبحانه وتعالى
بالنفى فقال (لا يستأذنك ..) الآية ثم عقب بالاثبات فقال (إنما
يستأذنك ..) الآية وزاد فيها قوله تعالى (وارتابت قلوبهم في
ريبهم يترددون) فانتهى التكرار وثبت الاطناب •

أما مثال الاثبات ثم النفي فهو كقوله تعالى (الم غلبت
الروم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس
لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم
غافلون) فقال سبحانه (يعلمون) بعد (لا يعلمون) فنفي علم
الناس لما خفى عنهم من تحقيق وعده ، وأثبت لهم العلم بظاهر
الامور وليس بعلم ، فالعلم بما كان يباطن الامور •

الضرب الثالث : أن يجيء المعنى الواحد تاما لا يطلب زيادة
ويمثل له بمثال من التشبيه كقول البحترى :

ذات حسن لو استرادت من الحسن : : : من اليه لما أصابت مزيدا
فهي كالشمس بهجة والقضيب اللـ : : : دن قدا والريم طرفا وجيدا

فانه قد بلغ الغاية في وصف حسنها ، وقد عبر الشاعر عن ذلك
بقوله (لو استرادت لما أصابت مزيدا) فجمع لها كل الاشياء

الحسنة ، غير أن التشبيه أفاد مزية أخرى ، وهى أفادة السامع تخيلا وتصويرا لا يحدث له من البيت السابق •

الضرب الرابع : استيفاء معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة وهذا كما يقول (أصعب الضروب الأربعة طريقا ، وأضيقها بابا ، لأنه يتفرع الى أساليب كثيرة من المعانى ... ومثاله ومثال الأيجاز ، مثال مجمل ومفصل) (٥٧) وقد ضرب له ابن الأثير مثلا فى صفة بستان فى قرابة صفحة من كتابه وبدأه بقوله (جنة علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تمسك سماء وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة ...) الى أن ختمه بقوله (ولقد دخلتها فاستهوتنى حسدا ، ولم ألم صاحبها على قوله لن تبديد هذه أبدا) (٥٨) •

التكرير

هذه هى دراسة ابن الأثير لهذا الشق من الاطناب وقد اردف بعد ذلك بالكلام على التكرير وهو يعلم أنه جزء من الاطناب ، غير أن شهوة التقسيم ومحاولة السبق ، والاحساس بأنه أتى بما لم يأت به الآخرون دفعه الى تلك التقسيمات ولقد أصر منذ البداية على أن يزيل من الفهم ما قد يتبادر للذهن من الفصل بين الاطناب والتكرير الذى هو أحد أنواعه فعند ما قسم التكرير الى قسمين جعل القسم الاول منه وهو الذى يأتى لفائدة جزءا من الاطناب وقد تقدم

(٥٧) المثل السائر ج٢ ص ١٣٦ ، ص ١٣٧ •

(٥٨) المثل السائر ج٢ ص ١٣٧ ، ص ١٣٨ •

سلفا قوله (ان كل تكرير يأتى لفائدة فهو اطناب ، وليس كل اطناب تكريرا) (٥٩) وبذا صار التكرير أخص من الاطناب وقد عرفه وفرق بينه وبين الاطناب والتطويل كما مر *

أقسام التكرير : ينقسم التكرير الى قسمين :

١ — ما يوجد فى اللفظ والمعنى مثل قول القائل لمن يستدعيه « أسرع ، أسرع » *

٢ — ما يوجد فى المعنى دون اللفظ وذلك مثل قولك لآخر « أطلعنى ولا تعصنى » فالأمر بالدعاة نهى عن المعصية *

وقد قسم ابن الاثير هذين القسمين الى أربعة أقسام أخرى فجعل كل واحد منهما ينقسم الى قسمين آخرين ، وهما مفيد ، وغير مفيد ، غير انه يعنى بالمفيد هنا ما جاء لمعنى أى ما أضاف معنى زائدا لمداول الكلام ، وغير المفيد ما انعدم فيه ذلك ، وهذا بخلاف ما يعنيه النحاة من سلامة مفيد ، اذا المفيد عندهم هو لفظ المركب من اسم مع آخر لعلاقة تربطهما ، أو اسم مع فعل أو العكس وما شابه ذلك يقول (واعلم ان المفيد من التكرير يأتى فى الكلام تأكيدا له ، وتشبيها من أمره ، وانما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذى ذكرت فيه دلائك ، اما مبالغة فى مدحه أو ذمه أو غير ذلك ، * * * * * وغير المفيد لا يأتى فى الكلام الا عيا وخطلا من غير حاجة اليه) (٦٠) *

(٥٩) المثل السابق ج ٢ ص ١٢٩ .
(٦٠) المثل السابق ج ٢ ص ١٥٨ وانظر الجامع الكبير ص ٢٠٤ .

أولاً : أقسام ما يوجد فى اللفظ والمعنى :

١ — المغير وينقسم الى فرعين :

(أ) اذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى (واذا يعدكم الله احد الطائفتين أنها لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) فكرر سبحانه وتعالى (يحق الحق) (وليحق الحق) غير أن المراد بهما مختلف ، فالاول تمييز بين الارادتين ، والثانى بيان لغرض فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه سبحانه وتعالى ما نصرهم وخذل الكافرين الا لهذا الغرض •

(ب) اذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله تعالى (فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر) ، فكرر دلالة على التعجب من تقديره واصابته الغرض ، وهذا كما يقال : قتله الله ما أشجعه ، أو ما أشعره •

وقد يكون التكرير للتأكيد وتقدير المعنى مثل : قوله تعالى فى سورة الرحمن (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فانه أيضا يكون للترغيب والتنبيه كقوله تعالى (وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار) فكرر نداء قومه ليستميل قلوبهم كيلا يشكوا فى اخلاصه لهم فى نصحه (وهذا من التكرير الذى هو أبلغ من الایجاز واشد موقعا من الاختصار) (٦١) •

(٦١) المثل السائر ج٢ ص ١٦٨ وانظر الجامع الكبير ص ٢٠٧ •

ثانيا : غير المفيد : ففي تكريره اضعاف للمعنى واسفاف به
ووجوده وعدمه سواء لانه لا يأتى الا بمعنى واحد فقط كقول مروان
الاصغر •

سقى الله نجدا والسلام على نجد .: وياحبذا نجد على النأي البعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها .: لعلى أرى نجدا وهيئات من نجد

فان تكرير كلمة نجد فى البيتين ست مرات ، وهن المعنى ،
ولم يأت بطائل يذكر فمقصوده فى البيت الأول الثناء والتلذذ بذكر
نجد ، وفى الثانى التلفت ناظرا من بغداد ، وهذا المعنى غير
محتاج الى كل هذا التكرير وهذا من العى الضعيف كما يقول
ابن الاثير (٦٢) •

أما لو اقتصر على البيت الأول فقط لأدخل فى التكرير المقبول
لان الموقف موقف تشوق وتحرق والم لفراق نجد ومن ثم دخل تحت
أحد أغراض التكرير وهو التلذذ بذكر الشئ المحبوب أكثر من مرة •

القسم الثانى من التكرير وهو الذى يوجد فى المعنى دون
اللفظ ، وينقسم الى قسمين أيضا كسابقة :

(أ) مفيد •

(ب) غير مفيد •

(أ) المفيد وينقسم هو الآخر الى قسمين :

١ — اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين ، كدلالته على الجنس والعدد مثلا (وهو موضع من التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم أنه تكرير محض يدل على معنى واحد فقط) (٦٣) ، وذلك كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) والفائدة من ذكر (الهين اثنين ، اله واحد) هو أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية يدل على الجنسية والعدد المخصوص (فاذا أريدت الدلالة على أن المعنى به واحد منهما وكان الذى يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكد ، فدل به على القصد اليه والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت « انما هو اله » ولم تؤكد بواحد لم يحسن ، خيل أنك تثبت الالهية لا الوجدانية) (٦٤) ومن هذا النوع ذكر الخاص بعد العام (٦٥) وفائدته التنبيه على فضله ، حتى كأنه لفضله وسمو مكانته جزء آخر مغاير لما قبله كقوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ومن ذكر الخاص بعد العام ما فائدته تعظيم الشأن ، وتفخيم لامره وهذا مذكور فى القرآن الكريم كثيرا مثل قوله تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها) فالجبال جزء من الارض ، لكن لفظ الارض عام ، والجبال خاص ، وبذا عظم شأن الامانة وفخم أمرها .

(٦٣) الجامع الكبير ص ٢٠٩ .

(٦٤) الجامع الكبير ص ٢١٠ .

(٦٥) وانظر أيضا المثل ج ٢ ص ٣٢ النوع الثامن : وهو فى استعمال

العام فى النفى والخاص فى الاثبات .

٢ — اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لا غير
كقولك لمن تخاطبه : أطننى ولا تعصنى فالأمر بالطاعة نهى عن
المعصية ، والفائدة من ذلك تثبت الطاعة فى نفس المخاطب •

ومنه أيضا الترغيب فى العفو والصفح كقوله تعالى (ياأيها
الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وان
تعفوا وتصفحوا او تغفروا فان الله غفور رحيم) فالعفو ، والصفح
والمغفرة بمعنى واحد ، وانما كرر للزيادة فى تحسين عفو الوالد
عن ولده والزوج عن زوجته • ومن أنواع الاطناب التى ذكرها
مبعثرة فى كتبه التفسير بعد الابهام ويقول عنه (اعلم أن هذا النوع
لا يعتمد الى استعماله الا لضرب من المبالغة ، فاذا جىء به فى كلام ،
فانما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم واعظامه لانه هو الذى يطرق
السمع أولا فيذهب بالسامع كل مذهب (٦٧) وضرب له أمثلة عديدة
قرأنا وشعرا ونثرا وسنكتفى بمثال واحد يبين هذا النمط وهو قوله
تعالى (وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع) ففى ابهامه
أولا وتفسره بعد ذلك تفخيم للامر وتعظيم لشأنه ، فانه لو
حذف لفظة (الامر) لما كان الكلام بهذه المنزلة من العظمة لأن
الابهام يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما يقرع سمعه ،
فيتشوف الى معرفته والاطلاع على حقيقته ، فأبهم فى كلمة الامر
ثم وضحه بعد ذلك تهويلا لامر العذاب •

(٦٧) المثل السائر ج٢ ص ٢٧ وهذا شبيهه بعطف المظهر على ضميره
والانصاح به بعده انظر المثل ج٢ ص ٢٤ •

(ب) غير المفيد ، وذلك كقول أبي تمام :

قف بالطول الدراسات عالًا : أضحت حبال قطينهن رثًا

قسم الزمان ربوعها بين الصبا : وقبولها وديورها أثلا

والصبا والقبول بمعنى واحد ، فالتركيب لم يأت بفائدة ، وهذا النوع من التكرير لا يجوز للناثر أن يستخدمه ، وإنما يجوز للشاعر في حالة واحدة فقط وهي إقامة والقافية كقول امرئ القيس :

وهل ينعمن الا سعيد مخلد : قليل الهموم لا يبيت بأوجال

فإذا كان قليل الهموم ، فانه لا يبيت بأوجال والذي سوغ ذلك هو القافية .

وقد تنبه ابن الاثير الى نوع هذه القزوينى (٦٨) من أغراض التكرير وهو التكرير اذا طال الفصل لثلايجىء الكلام مبتورا ليس له طلاوة ، فلم يعده ابن الاثير من التكرير فقال (ولربما أدخل في التكرير من هذا النوع ما ليس منه) (٦٩) وذلك مثل قوله تعالى : (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) فكرر (ان ربك) مرتين وذلك أدل على المغفرة ومنه قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) .

وأیضا قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام (اذ

(٦٨) الايضاح ص ١١٣ .

(٦٩) المثل السائر ج٢ ص ١٦٦ .

قال يوسف لآبيه ياأبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) فلما طال الفصل كرر الرؤية ومنه قول الشاعر :

وان امرا دامت مواثيق عهده . . . على مثل هذا انه لكريم

ويدلل على صدق رأيه أنه اذا طال الفصل من الكلام وكان أوله يفتقر الى اتمام لكى يفهم ، فمن الفصاحة أن يعاد اللفظ الاول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل من ناحية ، ولكيلا يكون منشورا من ناحية أخرى ، ونراه يحدد الموضع لى ان وأخواتها فيقول (فاذا وردت ان وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فاعادة ان أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة . . . فاذا لم تعد ان مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق) (٧٠) .

ومن أنواع الاطناب الاعتراض ، الذى يذكره المتكلم لغرض يقصده فى كلامه ، فيأتى فى أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين فى المعنى بجملة معترضة أو أكثر ، وقد يكون فى آخر الكلام ، وقد أسماه ابن الاثير بالاعتراض وذكر أن بعضهم يسميه بالحشو . وقد مر بنا أثناء حديثنا عن الفصاحة العيوب التى ترد بها فصاحة الكلام وذكرنا منها التداخل بين ألفاظه ومعانيه ، والفصل المخل بين مالا يصح فصله لانه سوف يؤدى الى خلل فى سياق الكلام . واضطراب فى معانيه ، وهذا هو الفصل المخل بالمعنى والسياق . غير أن هناك فصلا قد لا يفسد المعنى ولا يؤدى الى ذلك .

الاضطراب ، وهو ما يعرف عند ابن الاثير بالاعتراض أو ما يسميه بعضهم بالحشو ، أى ما يأتى محشوا ، أو معترضا بين أطراف الكلام كالمبتدأ والخبر ، والصفة والموصوف والمتضايفين وما أشبه ذلك .

لكن ما الفرق بين هذه الاعتراضات ، وبين العيوب التى تدخل على الكلام ، فتذهب فصاحته ؟ سوف نجد أن هذا الحشو أو تلك الاعتراضات لم تخل بالمعنى ، كما أنها لا تؤدى الى التعاقل فان الجملة الموضوعية بين جزئين رئيسيين تتواءم معهما فى المعنى ولو اسقطت من الكلام لم ينقص المعنى أو يخل شئ منه بخلاف ما سبق كقول الشاعر :

فأصبحت بعد خط بهجتها . . . كان قفرا رسومها قلما

وبذلك تزيد من قوة المعنى فى العبارة خاصة اذا كانت جملة دعائية أو قسما أو ما أشبه ذلك .

ويعرف ابن الاثير الاعتراض والحشو بقوله : (كل كلام ادخل فيه لفظ مفرد أو مركب ، لو اسقط لبقى الأول على حاله) (٧١) أى سواء كان الداخل لفظة واحدة أو جملة بأكملها بين عنصرى الجملة فان ذلك ليس مما يفسد الكلام أو يؤدى الى خلط المعنى شريطة أنه اذا سقط من الكلام لبقى المعنى قائما ، فلو قلنا مثلا : زيد قائم ، فان المعنى قد تم بالمبتدأ والخبر ، ولو جئنا بفصل كالقسم بينهما لم يفسد المعنى بل يزداد توكيدا ، ولو حذفناه لن يتغير المعنى ، هذا بالنسبة لدخوله لفظة مفردة .

أما لو أدخلنا جملة بين زيد ، وقائم ، أى بين المبتدأ والخبر
فان الكلام أيضا لن يختل • فتقول مثلا : زيد على ما يعانيه من
المرض قائم ، فقد أدخلنا جملة على ما يعانيه من المرض « بين المبتدأ
والخبر ، وقد أفادت معنى زاد على المعنى الأول واتحد المعنيان
لخدمة الجملة الخبرية ، ولو حذفنا الجملة التى أضفناها لظل المعنى
على حالة دون تغيير وهو الافادة بقيام زيد » •

ولكن ليس كل اعترض حسن أو جائز ، والمعول على ذلك
كتب العربية وقواعدها ، فان فيها ميزانا وقاعدة لما يحسن استعماله
أو يجوز ، ولما يقبح ، وينكر استعماله ، وليس هذا من وكدنا بل
الهدف هو الوقوف على الجيد والردىء من مثل هذه الأمور •

ويقسم ابن الاثير الاعتراض والحشو الى قسمين (٧٢) :
أحدهما : لا يأتى فى الكلام الا لفائدة وهو جار مجرى
التوكيد •

الآخر : أن يأتى فى الكلام لغير فائدة ، فاما أن يكون دخوله
كخروجه منه ، واما أن يؤثر فى تأليفه وفى معناه فسادا •

وهذا القسم الأخير ينقسم هو ايضا الى ضربين :

الأول : يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لا يكتسب به
حسنا ولا قبحا •

الثانى : وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصا وفى المعنى فسادا (٧٣) • أما بالنسبة للقسم الاول — الذى يأتى لفائدة فانه ورد كثيرا فى القرآن الكريم والشعر العربى • فمن أمثله مما جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) ففى هذه الآية اعتراض أحدهما هو قوله تعالى (وانه لقسم لو تعلمون عظيم فانه اعتراض بين قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، وبين قوله تعالى (انه لقرآن كريم) أى فيه فاصل أو اعتراض بين القسم وجوابه بقوله تعالى : (انه لقسم لو تعلمون عظيم) وأيضا فان فى هذا الاعتراض اعتراض آخر وهو قوله تعالى (لو تعلمون) ووقع بين الموصوف وهو قسم والصفة التى هى عظيم •

وهذا الاعتراض كما هو واضح انما جاء خدمة للمعنى فالقصد منه تعظيم شأن المقسم به فى نفس السامع ، فيقدره حق قدره ويكبره ويظل متأملا متطلعا الى معرفة عظمتة •

وكما سلف أن قلنا فان القرآن الكريم مليء بالاعتراضات كالاقتراض بين القسم وجوابه كما مر ، أو كالفصل بين المتعاطفين أو بين اذا وجوابها ، أو غير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، وكلها ترد فى الموضع الذى يتعلق بنوع من الخصوصية والمبالغة والتهويل أو التعظيم فى المعنى المقصود •

وكما ورد فى القرآن ورد فى الشعر العربى وذلك مثل قول
امرىء القيس :

لو ان ما اسعى لادنى معيشة .: كفىنى ولم اطلب قليل من المال

فتقدير الكلام كفىنى قليل من المال ، فاعتراض بين الفعل
ولفاعل بقوله « ولم اطلب » ، فأفاد تحقير المعيشة ، وأنها
حاصلة بغير جهد ولا مشقة ومنه قول كثير هاجيا :

لو ان الباخلين وانت منهم .: راوك تعلموا منك المطالا

فاعتراض بين اسم ان وخبرها بجملة وأنت منهم .

وفائدة الاعتراض فى الشعر غالبا أن الكلام اذا كان فى الغزل
أضفى عليه لطفًا ورقّة ، أما اذا كان مديحا فان يكسوه
جمالا وجلالا ، فاذا كان هجاء أكده فى نفس السامع وما أشبه
ذلك . ومن ثم فان هذا النوع يؤدى الى زيادة المعنى وإضافة
ظلال تسمو به ، بخلاف ما لو حذف منه .

القسم الثانى من الاعتراض وهو الذى يأتى لغير فائدة ، أى
لا يفيد لطفًا ولا رقّة ، ولا جمالا ولا تأكيدًا ، ويكون دخوله فى
الكلام كخروجه منه فلا يكتسب الكلام به حسنا ولا قبحا وهو
جملة (لا أبالك) وغالبا فانها تكون مع الجمل الخبرية فاذا كانت
مع الجملة الانشائية فانها غالبا ما تزيد الكلام حسنا ، وتضفى
عليه توكيدا .

فالأول كقول النابغة :

يقول رجال يجهلون خليقتى .: لعل زيادا - لا أبالك - غافل

أو قول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش . ثمانية حولا - لا أبالك - يسام

فان قولهما لا أبالك زيادة واعتراض لافائدة منها في البيتين

ولم تؤثر في المعنى لا حسنا ولا قبحا ، عكس قول أبي تمام :

عتابك عنى - لا أبالك - واقصدى البيت

فانه لما كره عتابها اعترض بقوله لا أبالك فجاءت موقعها
وأضافت زيادة في الكلام فأكسبته توكيدا في ذهن المخاطب والجملة
كما نرى انشائية ، نوعها أمر وغرضه أو مقصوده الذم ، والاعتراض
جاء بين فعل الأمر ، وبين المعطوف عليه وهو قوله اقصدى .

وهذا هو الضرب الاول من القسم الثانى ، أما الضرب الثانى
من القسم الثانى ، فهو الذى يهجن الكلام ، ويفسد المعنى ، وقد
تكلمنا عنه فى المعاظلة مثل قول الشاعر :

فقد والشك بين لى عناء البيت

أو قول الآخر : فأصبحت بعد خط بهجتها

وبهذا تنتهى دراسات ابن الاثير لعلم المعانى وكان الرجل ذا قدم
راسخة وعلى علم ودراية بهذا الفن من فنون البلاغة،والآن نتجه صوب
علم أو فن البيان لنقف على مدى فهم ابن الاثير له أيضا .

2

دراسات ابن الأثير

للبيان وأبوابه

شيئان لا نهاية لهما
البيان والجمال
ابن الاثير

دراسة ابن الاثير للبيان وأبوابه

بعد أن تناولنا بعض أبواب علم المعاني التي أوردها ابن الاثير ورأينا كيف كان فهمه لكل منها ، نعرض الآن لدراسته لعلم البيان ، وكيف تناول أبواب هذا القسم من البلاغة ، وكما هو معروف فان علم البيان يعنى بايراد المعنى الواحد بطرق وتراكيب متباينة فى الوضوح والدلالة على هذ المعنى ، فربما اعتقد المتكلم أن طريقا أفضل أو أوضح من طريق فى الدلالة على المعنى الذى يدور بخلده، ومن ثم يعبر بطرق مختلفة ، فأحيانا يعمد الى التشبيه ، فيشبهه الاشياء الغامض بالشيء الواضح ، وأحيانا يتوجه ناحية المجاز لاداء ذلك المعنى ، وقد يلجأ الى الكناية وربما استخدم الاستعارة ، وهذه الطرق كلها توصل الى ما يرمى اليه وما يهدف ، ومدار الامر كله فى هذه الطرق أنه يسخر المجاز ، فهو القاسم المشترك الاعظم بين هذه الطرق ، بل هو الرابط بينها وبين المعنى الحقيقى الذى دار بخلد المتكلم طالما كان سليم الذوق جيد الطبع .

وقد عرض له ابن الاثير فى كتبه متناثرا هو وأبوابه ، وان كان كلها ينبع من ركية واحدة ، ويكمل كل منهما الآخر ، غير أنه شديد الاحتفاء بعلم البيان اذ هو الركن الركين لتأليف النظم والنثر، فهو بمنزلة أصول الفقه للاحكام وأدلتها ، ومداره على الذوق السليم الموهوب ، فمتمى اعطى الناظم أو الناثر هذا الذوق ، فانه سوف يعينه على نظم الفرائد ، بل هو أجدى للناظر والناثر من الخبرات المكتسبة بالتعليم ، طالما أوتى صاحبه الدربة والممارسة والمران (فان الدربة

والأدمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر
عيانا ، ويجعلان عسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك
قلبا ولسانا (١) •

وإذا كان صاحب كل صناعة يسأل عن أحوالها التي تعرض
لها ، فان صاحب علم البيان أو صناعة البيان يسأل عن الفصاحة
والبلاغة سواء من الناحية اللفظية أو المعنوية ، والدلالة وفضيلتها،
والهيئة المخصوصة من الحسن وعلم البيان بهذه الخصوصية يفترق
عن علم النحو ، فإذا كان علم النحو ينصب على الالفاظ والمعانى
وأحوالها الدلالية من جهة الاوضاع اللغوية فان علم البيان ينظر
فى فضيلة تلك الدلالة ومن ثم فان (موضوع علم البيان هو الفصاحة
والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالها اللفظية والمعنوية ، وهو
والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الالفاظ على
المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم
البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة والمراد بها
أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو
والاعراب الاترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور
ويعلم مواقع اعرابه ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة
والبلاغة (٢) ولذا قرر أن النحاة لا فتيالهم فى مواقع الفصاحة
والبلاغة (٣) لأن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب •

(١) المثل السائر ج١ ص ٦ ت محيى الدين •

(٢) المثل السائر ج١ ص ٧ •

(٣) المثل السائر ج٢ ص ١٦٤ •

المجاز وعلم البيان

قلنا فيما سبق ان المتكلم يستطيع أن يؤدي ما بنفسه من معان متباينة بطرق شتى وهذه الطرق ، قاسمها المشترك الأعظم هو المجاز ، ومن هنا توثقت الصلة بين المجاز وعلم البيان ، لان اللفظ الذى يطلقه المتكلم قد لا يقع الا لمعنى واحد ، وقد يقع لمعنيين ، وهذان المعنيان اما أن يكونا حقيقيين ، وأما أن يكون أحدهما حقيقيا والآخر مجازيا ، وأما أن يكونا مجازيين •

فمثال الحقيقيين قول الرسول ﷺ « التمسوا الرزق فى خبايا الارض » فلفظه خبايا معناها الكنوز المخبوءة فى باطن الارض ، والآخر الزراعة من حرث وغرس ، والمقصود والمرجح من هذه اللفظة هنا هو الزراعة دون الآخر •

ومثال المجازيين قول أبى تمام :

قد بلونا أبا سعيد حدثا ويلونا أبا سعيد قديما
ووردناه ساحلا وقليبا ورعيناه بارضا وجميما (٤)
فعلمنا أن ليس يشق النـ ففس صار الكريم يدعى كريما

فيعلق ابن الاثير على هذه الابيات قائلا (فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب ، والآخر أنه أراد بهما السبب وغير السبب ، وكلا هذين المعنيين مجاز ، فان حقيقة الساحل والقليب

(٤) البارض أول خروج النبت من الارض والجميم انتشاره •

غيرهما فكأنه قال أخذنا منه تبرعا ومسألة ، وقليل
وكثيرا (٥) .

أما النوع الثالث وهو الحقيقة والمجاز فكقوله تعالى : (ويوم
يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤوها شهد
عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) فلفظة الجلود
هنا تفسر على الحقيقة ، والمجاز ، أما الحقيقة فيكون مطلق الجلود ،
أما المجاز فيكون تخصيص الفروج ، وهذا التعبير من اللفظ الكنايات
لأنه كنى عما يستقبح ذكره وجاء به واضحا بينا والذي رشح ذلك
هو مراعاة النظير بين الجوارح من سمع وبصر وجلود أى فروج .

ومهما يكن من أمر فان المقصود بالدراسة هنا هو المجاز على
وجه العموم لأهميته القصوى لعلم البيان كما بينا آنفا ، ونظرا
لهذه الأهمية يذهب ابن الأثير الى أن المجاز هو علم البيان بأجمعه
لان مجيء العبارات على المجاز يجتنى منه فوائد كثيرة وتبعها لهذه
الأهمية فانه أفرد فصلا خاصة لدراسة الحقيقة (٦) التى
يعرفها بأنها اللفظ الدال على موضوعه الأسمى .

ويعرف المجاز بأنه (ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى
أصل اللغة) (٧) . وهذا التعريف ناقص بعض الشيء عن التعريف

(٥) المثل السائر ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٦) المثل السائر ج ١ ص ٥٧ .

(٧) المثل السائر ج ١ ص ٥٨ .

الاصطلاحى للمجاز اذ قد عرفه علماء انبلاغة: بأن استخدام اللفظى غير ما وضع لعلاقة مع قرينة ما نعة من ارادة المعنى الاصلى •

وأحيانا تكون العلاقة مقيدة بالمشابهة فيكون مجازا بالاستعارة وأحيانا تكون العلاقة مطلقة تتحدد من سياق الكلام فهذا هو المجاز المرسل كل هذا مع وجود قرينة اما لفظية واما معنوية (٨) يمنع السامع من فهم اللفظ على حقيقته ، 'ذ لو أردنا اللفظ على الحقيقة لما كان ذلك مجازا البتة • ومهما يكن من أمر ، فان ابن الاثير فى تحليله للفظ مجاز قارب من التعريف الاصطلاحى سالف الذكر له •

فيرى أن المجاز اسم مكان ، يقصد به الانتقال من مكان لآخر فاستعير لنقل الالفاظ من محل الى محل لوجود صلة بينهما (كقولنا زيد أسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف ، وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية أى عبرنا من هذه الى هذه لوصلة بينهما وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة وقد يكون العبور وصلة وذلك هو الاتساع) (٩) • وسمى المجاز بهذا الاسم لأنه جيز به المعنى أو الغرض المقصود فى نفس السامع عن طريق التخيل ومن ثم فان كل مجازة حقيقية وليس العكس ، ولذا صار المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة لانه يثبت المعنى أو الغرض المقصود فى نفس السامع عن طريق التخيل

(٨) انظر الكلام بتفصيل اكثر بين الحقيقة والمجاز والقرائن فى كتابنا البلاغة وقضايا المشترك •

(٩) المثل السائر ج ١ ص ٥٨ وهذا تشبيه بليغ مضمرة الاداة !!

والتصوير حتى ليكاد يتجسم أمامه هذا المعنى محسوسا ، ومن ناحية أخرى فإن التعبير المجازي له فعل السحر في نفس السامع ، ويجد له نشوة لا تكون للتعبير الحقيقي ، فتجعل الجبان شجاعا والبخل كريما ، وإذا لم تتحقق هذه الفوائد المرجوة من المجاز وجب على المتكلم أن يعدل الى الحقيقة لأنها أصل والاصل أولى في التعبير من الفرع •

نخرج من كل ما تقدم الى أن المتكلم اذا عدل عن الحقيقة الى المجاز لمشاركته بين المنقول والمنقول اليه كان ذلك التعبير استعارة أما اذا كان العدول عن الحقيقة الى المجاز لغير المشاركة بين المنقول والمنقول اليه فيكون ذلك بطلب التوسع في الكلام ، وذلك بتعدد العلاقات ، وينتهي الى أن أقسامه ثلاثة : اما توسع ، أو تشبيه أو استعارة (١٠) ويقصد بالتوسع المجاز المرسل •

وأثناء كلامه عن الاستعارة اعترض عل الغزالي في كتابه اصول الفقه فيما كتبه عن المجاز وأقسامه ، تبعا لتنوع علاقاته المعروفة في المجاز المرسل ، وان كنت لا أوافقه على هذا الخلط ، وما ذهب اليه الغزالي هو الصواب بل هو المعروف لدى البلاغيين ، وان كان ولا بد من مثال فسوف نورد بعض اعتراضاته على الامام الغزالي في قسم من أقسام المجاز المرسل ، فقد ذكر الغزالي — حسبما أورد ابن الاثير — قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام

(١٠) المثل السائر ج ١ ص ٣٦٤ ت محيي الدين •

ومن دخل معه السجن (انى أرانى أعصر خمرا) وكما هو معروف لدى البلاغيين فهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يتحول اليه أى انى أعصر عنباً يتحول ويصير ويتحول الى خمر ، وهذا لا خلاف عليه عندهم غير أن ابن الاثير لا يرى ذلك مجازاً مرسلًا ، وإنما يراه استعاره فيقول (وهو من باب الاستعارة ، لا ، بل أوغل فى المشابهة من ذاك لان الخمر من العنب) (١١) وهذا رأى مدحوض لابن الاثير لانه لاشك فى أن هذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون والمثال الاخر من الامثلة التى عدها الغزالي من المجاز المرسل ورفضها ابن الاثير ما علاقته الجزئية فقال : (تسمية الشيء باسم جزئه كقولك لمن •• تبغضه أبعد الله وجهه عنى ، وإنما تريد سائر جثته) (١٢) • فاعتبر ذلك أيضا من الاستعارة ، وهذا خطأ من ابن الاثير لان ذلك أيضا مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وهذا من نوع قوله تعالى (فتحرير رقبة مؤمنة) فالتكلم ذكر لفظ الجزء فى المثال والاية الكريمة غير أن المراد هو لكل لا الجزء •

وعلى كل فان الغزالي كان مصيبا فى دراسته للمجاز ، ولكن شهوة المناقضة والانتقاص لدى ابن الاثير جعلته يقف موقفا متخطبا من دراسة الغزالي لهذا اللون البيانى • والملاحظ أنه كان يقسم المجاز الى أقسام ثلاثة : هى التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة وقد جاءت هذه الدراسة ، وتلك الاقسام أثناء كلامه عن الاستعارة ، وهى التى سوف نعرض لها فيما بعد ، مع باقى ألوان علم البيان •

(١١) المثل السائر ج ١ ص ٣٦٩ •

(١٢) المثل السائر ج ١ ص ٣٧١ •

التشبيه

معروف أن التشبيه هو الحاق أمر بأمر فى معنى من المعانى بأداة من أدوات التشبيه ، فالأمر الأول هو المشبه والثانى هو المشبه به ، والمعنى الذى يشتركان فيه هو وجه الشبه بأداة من أدوات التشبيه المعروفة سواء كانت اسما أو فعلا ، أو حرفا ، وقد قسم علماء البلاغة مصطلح التشبيه الى أقسام عديدة سواء بالنسبة للطرفين من حيث الحسية والمعنوية ، أو من حيث الافراد والتركيب ، ومن ناحية اثبات الاداة وحذفها ، ومن ناحية وجه الشبه ، من حيث الحسن والقبح وما الى ذلك .

ودرس ابن الاثير فى كفته أيضا التشبيه ، وكان له رأى فيه خاصة التشبيه المضمحل الاداة ، وثمة حقيقة نود أن نقررها بادية ذى بدء ، وهى أن ابن الاثير خلط أحيانا بين التشبيه والاستعارة على عادته فى الخلط بين أبواب المجاز والوانه على نحو ما سنوضح فى دراستنا له .

تعريف التشبيه عنده ، يعرف ابن الاثير التشبيه بقوله (حد التشبيه هو أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به) (١٣) وهذا تعريف قاصر للتشبيه لانه لم يتناول الطريقة التى يتم بها هذا الاثبات ، كما قد يكون هذا الاثبات لاجمال فيه ، ولا قبح ، بل

يكون على طريقة التقريب ، كأن نقول هذا اللون ، أو هذا اللباس
فى سواده يشبه سواد الليل ، فلا قيمة بلاغية مرجوة من هذا
التشبيه ، بل هو مبتذل يجرى على ألسنة العوام كثيرا ليس فيه
قوة التخيل ، لانه خال من الابداع ، ولذا فأننا اذا ايمننا تجاه
كتابه الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور ، وجدنا تعريفا آخر
للتشبيه أقرب الى الحد البلاغى له عند البلاغيين فيقول (وحده
أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به ، ويقال : هو الدلالة على
اشتراك شيئين فى معنى من المعانى ، وأن أحدهما يسد مسد الآخر ،
وينوب منابه سواء كان ذلك حقيقة أو مجازا واعلم
أن التشبيه يكون بأداته كالكاف ، وكأن ، وما جرى هذا المجرى ،
ويكون بغير أدواته ، وهو أن يجعل الكلام خلوا منها صالحا لتقديرها
فيه) (١٤) •

وهذا التعريف كما نرى يتطابق الى حد كبير مع تعريف
البلاغيين للتشبيه كما بينا سلفا ولكن الذى زاده فى هذا التعريف
هو تعريفه للتشبيه البليغ عندما تحذف الاداة ووجه الشبه ، ومما
يحمد له أيضا أنه أثبت أن تشبيه شىء بشىء اما أن يكون على
الحقيقة ، أو على المجاز ، فما كان على الحقيقة فهو كتشبيه شىء
أبيض باخر أبيض مثله ، أو بشىء أسود ، باخر مثله ، ولذا فانه
بقول على مثل ذلك التشبيه (وليس هذا من غرضنا) (١٥) ، وأما

(١٤) الجامع الكبير ص ٩٠ ، ٩١ •

(١٥) الجامع الكبير ص ٩٠ •

المجاز فكقولنا زيد أسد ، فليس زيد هو نفسه ذلك الحيوان المقترس
لكنه شبيه به فى بعض أوصافه وذلك يكون على سبيل المبالغة ،
والبيان والايجاز (١٦) •

وقد قسم التشبيه بعد ذلك الى أقسام ، كما فعل البلاغيون ،
سواء من حيث الطرفين — أى المشبه والمشبه به — أو من حيث الاداة ،
أو من حيث وجه الشبه ، وتكلم عن التشبيه المقلوب ووسمه بأنه
المسمى بغلبة الفروع على الاصول كما تناول التشبيهات الحسنة ،
وبين الرديئة كما سوف نعرض •

أولا : أقسامه من حيث الافراد والتركيب : يقسم التشبيه
من حيث الافراد والتركيب فى كتابه الجامع الى ثلاثة أقسام :

- (أ) مفرد بمفرد
- (ب) مركب بمركب
- (ج) مفرد بمركب (١٧) •

أما فى كتابه المثل السائر فانه يقسمه الى أربعة أقسام فيزيد
على الثلاثة المتقدمة نوعا رابعا ، وهو تشبيه المركب بالمفرد •

ويقرر منذ البداية بأن تشبيه المفرد بالمفرد يكون فيه تشبيه
شئ واحد بشئ واحد ، أما المركب فيكون التشبيه فيه بين
شيئين أو أكثر بشيئين أو أكثر كذلك (١٨) • وضرب لكل نوع مثاله •

(١٦) المثل السائر ج ١ ص ٣٩٤ •
(١٧) الجامع الكبير ص ٩٢ •
(١٨) المثل السائر ج ١ ص ٣٩٨ •

(أ) فمن تشبيهه المفرد بالمفرد قول البحترى :

تبسم وقطوب فى ندى ووغى ٢٠ : كالغيث والبرق تحت العارض البرد

(ب) ومن أمثلة المركب بالمركب قوله تعالى (انما مثل الحيواة
كماء أنزلناه من السماء فاختلف به نبات الارض مما يأكل الناس
والأنعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم
قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن
بالأمس) • فقد شبه حال الدنيا بسرعة زوالها وانقراض نعيمها
وادبارها ، بهيئة نبات الأرض فى جفافه وذهابه طعاما بعدما التفت
وتكاثف وزين الأرض •

(ج) ومثل لتشبيهه المفرد بالمركب بقول الشاعر :

كان السها انسان عين غريقة ٢١ : من الدمع يبد وكلما ذرفت زرفا (١٩)

(د) وهو تشبيه المركب بالمفرد وقد مثل له بقول أبى تمام
فى وصف الربيع :

يا صاحبى تقصيا نظر يكما ٢٢ : تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه ٢٣ : زهر الربا فكانما هو مقمر
ثم يقول معلقا على ذلك (فشبهه النهار المشمس مع الزهر
الأبيض بضوء القمر وهو تشبيه حسن واقع موقعه مع ما فيه من
لطف الصنعة) (٢٠) •

(١٩) الجامع الكبير ص ٩٣ : ص ٩٦ •

(٢٠) المثل السائر ج ١ ص ٤١٥ •

والنوع الأخير عنده ينقسم الى قسمين :

١ — تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد كقول أبى تمام
سالف الذكر فى وصف الربيع *

٢ — تشبيه شيئين منفردين بشيء واحد كقول المتنبى :

تشرق أعراضهم وأوجههم . كأنها فى نفوسهم شيم

ثم يقسم التشبيه أيضا باعتبار طرفيه تقسيما آخر من حيث
الحسية والمعنوية فالحسى ما يدرك هو أو ما دته باحدى الحواس
الخمس ، أما المعنوى فهو المدرك بالعقل لا بالحواس ، ويورد لذلك
ثلاثة أقسام بكتابه الجامع (١١) ، ويوردها أربعة فى المثل ، والاقسام
الأربعة هى :

١ — معنى بمعنى *

٢ — صورة بصورة *

٣ — معنى بصورة *

٤ — صورة بمعنى *

ويقصد بالمعنى هو ذلك الشيء المدرك بالعقل عكس الصورة ،
فانه يعنى بها المدرك الحسى وجاء عليه بالامثلة :

ففى تشبيه المعنى بالمعنى ضرب مثلا لذلك بقوله : زيد كالاسد

وان كنت أعتقد أن ظاهر هذا المثل يوحي بأنه تشبيه صورة بصورة لان زيدا مرئى ، الأسد كذلك ، وهناك وجه بعيد ربما ذهب اليه ابن الأثير وهو أنه أراد أن يشبه شجاعة زيد ، بشجاعة الأسد وهذا بعيد (٢٢) •

— وتشبيهه صورة بصورة كقوله تعالى : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) •

— وأما تشبيهه معنى بصورة كقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) •

فمثل لما يدرك بالعقل وهو الأعمال بما يدر بالحس وهو السراب

— وآخر الأقسام وهو تشبيه صورة بمعنى ومثل له بقول أبى تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصباية بالحب المغم

فشبهه فتكه بالمال وبأعدائه ، بفتك الحب بالصباية ، فالأولى صورة حسية مرئية عكس الثانية فهي معنوية عقلية ، ولذا تراه علق على ذلك بقوله (وهذا القسم من ألطف الأقسام الأربعة ، لأنه نقل صورة الى غير صورة) (٢٣) •

وهذا يجعل السامع بدون شك يتخيل المعنى ، وإثبات هذا المعنى فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، بالإضافة الى جانب

(٢٢) المثل السائر ج ١ ص ٣٩٨ •

(٢٣) الجامع الكبير ص ٩١ •

المبالغة والوضوح ، والايجاز .

أما من حيث الاداة فانه تكلم عن التشبيه مثبت الاداة كما تقدم في الأمثلة سالفه الذكر ، وتكلم أيضا عن التشبيه مضمرة الاداة ، مضمرة وجه الشبه أيضا ، غير أنه وان لم يذكر اضمارة وجه الشبه صراحه لكن ذلك موجود في الامثلة التي جاء بها ، فعندما تكلم عن حد التشبيه فقال (ويكون بغير أدواته ، وهو أن يجعل الكلام خلوا منها صالحا لتقديرها فيه ، واذا جاء التشبيه بغير أدواته كان أبلغ وأوجز) (٢٤) ويضرب لذلك مثلا : «زيد أسد» اذ تقدير الكلام زيد كأنه الأسد ، فحذف الاداة وكذا وجه الشبه ، فصار المشبه هو نفسه المشبه به فأخذ كل ما للأسد من شجاعة وقوة وهيبة الى غير ذلك — دون الحيوانية طبعاً — وبذا صار هذا اللون من ألوان التشبيه أبلغ وأشد موقعا بالنفس وأوجز .

وأثناء كلامه عن هذا اللون من التشبيه تناول تشبيه التمثيل وان لم يعرفه ، وكما هو معروف عند البلاغيين فان تشبيه التمثيل ما كان وجهه وصف منتزع من متعدد كقول بشار بن برد :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا . . . وأسيفنا ليل تهاوى كواكب

وعلى كان فان ابن الأثير اثناء تقسيمه التشبيه مضمرة الاداة قسمة الى أقسام منها تشبيه المفرد بالمفرد ، أو المفرد بالمركب ، كما مر

سلفا ، لكنه أتى بأقسام ثلاثة فقال (والقسم الثالث لا يرد الا فى تشبيه مركب بمركب ، والقسم الرابع والخامس لا يردان الا فى تشبيه مركب بمركب) وقد مثل لهذه الاقسام أمثلة تدل على ما ذهبنا اليه فمن تلك الامثلة قول الرسول ﷺ (وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم الا حصاد السنتهم) •

أو قول الفرزدق فى هجاء جرير :

ماضر تغلب وائل اهجوتهـا : : ام يأت حيث تناطح البحران

(فشبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله فى مجمع البحرين ، فكما أن البول فى مجمع البحرين لا يؤثر شيئا فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئا) (٢٥) • فاذا ما طبقنا تعريف البلاغيين لتشبيه التمثيل وجدناه يصدق على هذه الامثلة فان وجه الشبه فى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام وببيت الفرزدق منقطع من متعدد سواء فى المشبه أو المشبه به ، وان كان قد خلط بين التشبيه مضمرة الاداة ، وبين الاستعارة أحيانا على نحو ما سوف نوضح فى درسنا للاستعارة عنده • وأثناء كلامه عن التشبيه المضمرة الاداة ينتبه الى لون من التشبيه قد يخفى على البعض الا وهو نوع من التشبيه ينتج من المصدر المضاف وهو أحد ألوان التشبيه البليغ أيضا لانه جاء خاليا من الاداة ووجه الشبه وضرب له مثلا : قدم اقدام الاسد،

(٢٥) المثل السائر ج١ ص ٣٩١ •

وفاض فيض البحر ، والتقدير أقدم كإقدام الأسد ، وفاض كفيض البحر ، أو كقول أبي نواس فى وصف الخمر :

وإذا ما مزجوها . وثبت وثب الجراد

وإذا ما شربوها . أخذت أخذ الرقاد

إذا التقدير وثبت كوثب الجراد ، وأخذت كأخذ الرقاد وهذا من أفضل أنواع التشبيه وأحسنها ولذا يقول عنه ابن الأثير (وهو أحسن ما استعمل فى باب التشبيه) (٢٦) •

وآخر الألوان التى أوردتها لأقسام التشبيه ما عرف لدى البلاغيين بالتشبيه المقلوب أو المنعكس ، وهو ما يرجع فيه وجه الشبه الى المشبه به ، وذلك عندما يراد تشبيه الزائد بالناقص ، ويلحق الأصل بالفرع بقصد المبالغة ، وهو جار على خلاف العادة فى التشبيه ، ولذا يفضل غيره ، وقد عرفه ابن الأثير بقوله (واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى « غلبة الفروع على الأصول » وهو ضرب من الكلام ظريف ، ولا تكاد تجد شيئا منه الا والغرض به المبالغة) (٢٧) •

وسواء أكانت التسمية المقلوب أو المنعكس أو غلبة الفروع على الأصول فان هذا التشبيه جار على خلاف العادة فى التشبيه حيث اننا فى التشبيه نشبه الشيء بما هو أحسن أو اعظم أو أظهر أو

(٢٦) المثل السائر ج ١ ص ٣٩٥ •

(٢٧) الجامع الكبير ص ٩٧ •

أشهر منه بهدف الايضاح أو المبالغة أما فى هذا النوع (فيجعل
المشبه به مشبها والمشبه مشبها به) (٢٨) •

وذلك مثل قول ذى الرمة :

ورمل كاوراك العذارى قطعتـه .: اذا البستـه المظلمات الخنادس

فالعادة أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الرمل لا العكس ، لكن
ذا الرمة عكس فتشبيهه كثبان الانقاء بأعجاز النساء بقصد المبالغة •

ومنه أيضا قول البحتري :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها .: وللقضيب نصيب من تثنيتها

فالعرف قد جرى بأن تشبه الطلعة بالبدر ، والقـد بالقضيب
لا العكس كما فعل البحتري ، بل جعلها الأصل فى الاشياء التى
أخذها منها البدر والقضيب ولعلك تلاحظ المبالغة التى تطل
برأسها من لفظتى شىء ونصيب •

كما تناول الحسن والرديء من التشبيه فعرف التشبيه الرديء
بأنه الذى (يكون بين المشبه ، والمشبه به تباين) وبعد (٢٩) ، وقد
كان العربى يمدح بأنه اذا شبه قارب ، من ذلك ما مدح به امرئ
القيس ، ولذا عيب من باعد بين المشبه والمشبه به كقول الشاعر :

ملا حاجبيك الشعر حتى كانه .: ظباء جرت منها سنيح وبارح

(٢٨) المثل السائر ج١ ص ٤٢١ ويسميه أيضا ابن الاثير بتشبيه
الطرد والعكس •

(٢٩) الجامع الكبير ص ٩٦ والمثل ج١ ص ٤١٧ •

(٣١) المثل السائر ج١ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ •

فشبهه شجرات بيضاء فى حاجبيه بالطباء السانحة والبارحة
وفرق بعيد بين هذه الشعيرات ، وبين الأطباء •

أما الحسن منه ما قارب فيه المتكلم بين المشبه والمشبه به ،
أو أن يمثل الأستر بالآظهر ، أو غير المعتاد المعروف أو تمثيل الشيء
بما هو أعظم منه ، كل ذلك من أجل بيان المقصود وإيضاح المعنى
المراد أو بهدف المبالغة أو التحسين والترتين ، و هو التقبيح والتنفير
ومثلوا لهذا بقول ابن الرومى فى مدح العسل وذمه :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه . . . وان تعجب قلت ذاقى الزنابير

ولعل هذا من بلاغة التشبيه • وأغراضه وهى كثيرة متنوعة
فأحيانا يكون فى معرض المدح ، وأخرى فى معرض الذم ، وأحيانا
للإبانة والإيضاح أو المبالغة •

وبعد فهذا هو التشبيه ، وهذه دراسة ابن الأثير له وهذا ما
قدمناه عنه وهو فى كثير من جوانبه يأتى وفق ما قدمه علماء
البلاغة لهذا اللون من ألوان البيان بأقسامه وأنواعه وأمثله ،
وان كان يؤخذ عليه أنه أتى بألوان من الاستعارة واعتبرها من
التشبيه مضمرا الاداة وذلك مثل قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ
منه النهار) وقوله تعالى (واشتغل الرأس شيئا) (٣٠) • وهو
ما سوف نعرض له عند الكلام عن الاستعارة •

الاستعارة ودراسة

ابن الأثير لها

درس ابن الأثير الاستعارة ، كما درس التشبيه ، باعتبارها من ألوان المجاز غير أن دراسة ابن الأثير لها دراسة مسطحة لا عمق فيها مثلما فعل غيره من البلاغيين الذين غاصوا في أعماقها وسبروا أغوارها واستخرجوا دررها ، أما هو فليس له إلا التفريق بينها وبين التشبيه مضمرة الاداة ، وإن خلط أيضا خلطا فاحشا بينهما ، وما عده من التشبيه مضمرة الاداة ، في كتابه المثل السائر ، عاد واعترف بأنه من أحسن الاستعارات في كتابه الجامع على النحو الذي سوف نعرض له . ويحدد خطته في الدراسة ، فإنه سوف يتناول (ما يختص بالاستعارة التي هي جزء من المجاز ، ولم سميت بهذا الاسم ، وكشف عن حقيقتها ، وميزتها عن التشبيه المضمرة الاداة) (٣١) .

والاستعارة عند البلاغيين هي استخدام اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلي ، كقولنا : رأيت أسدا يخطب في الناس ، فقد استعرنا كلمة أسد لتدل على رجل بينه وبين الأسد صلة ، أو صفة اشتركا فيها سويا وهي الشجاعة وجاءت كلمة يخطب في الناس لتمنع ارادة لفظ الأسد على حقيقته فتعين أن يكون رجلا

(٣١) المثل السائر ج١ ص ٣٥٥ ، ص ٣٥٦ .

موصوفا بالشجاعة كالأسد ، وهى قائمة أساسا على التشبيه إلا
أننا نحذف التشبيه ، والاداة ، ووجه التشبه ، وبذا تسمى الاستعارة
بالتشبيه الناقص ، كما تفترق عن المجاز المرسل من ناحية العلاقة
فهى فى الاستعارة مقيدة بالمشابهة أما فى المجاز المرسل فلم تقيد
بهذا القيد ، لتتنوع العلاقات •

وقد عرف ابن الأثير الاستعارة ، فقال (ان الاستعارة جم
بين شيئين بمعنى مشترك بينهما ، يكسب بيان أحدهما بالآخر) (٣٢) .
ويعرفها أيضا فى كتابه المثل فيقول عنها (حد الاستعارة نقل المعنى
من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما • مع ذكر المنقول اليه) (٣٣) .
كما تكلم عن القرينة ورأى أنها تفهم من فحوى اللفظ ، أى من سياق
الكلام أو من اللفظة الموجودة المانعة •

أما فى كتابه المفتاح المنشأ فلم يعفها واكتفى بأن ذلك عليه
بأشياء تتم عن فهمه لها فقال (وأما الاستعارة ، فهو أن تقول خرت
الجبال الرجاء واستغنى النهار بشعاع البيض عن الشمس وجرى
نهر الصياح حتى ملأ الأفق ، ولقد أحسن ابن الطثرية فى قوله :
ولما قضينا من منى كل حاجة . . . ومسح بالاركان من هو ما سمع
وشدت على دهم المهادى رحالنا . . . ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا باطرف الاحاديث بيننا . . . وسالت بأعناق المطى الاباطح (٣٤)

(٣٢) الجامع الكبير ص ٨٣ .

(٣٣) المثل ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣٤) المفتاح المنشأ ص ٣١١ .

وفهمه وتعريفه للاستعارة مقبولان خاصة تعريفه لهما لأنه قريب من واقع الاستعارة خاصة بعدما اشترط القرينة المانعة ، وقد حدد أركان الاستعارة فاشترط أنه لا بد للاستعارة من ثلاثة أشياء :

١ — المستعار •

٢ — المستعار منه •

٣ — المستعار له •

فاللفظ المستعار هو الذى قد نقل من أصل الى فرع بهدف التوضيح والابانة ، أما الطرفان أى المستعار منه والمستعار له فهما لفظان حمل أحدهما على الآخر فى معنى من المعانى ، وهذا المعنى المأخوذ أو المحمول حقيقى ومجازى فى وقت واحد فهو حقيقى بالنسبة للمأخوذ منه ، مجازى للمحموله اليه ، فمثلا قوله تعالى :

« واشتعل الرأسى شيبا » فالاشتعال هو المستعار ، وهو خاص بالنار فنقل الى الشيب بهدف الابانة ، فالاشتعال للنار حقيقة ، وللشيب مجاز ، وبذا تصير النار مستعارا منه ، والشيب مستعار له ، ومن ثم توجب أن تكون ثمة مناسبة بين المستعار منه ، والمستعار له ، اذ لو افتقدت هذه المناسبة لعسر فهمها (ان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، فانها لا تجيء الا ملائمة مناسبة ، ولا يوجد فيها مباينة ، ولا تباعد لأنها لا تذكر مطوية الا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، ولو طويت، ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها

ولم يبين المراد منها (٣٥) • ولما كانت الاستعارة قائمة على التشبيه فانه آلى على نفسه الا أن يبين الفرق بينها وبين التشبيه المضمرة الاداة ، غير أنه يتمحل فى هذا التفريق ، فيقول فى المثل ان الفرق بين التشبيه مضمرة الاداة ، والاستعارة (أن التشبيه المضمرة الاداة يحسن اظهار اداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن ، وعلى هذا فان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول اليه ، ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول) (٣٦) •

ومن حيث الطى فنعم ، أما من حيث الاداة فلا لأنه نسي أو تناسى القرينة المانعة من ارادة المعنى الاصلى للكلام ، فعندما مثلنا بالمثل السابق : رأينا أسدا يخطب فى الناس ، فان لفظة يخطب معنت من ارادة الاسد على حقيقته ، وتحقق أن يكون هذا استعارة لاتشبيها •

ولسنا أيضا نوافقه فى ادعائه بأن قول الشاعر :

فرعاء ان نهضت لحاجتها • عجل القضيب وابطأ الدعص

تشبيه ، أى عجل قد كالقضيب : وأبطأ ردف كالدعص ، ويراه من قبيل قولنا زيد أسد ، فكلاهما تشبيه مضمرة الأداة بدليل

(٣٥) المثل السائر ج ١ ص ٣٨٣ •

(٣٦) المثل السائر ج ١ ص ٣٥٧ •

استحسان دخول الاداة عليهما دون ذلك أو ذهاب لفصاحة الكلام ، ونحن لو وافقنا معه ورددنا الاداة في المثل الثاني لجاز لأنه في الأصل تشبيه حذف أداته ووجه شبهه فنقول زيد كالاسد دون أن نحذف أو نضيف شيئاً بعد ذلك ، فلو طبقنا هذا على كلامه لاحتجنا الى المشبه مرة ثانية وهو القدر والرديف فيستحيل الكلام الى تشبيهه ويبعد عن الاستعارة ، وهذا مما يؤخذ على ابن الاثير (٣٧) فهذا من التشبيه وليس من الاستعارة في شيء وليس هذا هو التخليط الوحيد في الاستعارة ، فان ما عدا من التشبيه المضمحل الاداة عنوة وقهراً في كتابه المثل وسخف به الرأي الآخر لأنه كان يناقش لأجل المناقشة فقط ، عاد واعتبره من أجود الاستعارات في كتابه الجامع •

فيقول : ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى ومن هذا الاسلوب قوله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » وهذا تشبيه في غاية الحسن ، وكذلك ورد قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » (فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمثبه به) (٣٨) •

ويقول أيضا : (ومما أورده ابن سنان في كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس في صفة الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه زبر وأردف أعجاز وناء بكل كل

(٣٧) انظر المثل ج١ ص ٣٥٧ : ص ٣٦٠ •
(٣٨) انظر المثل السائر ج١ ص ٤٠٠ وقد درسه ضمن باب التشبيه المضمحل الاداة •

وهذا البيت من التشبيه المضرر الأداة (٣٩) .

وكل هذه الأمثلة للاستعارة وليست من التشبيه فى شىء ،
والدليل على ذلك بالاضافة الى دراستنا المتقدمة فى التشبيه ،
اعترافه هو نفسه فى كتابه الجامع الكبير فقال عن قوله تعالى :
(واشتعل الرأس شيبا) ، (فهذا مستعار ، ومستعار منه ومستعار
له ، فالمستعار هو الاشتعال ... وأما المستعار منه فهو النار
والاشتعال لها حقيقة ، وأما المستعار له فهو الشيب والاشتعال
مجاز) (٤٠) .

وعن قوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) فبعد
أن أجرى الاستعارة علق قائلا (فانظر أيها المتأمل لهذه الاستعارة
شدة التناسب الذى بينها وبين ما استعيرت له ، ومثابقتها اياه ،
فانها من الاستعارات التى لا أمد فوقها فى الحسن) (٤١) . أما
بيت امرئ القيس فبعد أن أورد رأى الأمدى ، وابن سنان الخفاجى ،
وأكد أنها استعارة علق قائلا (وذلك من الاستعارات المناسبة التى
لا أمد فوقها فأعرفها) (٤٢) . وكما خلط بين التشبيه المضرر الأداة
والاستعارة ، خلط أيضا بين القناية والاستعارة ، فعد أشياء من
الاستعارة وهى من صلب الكناية من ذلك على سبيل المثال : قول

(٣٩) انظر المثل السائر ج ١ ص ٣٨٤ .
(٤٠) الجامع الكبير ص ٨٤ .
(٤١) الجامع الكبير ص ٨٤ .
(٤٢) الجامع الكبير ص ٨٨ .

الرسول ﷺ (« أما انكم لو أكثرتم من ذكرها ذم اللذات لشغلكم عما أرى ») وهاضم اللذات أراد به الموت ، وهو مطوى الذكر (٤٣) فهذه كناية عن موصوف وليست استعارة كما ذهب .

كما أورد للاستعارة أيضا قول الشاعر مسكين الدارمي :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته . : ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه ان الحديث من القرى . : وتعلم نفسى انه سوف يهجع
وعلق عليه قائلا (فالغزال المقنع هنا استعارة للمرأة
الحسنة) (٤٤) .

وهذا أيضا ليس من الاستعارة بل هو كناية عن موصوف وهو المرأة الحسنة . ولكن ليس معنى هذا أنه لم يقدم شيئا عن الاستعارة ، بل كيفية ما قدم بجانب هذه الأمثلة العديدة للاستعارة (٤٥) سواء من أقواله أو من أقوال الآخرين بالاضافة الى تقسيمه الاستعارة الى جيدة مناسبة ، وغير مناسبة (٤٦) وقد اقام الجيدة وغير الجيدة منها على القرب أو التباعد بين المستعار منه والمستعار له ، وهذا يدل على ذوق وبصر بالاستعارة ، من ذلك ما أورده فى كتابه المفتاح المنشأ فقد أورد فيه نوعا عرف باسم المماثلة ، وقال عنه انه

(٤٣) المثل السائر ج ١ ص ٣٧٥ .

(٤٤) لمثل السائر ج ١ ص ٣٧٦ .

(٤٥) المثل السائر ج ١ ص ٣٧٤ وما بعدها ، والجامع ص ٨٢ وما بعدها

(٤٦) الجامع الكبير ص ٨٤ ، ص ٨٨ .

ضرب من الاستعارة لانه فعلا قائم عليها فيستعار فيه شيء لشيء آخر كقول زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فانه . : مطيع العوالى ركبت كل لهزم (٤٧)

فالزجاج لا تعصى ، والرماح لا تطاع ، وانما يفعل ذلك مع حاملها . ويرى تقديره أن من لم يرض بأحكام الصلح رضى بأحكام الحرب والذي يتحكم هو الانسان المحارب لا الحرب نفسها .

الكناية والتعريض

من المعروف أن الكناية هي استخدام لفظ ويراد به لازم معناه الحقيقى لقرينة غير مانعة من ارادة المعنى الحقيقى مع المعنى المراد، وذلك مثل قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه) نقول ان فى هذه الآية كناية فعض اليدين لم يقصد على حقيقته وهو العض ، وانما اريد ما يلزم العض ، وهو الندم على فوات محبوب أو مأمول غير أن عض اليدين على الحقيقة ليس ثمة ما يمنع من جواز ارادته أيضا اذا المعروف ان الانسان النادم غالبا ما يعض على يديه أسى وحزنا ، وهذا معنى قولهم لقرينة غير مانعة من ارادة المعنى الحقيقى مع المعنى المراد ، وبهذا تختلف الكناية عن الاستعارة والمجاز المرسل اذ القرينة فيهما مانعة من ارادة المعنى الحقيقى .

ويقسم البلاغيون الكناية الى ثلاثة أقسام باعتبار المكنى عنه •

(أ) كناية صفة : وفيها يصرح المتكلم بالموصوف وصفة ليست هي المرادة بل تستلزم الصفة المرادة مثل : محمد كثير الرماد رفيع العماد •

(ب) كناية عن موصوف : ويصرح فيها بالصفة التي تختص بالموصوف الذي لا يذكر مثل قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » •

(ج) كناية عن نسبة : فتذكر نسبة غير مرادة لكنها تستلزم النسبة المرادة مثل قولنا : المجد يمشى فى ركاب على •

والهدف من استعمال الكناية هو الوقوف على الحقيقة المدعومة بالبرهان ، أو إبراز المعنى فى صورة حسية ، أو أداء المعنى بالفاظ لا يمجها الذوق ولا ينفر منها السمع •

هذه صورة موجزة للكناية عند البلاغيين ، والسؤال الآن كيف درسها ابن الاثير ؟ انه ن يقرأ كتب الرجل سوف يراه درسها كما درس الاستعارة قبلها بصورة بسيطة لا عمق فيها ولا غور ، وكأننا به استفرغ جعبته واستنفذ طاقته فى فن التشبيه ، نقول درسها ، ولكنه لم يقسم ولم يفصل ، وان قسم تقسيمات بمسميات بعيدة عما تعارف عليه البلاغيون • غير ان حدها عنده يدل على فهم بها ، ومما يحمد له تفريقه بين الكناية والتعريض ، اذ المعروف الشائع أن التعريض غرض من أغراضها ، لكنه فرق بينهما تفريقا

وجيها كما سوف نعرض وقد عرف ابن الأثير الكناية فقال : (انها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز) (٤٨) ، أو هي بإيجاز : أن يذكر المتكلم شيئا ، ويقصد به سواء (٤٩) وهذا دليل على أن المستخدم للكناية عندما يتكلم فإن كلامه يدل على ما تكلم به ، وعلى ما أراد من غيره فهو قد استخدم الالفاظ على الحقيقة ، لكنه يريد ما تحتها من معان مجازية ، وهذه المعانى المجازية هي التى وردت فى تعريف البلاغيين وعرفت عندهم بلازم المعنى وليس هناك مانع من ارادة الحقيقة والمجاز ومن ثم يقول ابن الأثير (وكل موضع ترد فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانباً حقيقة ومجاز ، ويجوز حمله على كليهما معا) • وبهذا تتفوق الكناية عن التشبيه من ناحية ، وعن الاستعارة من ناحية أخرى • فأما وجه الفرق بين الكناية والتشبيه ، أن الكناية يجوز أن يقصد بها الحقيقة ، كما يقصد بها المجاز ، فهي تحمل على الجانبين معا ، أما التشبيه ، فإنه لا يجوز حمله الا على جانب المجاز خاصة • اذا لو أردنا المعنى الحقيقى مع المعنى المجازى لفسد المعنى واستحال ، فعند ما نشبه زيدا بالاسد ونقول زيد أسد ، فأننا لا نقصد من وراء هذا التشبيه الا المعنى المجازى من حيث الشبه بينهما فى القوة والشجاعة أو غير ذلك ، أما فى الناحية الحقيقية فلا لأننا (لو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى لان زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الاربع والذنب والوبر والأنياب والمخالب) (٥٠) •

(٤٨) المثل السائر ج٢ ص ١٩٤ وانظر الجامع الكبير ص ١٥٧ •

(٤٩) المفتاح للنشا ص ٣١٢ •

(٥٠) المثل السائر ج٢ ص ١٩٣ •

وثمة فروق بينها وبين الاستعارة أيضا ، فالكناية جزء من الاستعارة لأنها تأتي على حكمها اذ الاستعارة لا بد أن يطوى فيها ذكر المستعار له ، وكذا الكناية لا بد أن يطوى ذكر المكنى عنه ، فتكون النسبة بينهما نسبة خاص الى عام فكل كناية استعارة لوجود جانب المجاز وليس كل استعارة كناية لوجود جانب الحقيقة •

كما أن الاستعارة لفظها صريح ، والكناية بخلاف ذلك لأنها عدول عن ظاهر اللفظ • هذا بالاضافة الى جانب الحقيقة والمجاز فى الكناية ، فتكون الكناية بجانب المجاز جزء من الاستعارة والاستعارة جزء من المجاز (فتكون نسبة الكناية الى المجاز نسبة جزء الجزء ، وخاص الخاص) (٥١) •

وبعد هذا العرض نقول انه قسم الكناية الى أقسام ، لكنها غير أقسام البلاغيين فيقسمها الى ضربين : أحدهما يحسن استعماله والآخر ضده أى يقبح استعماله ، وقسم ما يحسن استعماله الى أربعة أقسام (٥٢) ، كما قسم الأرداف الى خمسة أقسام

(٥١) المثل السائر ج٢ ص ١٩٧ •

(٥٢) هذا التقسيم ورد فى الجامع الكبير ص ١٥٧ أما فى كتابة المثل السائر فقد قسمها الى ثلاثة أقسام : تمثيل واراداف ومجاورة والرابع من كتابه الجامع وهو ما ليس بتمثيل ، ولا اراداف ولا مجاورة كما أن الاراداف يكون عنده أحيانا ، كناية عن صنف ، وأخرى عن موصوف •

الاول : التمثيل : وهو أن ترد الإشارة الى معنى ، فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة اليه والعبارة عنه ، مثل فلان نقى الثوب ، أى منزه عن العيوب ، أو كقوله تعالى : (أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) فان الأول كناية عن صفة هى الطهر ، والثانية عن الغيبة والنميمة ، فان الكناية فى هذه الآية على طريق التمثيل كما يقول ابن الاثير (فانظر أيها المتأمل لهذا التمثيل كيف مطابقتة لما مثل به تجده من أبلغ التمثيلات وأندرها مثالا فتمزيق العرض ، مثل أكل الانسان لحم من يغتابه ، لان ذلك تمزيق على الحقيقة ، وجعل بمنزلة لحم الاخ لأجل المبالغة فى الكراهة . والميت لا متنازع الاحساس به واتصال ما هو مستكره بالمحبة لما فى طبع الأنفس من الشهوة للغيبة والميل اليها) (٥٣)

الثانى الاردا ف : وهو ان ترد الإشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك من لوازم — رادفا — المعنى الذى أريدت الإشارة اليه على الحقيقة ، وهذا بخلاف القسم السابق فى قولنا فلان نقى الثوب أى منزه عن العيوب ، لان نقاء الثوب على الحقيقة لا يلزم النزاهة من العيوب بخلاف كناية الاردا ف عندما نقول محمد طويل النجاد ، فان طول النجاد هذا لابد أن يكون حقيقة لمعنى آخر وهو طول القامة .

وأقسام الاردا ف خمسة وهى :

١ — فعل المبادهة : ويكنى به عن عدم التثبيت قبل اصدار الحكم كناية عن سفاهة الرأى كما يذهب ويمثل له بقوله تعالى : « ومن أظلم من افترى على الله كذبا وكذب بالحق لما جاءه » فقوله تعالى : « لما جاءه » كناية عن سفاهة رأيه أى أنه لم يتوقف تكذيبه وقت ما سمعه ، ولم يتثبت كما يتثبت أو لوا الرأى والتدبر حتى يتضح الصدق من الكذب (٥٣) •

٢ — النوع الثانى من الاردا ف وهو باب « مثل » وكانت العرب تأتى بهذه الصيغة فى هذا الموضع توكيدا للكلام وتثبيتا لأمره (يقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبيح « مثلى لا يفعل هذا » أى أنا لا أفعله فنفى ذلك عن مثله وهو يريد نفيه عن نفسه قصدا للمبالغة فسلك به طريق الكناية ، لانه اذا نفاه عن يماثله أو يشابهه فقد نفاه عنه لا محالة) (٥٤) •

٣ — وهو ما يأتى فى جواب الشرط كقوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث » فكنى بقوله (فهذا يوم البعث) عن بطلان كذبهم وانكارهم لذلك اليوم (وذلك ارداف له ، ونظيرة قولك تنكر حضور زيد فيها هو زيد ، أى فأنت كاذب ، وهذا من دقائق الكناية فأعرفه) (٥٥) •

(٥٣) الجامع الكبير ص ١٦٠
(٥٤) الجامع الكبير ص ١٦١
(٥٥) الجامع الكبير ص ١٦٢

٤ — وهو الاستثناء غير الموجب كقوله تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع) والضريع لا يأكل أصلا ، فكفى به عن عدم الاطعام ، فذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام •

٥ — والنوع الخامس هذا ليس فيه شيء مما تقدم ، من الاشياء الاربعة المذكورة ويمثل له بقوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » (والمعنى المراد من هذا الكلام : أنك أخطأت ، وبئسما فعلت ، وقوله أذنت لهم بيان لما كنى عنه بالعفو أى مالك أذنت لهم وهلا استأنيت ؟ فذكر العفو دليل على الذنب ورادف له ، وان لم يذكره) (٥٦) •

والقسم الثالث من الكناية هو المجاورة : وهو أن يذكر فى الكلام شيء ، فيترك ذكر هذا الشيء الى ما جاوره ، ويقتصر عليه اكتفاء بدلالته على المعنى المستهدف •

كقول عنتره :

وشككت بالرمح الاصم ثيابه . . . ليس الكريم على القنا بمحرم

فيعلق على هذا البيت قائلا (أراد بالثياب هاهنا نفسه ، لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به ، فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب وفى ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصناعة) (٥٧) •

(٥٦) الجامع الكبير ص ١٦٣ •

الجامع الكبير ص ١٦٤ وانظر المثل السائر ص ٢٠٠ ج ٢ •

أما القسم الرابع فقد عرفه بأنه ما ليس بتمثيل ولا إرداف ولا مجاورة ، ويضرب له مثلا قوله تعالى (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) فكفى بذلك عن النساء لأنهن ينشأن في الزينة والنعمة ، أما في الخصومة والمجادلة والمحااجة فانهن لا يستطعن المحااجة والخصومة •

ومنه قول أبي نواس :

نقول التي خف من بيتها محملى . . . عزيز علينا أن نراك تسير

ويعلق على ذلك (ألا ترى الى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله « التي من بيتها خف محملى » فانه من ألفتها مذهباً) (٥٨) •

وغريب حقا هذه القسمة وتلك الأقسام من ابن الأثير الذي نسي أنه ناقشها مناقشة مستفيضة في كتابيه المثل والجامع إلا أنه بعد صفحات قليلة — وبعد هذا الحماس في المناقشة — فإذ يعترض على هذا التقسيم في كتابه المثل السائر فقط فيقول (وهذا التقسيم غير صحيح لأن من شروط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل) فيعترض على التمثيل ، ويرى أن قوة المناسبة بين الكناية والمكنى عنه أفضل وخاصة إذا كان في الألفاظ المركبة ، أما إذا كان في الألفاظ المفردة فإن المناسبة والمثابفة تكون ضعيفة ولذا عاب هذا النوع من الكناية قائلا : (وهذا الذي ذكر من أنه من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سائق ولا وارد ، بل

الكناية كلها هي ذاك (٥٩) ، وبرغم ما فى هذا الرفض من ابهام
الا أننا أيضا لا نستسيغ منه هذا التقسيم الذى رفضه فى المثل ،
وأيده فى الجامع ، بل تحمس وناقش ومثل ووصف بالابداع والحسن
على عادته فى التخييط بين الاشياء لاننا لو تدبرنا الأقسام الأربعة
لوجدناها لا تعدو الأقسام الثلاثة التى قسمها علماء الكناية لها ،
فبدراسة تحليلية لأمثله التى أوردنا نستطيع القول بأن القسمين
الاول والثانى ، أى التمثيل والارداف هما كناية عن صفة •

والقسم الثالث : قريب جدا من الكناية عن نسبة ، أما القسم
الرابع فهو كناية عن موصوف ، وان كان قد خلط أيضا بين هذه
الأقسام الثلاثة فتداخل بعضها مع بعض ، لكن مما يحمده انه
تنبه الى الكناية الحسنه ومثل لها ، وبالكناية الرديئة وحللها ومثلها،
مثله فى ذلك مثل باقى البلاغيين (٦٠) •

وكما درس الكناية غانه أيضا درس التعريض وعرفه بانه
(اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى
ولا المجازى) (٦١) • أى أن المقصود يفهم من سياق الكارم وعرضه
فنجد المتكلم يعرض فى طلب شئ ، ويدل على طلبه من غير ذكر
المطلوب (٦١) ، ومن ثم فهو غير معتمد لا على الحقيقة ولا على المجاز،
وذلك كقول فقير أمام عنى ، والله انى لمحتاج وليس عندى شئ،

(٥٩) المثل ص ٢٠٠ ج ٢ •

(٦٠) المثل السائر ج ٢ ص ٢٠٨ وما بعدها وانظر الجامع الكبير ص ١٥٧
وما بعدها •

(٦١) المثل السائر ج ٢ ص ١٩١ والجامع ص ١٥٧ •

(٦٢) المفتاح المنشأ ص ٣١٣ •

وأنا عريان أتأذى من البرد فهو هنا يعرض حالته ويعرض بها ،
وقد فهم ما يقصده من سياق الكلام وهذا بخلاف « يوم يعرض الظالم
على يديه » الموضوع كناية عن الندم كما وضحنا سلفا ، ولذا نراه
يفرق بين الكناية والتعريض •

فالتعريض أخفى من الكناية ، لان دلالة الكناية لفظية وضعية
من جهة المجاز ، عكس دلالة التعريض لانها من جهة المفهوم لا
بالوضع الحقيقي ولا المجازي •

كما أن التعريض سمي بهذا الاسم لان المعنى المقصود يفهم
فيه من عرضه ، عكس الكناية فهي مشتقة من الستر • فيقال كُتِيت
الشيء اذا سترته ، وأجرى هذا الحكم فى الالفاظ التى يستر فيها
المجاز بالحقيقة فتكون دلالة على السائر والمستور معا (٦٣) •

كما أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا ، فتأتى على
هذا وعلى ذاك بخلاف التعريض فانه مختص باللفظ المركب ولا يأتى
فى اللفظ المفرد أبدا ، ويفهم من جهة التلويح والاشارة ، وذلك
لا يستقل به اللفظ المفرد فيحتاج فى الدلالة عليه الى اللفظة المركب •
وذلك كقول الرجل العزب لامرأة عزباء : انك لخلية وانى لعزب •
ويضرب بعد ذلك مجموعة من الأمثلة (٦٤) سواء من القرآن الكريم
أو الاحاديث النبوية الشريفة أو مما استعمله هو فى رسائله ، ولكن
يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق فنورد مثالا له ونورد أيضا كيفية
تحليله لهذا المثال •

(٦٣) المثل السائر ج٢ ص ١٩٥ •
(٦٤) المثل ج١ ص ٢١٢ : ص ٢١٥ والجامع ص ١٦٦ وما بعدها •

يقول : (فمما جاء منه — أى من التعريض — قوله تعالى :
« قالوا أأننت فعلت هذا بالهتتا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم
هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » وغرض ابراهيم صلوات الله
عليه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم ، لانه قال « فاسألوهم ان
كانوا ينطقون » وذلك على سبيل الاستهزاء ، وهذا من رموز الكلام ،
والقول فيه أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يردبه نسبة الفعل
الصادر عنه الى الصنم ، وانما قصد تقريره لنفسه ، واثباته على
اسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم والاستهزاء
بهم ، وقد يقال فى هذا غير ما أشرت اليه وهو أن كبير الاصنام
غضب أن تعبد معه هذه الاصنام الصغار فكسرها ، وغرض ابراهيم
عليه السلام من ذاك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هودونه
فان من دونه مخلوق من مخلوقاته ، فجعل احالة القول الى كبير
الاصنام مثالا لما أراد (٦٥) * وعلى هذا المنوال حل باقى الامثلة
التي أوردتها باستثناء بعض العبارات التي يزخرف بها كلامه من
مثل : وهذا من التعريضات اللطيفة أو من خفى التعريض وغامضه ،
أو هو من التعريض المعرب عن الأدب : أو من أحسن التعريضات
أو من بديع التعريض ، أو من مشكلات التعريض وما شابه ذلك (٦٦)
ولولا خشية الاطالة لاوردنا العديد من مثل هذه الامثلة وتحليلاتها ،
لكنها جميعا لا تخرج عن المثال سالف الذكر .

(٦٥) المثل السائر ج١ ص ٢١٢ ومابعدها .

(٦٦) الجامع الكبير ص ١٦٦ وما بعدها .

ثالثا : دراسات ابن الأثير

لفن البديع

رأينا فى الصفحات السابقة دراسة ابن الأثير لعلمى المعانى
والبيان ، والآآن سوف نعرض لدراسة ابن الأثير لثالث الثلاثة وهو
علم البديع •

ونود أن نقول اذا كان علم المعانى يبحث فى صميم المعنى
المراد ، من حيث مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وعلم البيان يبحث
أيضا فى صميم المعنى المستهدف عن طريق أدائه بأساليب مختلفة
واضحة بعد مراعاة شروط المعانى ، فان علم البديع يبحث فى
اخراج هذا المعنى فى صورة مدبجة جميلة ، ولذا سمي بالمحسنات
البديعية • ومن ثم ارتبطت العلوم الثلاثة ببعضها بعضا لان كل
منها يكمل الآخر ، ولذا فان الكلام اذا كان غير مطابق لمقتضى
حال السامع ، أو كان خفى الدلالة صار البديع كقلادة علقت فى
جيد خنزير •

ومن هنا فان تعريف البلاغيين لعلم البديع بعد ، لم يأت من
فراغ ، فعندما قالوا عن حد البديع : هو علم يعرف به وجوه تحسين
الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة (١)،
فقد اشترطوا فى تعريفه رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة ليتحرز
بذلك عما يكون داخلا فى البلاغة مما يتبين فى علوم المعانى والبيان
واللغة والنحو والصرف ، فسوف يدخل فى وجوه التحسين ما ليس
من المحسنات التابعة لبلاغة الكلام كخلوه من التنافر ، اذن فلا يجوز

أن يراد بوجوه التحسين ، المفهوم الشامل الأعم لها (بل تقول لا يخرج منها الا مطابقة مقتضى الحال والخلو عن التعقيد مطلقا بأن يجرى وضوح الدلالة أيضا على مفهومه المتبادر ، فيبقى الخلو عن التنافر بين الحروف أو الكلمات والخلو عن مخالفة القياس ، والخلو عن ضعف التأليف كلها مندرجة فيها مع أنها ليست من علم البديع ، وأما الخلو عن الغرابة فيمكن ادراجه في وضوح الدلالة (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن المحسنات البديعة تنقسم الى قسمين قسم راجع الى المعنى ، وآخر راجع الى اللفظ ، وهذا هو ما عليه علماء البلاغة .

اولا المحسنات المعنوية

وهي التي يرجع التحسين فيها الى المعنى ، وان كان بعضها لا يخو من تحسين اللفظ وذلك مثل .

الطباق والمقابلة

الطباق عند أهل البلاغة هو أن يجمع المتكلم في كلامه بين معنيين متقابلين في جملة واحدة ، وقد سموه بالمطابق أو المطابقة ، أو التضاد لما فيه من جمع بين متضادين ، غير أن ابن الأثير يرفض هذه التسمية ، فيدمج الطباق في المقابلة ويجعلها بابا واحدا ، ويعلل ذلك بأن المقابلة قد تكون بين الشيء وضده ، أو بين الشيء وما ليس بضده (٣) .

(٢) الايضاح شرح محمد عبد النعم خفاجي ج٦ ص ٤٥٤ الهامش .
(٣) المثل السائر ج٢ ص ٢٨٠ وقد عرف الطباق في المفتاح المنشأ لحديقة الانشا : بأنه الجمع في سجة أو سجتين بين ضدين أو أكثر انظر ص ٣١٠ .

وهذا التعريف قريب من تعريف المقابلة ، وهى الاثنيان بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقه ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ، فاذا كان الطباق بين الألفاظ المفردة فان المقابلة تكون بين الالفاظ المركبة ، فليس ثمة فروق جوهرية ، بالإضافة الى أن القاسم المشترك الأعظم بينهما هو التقابل بين صدر الكلام وعجزه والدليل على ذلك دراسته للطباق وتعريفه فى كتابه المفتاح المنشأ حيث قال عنه هو الجمع فى سجة أو سجتين بين ضدين أو أكثر ، ومثل له بقول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه . . . وقايض شرعنكم بشماليا

فقد جمع بين البسط والقبض ، والخير والشر (٤) .

ألا أن كلمة أكثر فى هذا التعريف أخرجت الطباق وجعلته فى حيز المقابلة التى هى الجمع بين أكثر من معنيين متوافقين ، وعلى هذا فالبيت يتمثل به للمقابلة التى درسها فى هذا الكتاب على أنها قسم قائم برأسه وعلى الرغم من ذلك فان كلامه عنها يقترب من كلامه على الطباق فقال عنها هو أنه تأتى فى سجة أو سجتين أن فلانا فيه ما يسر الصديق ، وفيه ما يسوء العدو ، وينبغى الأولياء ، ويفقر الأعداء ومثل له بقول النابعة الجعدى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه . . . على أن فيه ما يسوء الأعدايا (٥)

(٤) المفتاح المنشأ ص ٣١١ .

(٥) المفتاح المنشأ ص ٣١١ .

وهذا البيت يتساوى مع البيت الذى مثل له بالمطابق وعلى
هذا يكون الطباق عند ابن الاثير داخل فى حيز المقابلة فصار قسما
من أقسامها كما سوف نرى •

أقسام المقابلة عنده

تنقسم الى :

(أ) مقابلة الشئ بضده •

(ب) مقابلة الشئ بما ليس بضده •

(أ) مقابلة الشئ بضده ويقسمه أيضا الى :

١ — مقابلة فى اللفظ والمعنى ، وقد تكون هذه المقابلة بين
لفظين مفردين كما تكون بين الألفاظ المركبة ، وكما أسبق أن أشرت،
فانه أدمج بهذا الطباق فى المقابلة وجعلهما شيئا واحدا ، فأما مثال
اللفظ المفرد قوله ﷺ « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » •

أما الألفاظ المركبة ، وهى التى يتعدد فيها التقابل بين لفظين
أو أكثر وما يقابلهما ، كقوله تعالى (فليضحكوا قليلا ، وليبكوا
كثيرا) فتقابل بين الضحك والقلّة والبكاء والكثرة على الترتيب ،
كما مثل لمقابلة ثلاثة بثلاثة وأكثر من ذلك (٤) وهذه هى المقابلة
المعروفة من القسم الأول •

(٤) المثل السائر ج ٢ ص ٢٨٣ وما بعدها •
والجامع الكبير ص ٢١٣ •

٢ — المقابلة فى المعنى دون اللفظ ، وهى تختلف عن الاولى ،
التي تكون الالفاظ فيها واضحة غير محتاجة الى تأويل لكى يتوصل
عن طريقها الى المقابلة وقد مثل لذلك ابن الاثير بقول المقنع الكندى
من شعراء الحماسة :

لهم جل مالى ان تتابع لى غنى . . وان قل مالى لم اكفلهم رفدا

وقد قابل بين « تتابع لى غنى » و « قل مالى » وذلك عن
طريق تأويل التتابع ، بالكثرة ، فتكون المقابلة بين كثر مالى المؤولة
عن « تتابع لى غنى » وبين « قل مالى » فهذه مقابلة معنوية كما
يقول ابن الاثير (فاذا ترك المفرد من الالفاظ ، وتوصل الى مقابلة
بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، كقول
الشاعر « تتابع لى غنى » فى معنى كثر مالى ، وهذه مقابلة معنوية
لا لفظية) (٥) وبهذا ينهى قسمه الاول من المقابلة التى هى مقابلة
الشيء بضده .

**(ب) مقابلة الشيء بما ليس بضده وتنقسم أيضا عنده الى
قسمين :**

أحدهما أن لا يكون مثلا ، أى غير مماثل له .

والآخر أن يكون مثلا أى مماثلا له فى اللفظ .

والضرب الاول وهو أن لا يكون مثلا وهو ما يعرف فى الملحق
بالطباق بتعلق السببية ، أو تعلق اللزوم ، وهو الجمع بين معنيين

(٥) المثل ج٢ ص ٢٨٩ .

يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق ، وليس بينهما تناف ، بل يجتمعان ، ومن ثم يمتاز عن الطباق ، ولذا فان ابن الاثير قد قسم هذا القسم الى نوعين :

النوع الأول : ما كان بين المقابل ، والمقابل نوع مناسبة وتقارب وهذا هو القسم الاول مما عنيناه سلفا بتعلق السببية ، ومثل له بقول قريط بن أنيف :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة : ومن اساءة أهل السوء احسانا

وليس الظلم مقابل للمغفرة ، بل المقابل له هو العدل ، ولكن كانت المغفرة مسببة عن العدل وقريبة منه فحسنت مقابلة الظلم بالمغفرة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فان الرحمة مسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة ولذا علق على هذا بقوله (فان الرحمة ليست ضدًا للشدة ، وانما ضد الشدة اللين ، الا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة) (٦) .

النوع الثانى : هو ما كان بين المقابل والمقابل به بعد ، ورأى أنه مما لا يحسن استعماله ، وانه قد ورد كثيرا فى الاشعار العربية ، وهو ما عرفناه سلفا بتعلق اللزوم ، وليست ببعيدة — كما عبر ابن الاثير لمن له تعلق بالبلاغة وعلومها واللغة ودلالاتها ، وجعلها الضرب

(٦) المثل السائر ج٢ ص ٢٩٠ .

الثانى من النوع الثانى وهى مقابلة الشئ مثله ، وهو ماعناه بالمثلية من قبل عندما قال أن يكون مثلا ، وعلى كل فانه قد مثل له بقول المتنبي

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها . سرور محب أو اساءة مجرم

فقابل بين المحب والمجرم ، ولكن لما كان المبغض مجرما فى حق صديقه عبر عنه بالمجرم وذلك لان الاجرام من لوازم المبغض الكاره فتم التقابل بين المحب والمجرم لتعلق اللزوم بين المبغض والمجرم . وليس الأمر كما ذهب ابن الأثير عندما قال (ليس كل من أجرم اليك كان مبغضا لك) (٧) فما دام أجرم كان مبغضا .

وقد تناول ابن الأثير أثناء كلامه عن الطباق والمقابلة، تناول المشاكلة كما تكلم عن الجمع مع التقسيم أيضا أثناء كلامه عنها ودمج فى ذلك ما يعرف باسم تشابه الاطراف، ولذا وجب علينا الفصل بين هذه الأنواع ودراسة كل نوع على حده ونبدأ بالمشاكلة .

المشاكلة

وهى كما هو معروف عنها أنها ذكر الشئ بلفظ غيره وقت وقوعه فى صحبتته تحقيقا أو تقديرا ومن ثم فانها تختلف عن المقابلة اختلافا بينا ، ولذا نتعجب من وضع ابن الاثير لها ضمن المقابلة بل عدها ضربا ثانيا وقال عنها مقابلة الشئ بما ليس بضده وذلك

(٧) المثل السائر ج ٢ ص ٢٩٢ .

بأن يكون اللفظ مماثلا للفظ ، وبانتفاء الضدية تنتفى المقابلة
وتدخل المشاكلة يقول (الضرب الثانى : فى مقابلة الشئ مثله) (٨)
ولكن بدون تضاد ، ويفرعا الى فرعين :

أحدهما : مقابلة المفرد بالمفرد •

والآخر : مقابلة الجملة بالجملة ولا أرتضى له بأن يقول مقابلة
كذا بكذا ، اذا الأفضل التعبير بمشاكلة ومصاحبة المفرد للمفرد ،
ومصاحبة أو مجاورة الجملة للجملة •

ألاول : أى مشاكلة ومصاحبة المفرد للمفرد وذلك مثل قوله
تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا) فقد سمي الله سبحانه وتعالى
تدبيره لنجاة نبيه صالح عليه السلام من كيد قوم ثمود والذين أرادوا
هلاكه هو وأهله « مكرا » مشاكلة لوقوعه فى صحبه مكر أعداء
نبيه لان المكر على حقيقته لا يصح أن ينسب الى الله تعالى عن ذلك
علوا كبيرا بمعناه الحقيقي اذ المكر تحايل لجلب الضرر الى الغير
وذلك ينبىء عن ضعف وخور تعالى الله عن ذلك •

ومثله أيضا مما أورده ابن الأثير — وان كان لم يفسره —
قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فجزاء السيئة العقوبة ،
فسميت العقوبة سيئة مشاكلة لوقوعها فى صحبه السيئة وقد ذكر
اللفظ الذى سمي الشئ باسمه فى هذين المثالين • الثانى : وهوقائم
على المعنى دون اللفظ وعرفه بأنه مقابلة جملة بجملة ويقول : (أعلم
أنه اذا كانت الجملة من الكثر مستقبلة قوبلت بمستقبلة ، وان

(٨) المثل السائر ج ٢ ص ٢٩٧ •

كانت ماضية قوبلت بـماضية ، وربما قوبلت الماضية بالمستقبلية ،
والمستقبلية بالماضية اذا كانت احدهما فى معنى الأخرى (٩) أى
أن تذكر الجملة الثانية كالجملة الاولى طالما هى فى صحبتها ،
وأحيانا تأتى على خلافها اذا كان المعنى يربطهما وذلك كقوله تعالى
(قل ان ضللت فانما أضل على نفسى ، وان اهتديت فبما يوحي الى
ربى) فهذا من جهة المعنى (وبيان تقابل هذا الكلام من جهة
المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها ، أعنى أن كل ما هو وبال
عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لانها الامارة بالسوء وكل ما هو لها
مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه اياها) (١٠) *

التقسيم

حد التقسيم هو : ذكر متعدد ، ثم يضاف الى كل فرد
من أفراد ما يخصه على جهة التعيين ، وينقسم الى قسمين :
١ — ذكر أحوال الشئ مضافا الى كل منها ما يليق به *
٢ — استيفاء اقسام الشئ بالذكر (١١) *

وقد عرفه ابن الأثير بقوله (وانما نريد بالتقسيم هنا
ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم

(٩) المثل السائر ج ٢ ص ٣٠٠ *

والجامع الكبير ص ٢١٤ *

(١٠) المثل السائر ج ٢ ص ٣٠١ *

(١١) الايضاح ص ٢٠٥ مثلا *

واحد ، واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ، ولم يشارك غيره
فتارة يكون التقسيم بلفظة اما ، وتارة بلفظة بين كقولنا بين كذا
وكذا ، وتارة منهم ، كقولنا منهم كذا ، ومنهم كذا ، وتارة بأن يذكر
العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم ... (١٢) . وقد اشترط بعد هذا
التعريف شرطا للتقسيم وهذا الشرط هو أن لا تتداخل أقسامه بعضها
فى بعض والافسد التقسيم . (١٣) كما اشترط ترتيب الألفاظ على
المعاني حتى يكون جميع السجع متناسبا لفظا ومعنى (١٤) . فاذا
ذكر لفظ ألحق به ما يناسبه ، وهو بهذا التعريف قد تناول كل أقسام
التقسيم وان كان فى كلامه عن ذكر العدد ما يشعر بأنه الجمع مع
التفريق والتقسيم كما سنرى . فمن ذلك قوله تعالى (ثم أورثنا
الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم
مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) فقد استوفت هذه الآية جميع
الأقسام وأضاف لكل مذكور ما يليق به ، فأقسام العباد ثلاثة :
اما عاص ظالم لنفسه ، واما مطيع مبادر بالخيرات واما مقتصد
بينهما ، وقد تم التقسيم بلفظة منهم .

وكذا قوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما
أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون

(١٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٥ .

(١٣) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٩ .

(١٤) المفتاح المنشأ ص ٣١٢ ومثل له بقول طريح :

ان حاربوا وضعوا او سالموا رفعوا . . . او عاقدوا ضمنوا او حدثوا صدقوا

السابقون) وهذه الآية كسابقتها فى التخريج إلا أنها تختلف ، فقد ذكر العدد المراد أولا ، ثم تم التقسيم بعد ذلك • ومنه قول الاعرابى الذى وقف على مجلس الحسن البصرى فقال : (رحم الله عبد أعطى من سعة ، أو آسى من كفاف ، أو أثر من قلة) فلما رآه الحسن البصرى قد استوفى جميع الأقسام قال : ما ترك لأحد عذرا (١٥) •

اللف والنشر

وقد تناوله أيضا ابن الأثير وأسماء بترتيب التفسير وما يصح منه وما يفسد ، واللف والنشر معروف عند البلاغيين بأنه ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الاجمال ثم ذكر ما لكل اليه من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه ، وذلك عن طريق القرائق اللفظية أو المعنوية المذكورة فى الكلام أو المدلول عليها بسياق الكلام • وقد يكون النشر على ترتيب اللف ، وقد يكون على غير ترتيبه وهو المعروف بالنشر المشوش •

ويعرف ابن الأثير اللف والنشر بقوله (اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يذكر فى الكلام معان مختلفة ، فاذا عاد اليها بالذكر ليفسرها ، قدم المقدم ، وأخر المؤخر ، وإذا لم يراع المؤلف ذلك كان مأخوذا عليه لأنه يخل بشطر من الصناعة) (١٦) وهذا التعريف

(١٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٧ •

(١٦) الجامع الكبير ص ٢٢١ وانظر المثل السائر ج٢ ص ٣١٥ •

قريب من التعريف السابق ومثل لذلك بقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) • فقد ذكرت الآية المتعدد على جهة الاجمال ثم ذكرت ما لليل ، وما للنهار •

ومنه أيضا قوله تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا ولتبتغوا من فضله) فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون ، على سبب النهار وهو التعايش •

ومما يجدر ذكره أن ابن الأثير كان بصيرا بمثل هذه الاساليب البلاغية وكان يدبج بها كتبه ، ولولا خشية الاطالة لاوردنا الكثير مما كتب ، غير أننا نكتفى هنا بمثال له في هذا المضمار ، يقول (ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل ، وآمت المكارم ، كما آمت الخلائل ، وعمت لوعة خطبه فما تشكى ثكلى الا الى ثاكل وما أقول فيمن عدمت الارض منه حياها ، والمحامد محياها ، فلو نطق الجماد بلسان ، أو تصور المعنى لعيان ، لأعربت تلك عن ظمأ صعيدها ، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها) (١٧) •

وقد أورد كثيرا من الابيات الشعرية تمثيلا للنشر المشوش وذلك مثل قول الفرزدق :

كيف أسلو وأنت حقف وغصن .: وغزال لحظا وردفا وقدا (١٨)

وقال ، هذا مما يؤخذ على الفرزدق .

كما أتى بأمثلة للنشر على ترتيب الف وقال عنه ان ذلك فى غاية الحسن كقول القاضى الأرجانى :

يوم الميتم فيك حول كامل .: يتعاقب الفصلان فيه اذا اتى
ما بين حر جوى وماء مدامع .: ان حنصافوان بكى وجدا شتا^(١٩)

الاقتصاد والأفراط والتفريط

لقد درس ابن الاثير تحت هذا العنوان الوانا من الصناعة اللفظية والمعنوية وبعضها هو الأفراط الذى يقابل أحد أنواع المبالغة وهو الغلو ، بل ما قال عنه بأنه الاقتصاد ما هو الا غلو مقبول لاحتوائه على ألفاظ مثل يكاد ، أو كأن ، فيكون بذلك قد جمع تحت المبالغة قسمين من هذه الأقسام وهما الاقتصاد والأفراط ، أما بالنسبة للتفريط ، فان تعريفه له قائم على الملائمة والمناسبة بين معانى الكلام ومكانه ومن قيل له هذا الكلام ، وهذا بعيد عن باقى أقسام المبالغة .

ويعرف الثلاثة قائلًا (أما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمن فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته ، وأما التفريط

(١٨) الجامع الكبير ص ٢٢٣ .
(١٩) المثل السائر ج ٢ ص ٣١٣ وانظر الجامع الكبير ص ٣٢٢ .

والأفراط فهو أن يكون المعنى المضمن فى العبارة بخلاف ما يقتضيه منزلة المعبر عنه فاما انحطاطا دونها وهو التفريط ، واما تجاوزا عنها وهو الافراط (٢٠) ومن هذا التعريف يتضح أن رأى ابن الاثير فى التفريط هو أن يكون المعنى المتضمن فى العبارة يؤدي الى انحطاط منزلة الموصوف بها ومن ثم قبحه فقال (والتفريط فى ايراد المعانى الخطابية قبيح لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه) (٢١) لأنه يؤدي الى الذم وليس للمدح فيه نصيب ، وقد ورد فى الشعر العربى الكثير من أمثال هذا اللون نجتزئ منه قول أبى تمام :

مازال يهذى بالكارم والعلـا . . . حتى ظننا انه محموم

فانه أراد أن يمدح بل يبالغ فى ذكر من يمدحه ولهجه بالكارم والعلـا ، فجعله محموما يهذى ، وهذا ذم صريح وليس بمدح •

ومثله أيضا قول الآخر :

ويلحقه عند الكارم هـزة . . . كما انتفض الجهود من أم ملدم

وأم ملدم هى الحمى ، فهذا تشبيه فى غاية الذم والسخر ، (وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله ، وان كان المعنى المقصود به حسنا ، وكم ممن يتأول معنى كريما فأساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما كهذا وأمثاله) (٢٢) •

(٢٠) الجامع الكبير ص ٢٢٦ •

(٢١) المثل السائر ج ٢ ص ٣١٦ •

(٢٢) المثل السائر ج ٢ ص ٣٢٥ •

أما القسمان الآخران من هذه الضرب فانهما وكما سبق أن
أشرت يندرجان تحت ما يعرف باسم الغلو ، وهو أن يدعى لوصف
بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه
غير متناه في الشدة أو الضعف وهو غير ممكن لا عقلا ولا عادة،
وهذا غير مقبول ، وانما الذي يجعله مقبولا أن يدخل عليه ما يقربه
للصحة ، وذلك كلفظة يكاد ، أو كأن أو لو وما تضمن نوعا حسنا
من التخيل ، أو ما جاء على سبيل الهزل (٢٣) فالقسم الأول عند ابن
الأثير هو الأفراط ، والثاني هو الاقتصاد كما سنوضح .

الأفراط أو الغلو

والأفراط أو المبالغة عنده منها ما هو مقبول ، ومنها ما هو
مستهجن ، والمستهجن عنده هو الذي بلغت المغالاة فيه حدا غير
مقبول من الأفراط تصل لدرجة الكذب ، أما المستحسن فعليه مدار
الاستعمال عنده (٢٤) ومثله قول عنتره :

ونا المينة في المواطن كلها . . . والطن منى سابق الاجال

والمستهجن كقول النابغة الذبياني في وصف امرأة :

وأنا المينة في المواطن كلها . . . والطن منى سابق الآجال

(وهذا يصف طول قامتها ، لكن من الأوصاف المنكرة التي
خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان) (٢٥) .

(٢٣) الايضاح ص ٢٠٧ .

(٢٤) المثل السائر ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٢٥) المثل السائر ج ٢ ص ٣٣٣ .

ومثله قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه .: لتخافك النطف التي لم تخلق
وهذا المستهجن يحسن إذا دخل عليه كأن أو لو ، أو كأنما
وقد استعمله المتنبي في شعره فحسن كقوله :

عجاجة تعثر العقيان فيه .: كان الجو وعث أو خبار
وهو نفس المعنى في قوله :

عقدت سنانيكها عليه عثيرا .: لو تبتغي عنقا عليه لأمكننا
(وهذا أكثر مغالاة من الأول) (٢٦) لكن الذى حسنه دخول
لو عليه ، أو قوله :

كأنما تتلقاهم لتسلكهم .: فالطعن يفتح فى الاجواف ما يسع
لكن التخيل الحسن هو الذى سوغ مثل هذا :

أما فى كتابه المفتاح المنشأ فانه ذكر المبالغة صراحة ومثل
لها ، فعرفها بقوله : (هو أن يذكر معنى لو يقتصر عليه لكان كافيا ،
فيما قصده ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكد به شئ آخر) وقد
مثل له بقول عمرو بن الاهيم :

ونكرم جارنا مادام فينا .: ونتبعه الكرامة حيث مالا

فلو اقتصر على قوله : ونكرم جارنا مادام فنيا :

كان كافيا ، فبالغ بقوله : ونتبعه الكرامة حيث مالا (٢٧) •

الاقتصاد

وهو عنده قسم قائم برأسه لكنه جزء من أجزاء الغلو المقبول، بل هو نفسه المستهجن الذي حسن بدخول بعض الألفاظ أو الأخيلة عليه فحسنته وهذا نفسه ما عناه ابن الاثير أثناء كلامه عن هذا اللون فقال (وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين والأمثلة به كثيرة لا تحصى ، اذ كل ما خرج عن الإفراط والتفريط فهو اقتصاد، ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثلا ، ثم يستثنى فيه بلو ، أو يكاد وما جرى مجراها) (٢٨) وضرب اذلك الامثلة ، فمن ذلك قوله تعالى: (يكاد البرق يخطف أبصارهم) ، ومثله قول الفرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحته . . . ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

ومثال لو كقول البحترى :

لو ان مشتاقا تكلف فوق ما . . . فى وسعه لسعى اليك النبر

ومن هذا القبيل ما عرفه باسم الغلو وعرفه : بأن يكرر صفة

واحدة كقول أبى نواس :

توهمتها فى كأسها وكأنما . . . توهمت شيئا ليس يدركه العقل (٢٩)

(٢٧) المفتاح المنشأ ص ٣١٢ •

(٢٨) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦ •

(٢٩) المفتاح المنشأ ص ٣١٢ •

فاخراج البيت بهذه الطريقة قد حسنه وحسن الغلو فيه .

التجريد

ويعرفه ابن الأثير (بأنه اخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه) (٢٠) وهذا التعريف قريب من تعريف القزويني له (٢١) الذى يثبت أن فائدة التجريد فى المبالغة فى كمال الصفة المنتزعة ، غير أن ابن الأثير يثبت فائدتين له الاولى : طلب التوسع فى الكلام ، لان ظاهر الكلام خطاب لغيرك ، وهو خطاب لنفسك . الثانية : يراها أبلغ من الاولى وهى أن يتمكن المخاطب من اجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ، اذ يكون مخاطبها غيره ليكون أعذر وأبرأ من التبعة فيما يقوله غير محجور عليه (٢٢) .

ويقسم التجريد الى قسمين : قسم محض ، وآخر غير محض . والفرق بينهما أن المتكلم فى المحض ، وجه الخطاب لغيره مريدا به نفسه فى الحقيقة ، كما يقصد به التوسع أحيانا ، ويرى أن هذا هو التجريد الحق لانه متفق مع التعريف الذى حده به .

أما غير المحض ، فيراه نصف تجريد لانه ليس تجريدا كاملا ، وهو خطاب الانسان لنفسه كأنها شخص آخر يعى ويسمع مايلقى عليه .

ولكن الغريب حقا أنه عاب على أبى على الفارسى أشياء من التجريد ، اذا يراها خارجة عنه وذلك مثل قول العرب : لئن لقيت

(٢٠) المثل السائر ج ١ ص ٤٢٣ .

(٢١) الايضاح ص ٢٠٦ .

(٢٢) المثل السائر ج ١ ص ٤٢٣ .

فلانا لتلقين به الاسد ، ولئن سألته لتسألن به البحر ، فيرى أن هذا من التشبيه مضمرة الأداة •

ونحن لا نوافق على هذا ، بل نرى رأى أبى على الفارسي لانه تجريد وذلك لدخول باء المعية فى المنتزع ، وليس لأداة التشبيه هنا مكان ، ومن ثم فتقديره الاداة باطل حيث يقول (فان هذا تشبيه مضمرة الاداة ، اذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، وبيان ذلك أنك تقول : لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالاسد ولتسألن منه كالبحر وليس هذا بتجريد لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه، وانما هو تشبيه مضمرة الاداة) (٣٣) •

وهذه تأويلات عليه لاله ، فانه أتى بمن وهى أيضا للتجريد بدلا من باء المعية التى هى للتجريد ، بالاضافة الى قوله بأن هذا تشبيه خطأ واضح ، لان أساليب التشبيه يكون الحكم فيها باثبات المشابهة ، وأسلوب التجريد ليس كذلك فانه يخلو من المشابهة لان فلانا فى المثالين هو نفسه الاسد والبحر على سبيل المبالغة ، وليس كالاسد ، أو كالبحر حتى يكون تشبيها ، لانه لو كان كذلك لاطرد فى أسلوب التشبيه لاتحاد المنتزع والمنتزع منه (والحق هو أنه استعارة ، ولكن المنتزع قد يعبر عنه أحيانا بلفظه الحقيقى ، وقد

يعبر عنه أحيانا بلفظة المجازى (٣٤) • ومن ثم فالخطأ عند ابن الأثير ، والصواب مع أبى الفارسي كما بينا •

أما أقسامه فهي :

الاول : التجريد المحض كقول الحيص بيص مخاطبا نفسه :

الام يراك المجد في ذى شاعر . . . وقد نحتت شوقا فروع المناير
كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة . . . ببعضها ينقاد صعب الفاخر
أما وأبيك الخير انك فارس الـ . . . مقال ومحبي الدارسات الغواير
وانك أعييت المسامع والنهى . . . بقولك عما في بطون الدفاتر

فقد أجرى الخطاب لغيره ، وهو يريد نفسه ليتمكن من ذكر الصفات والفضائل التي يريد اثباتها لنفسه •

ومثله أيضا قول المتنبي :

لا خيل عندك تهديها ولا مال . . . فليسعد النطق ان لم تسعد الحال
وأجز الامير الذي نعماء فاجئة . . . بغير قول ونعمى القوم اقوال

ويرى أن هذا من التوسع •

النوع الثانى : غير المحض ، وهو مخاطبة الانسان نفسه وهو مايسميه بنصف تجريد كقول عمرو بن الاطنابة مخاطبا نفسه :

(٣٤) الايضاح ج٦ ص ٦١ شرح محمد عبد المنعم خفاجى ط محمد على
صبيح سنة ١٩٥٠ المطبعة الفاروقية •

أقول لها وقد جشأت وجاشت .: رويدك تحمدى أو تستريخى
فالمخاطب هو المخاطب بعينه ، وليس ثم خارج عنه كما يقول (٣٥) *

التورية

ويسمى بها ابن الأثير بالمغالطات المعنوية لأنها (من أحلى ما
استعمل من الكلام وألطفه لما فيه من التورية) (٣٦) *

ويعرفها بأن يذكر معنى من المعانى له مثل فى شىء آخر
ونقيض ، والنقيض أحسن موقعا ، وألطف مأخذا ، وما عبر به هنا
عن المعنى والمثل هو نفسه ما قيل فى حد الاستعارة اصطلاحيا
حيث يطلق المتكلم لفظا له معنيان أحدهما قريب غير مقصود ، والآخر
بعيد هو المقصود ، أى هو خاص بالألفاظ المشتركة المعنى ، أو ما
يعرف عند اللغويين بالمشترك اللفظى إلا أن الدلالة تحدد المراد
من المعنى المقصود (٣٧) *

وتبعا لهذا التعريف فانها تنقسم عنده الى :

(١) التى من اندى يتون له مثل يقع فى الألفاظ المشتركة كقول
السيبى :

يشلهم بكل أقب نهـد	:.	لفارسه على الخيل الخيار
وكل أصم يعسل جانباه	:.	على الكعبين منه دم مـار
يغادر كل ملتفت اليه	:.	ولبتـه لثـعـلبه وجـار

(٣٥) المثل السائر ج١ ص ٤٢٧ *

(٣٦) المثل السائر ج٢ ص ٢١٥ *

(٣٧) انظر البلاغة وقضايا المشترك « التورية » *

فالثعلب هنا لفظ له معنيان ، أحدهما قريب غير مراد ، وهو الحيوان المعروف وبعيد وهو : طرف سنان الرمح وهو المقصود ، برغم وجود المرشح بعد لفظ التورية وهو لفظ وجار التي ترشح المعنى القريب وهو الحيوان، والمعنى أن الرمح الموصوف بهذه الصفات يترك من التفتت اليه بعد أن غاب في نحره وطعن ، فصار نحر المطعون بالرمح ، وللرمح ، كالوجار للثعلب * (وهذا نقل المعنى من مثل الى مثله) *

ومثله أيضا للمتنبى :

برغم شبيب فارق السيف كفه . . . وكانا على العلات يصطحبان
كان رقاب الناس قالت لسيفه . . . رفيقك قيسى وأنت يمانى

ففى كلمة يمانى تورية لان لها معنيان : أحدهما قريب وهو الرجل المنسوب لليمن والآخر بعيد وهو السيف الذى ينسب لليمن، والمرشح للمعنى القريب كلمة قيسى نسبة الى قيس ، والعداوة مشهورة بين القيسية واليمانية *

ويريد المتنبى أن كف شبيب القيسى وسيفه متنافران عندما قتل ، فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يمانى وصاحبك قيسى ، ولهذا جانبه السيف وفارقه * وهناك أمثلة عديدة نثرية أوردها فى رسائله العديدة ولولا خشية الاطالة لأوردنا بعضها (٣٨) *

(ب) القسم الآخر وهو النقيض ويراه قليلا ،لانه لا يتهيا
ستعماله كثير وذلك مثل قول بعض الشعراء ،

وما اشياء تشريها بما فان نفقت فاكسد ما تكون

فالتورية فى لفظة نفقت ، فيقال نفقت السلعة اذا راجت وكان
ها سوق ، ويقال أيضا نفقت الدابة ، اذا ماتت (وموضع المناقضة
عنها فى قوله : انها اذا نفقت كسدت ، فجاء بالشىء ونقيضه ، وجعل
هذا سببا لهذا ، وذلك من المغالطات الحسنة) (٣٩) *

الارصاد

وهو أن يبنى الشاعر البيت الشعرى على قافية قد أرصدها
له ، أى أعدها فى نفسه فاذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به
فى قافيته ، فخير الكلام ما دل بعضه على بعض (٤٠) سواء كان فى
الشعر أو النثر ، وهذا ما استدركه ابن الأثير بعد تعريفه للارصاد ،
وقصره فى هذا التعريف على الشعر فقال : (وقد جاء الارصاد فى
الكلام المنثور كما جاء فى الشعر) وقد عرفه فى كتابه المفتاح
المنشا : (انه اذ ذكر فى سبعة معنى ، اقتضى أن يكون فى السبعة
الثانية تمامه) أى تمام هذا المعنى (٤١) وقد مثل لكلا النوعين شعرا
ونثرا بما شاع من أمثلة له فى كتب البلاغة *

(٣٩) انظر المثل السائر ج٢ ص ٢٢١ .
(٤٠) انظر المثل السائر ج٢ ص ٣٤٨ وانظر ايضا التعريف فى ايضاح
القزوينى ص ١٩٨ وقد شمل الشعر والنثر .
(٤١) السابق ص ٢٤٩ والمفتاح المنشا ص ٣١٢ ، والجامع الكبير ص ٢٣٨

فمن ذلك قول البحتري :

أطت دمي من غير جرم وحرمت . . . بلا سبب يوم اللقاء كلامي
فليس الذي حلتته بمحلال . . . وليس الذي حرمته بحرام

فالارصاد في قوله « حرمة » خاصة بعد أن عرفت القافية
في البيت الأول أنها في البيت الثاني لابد أن تذكر لفظة « بحرام »
وأیضا كقول البحتري :

فاذا حاربوا أذلوا عزيزاً . . . واذا سالوا أعزوا ذليلاً

فيعلق عليه بقوله (فاذا حاربوا أذلوا عزيزاً . . .) اقتضى
أن يكون تمامه ، واذا سالوا أعزوا ذليلاً (٤٢) .

ومن النثر قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء
كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) ،
فاذا سمع السامع قوله تعالى (وإن أوهن البيوت) لعلم أن بعده
بيت العنكبوت .

أما ما عده من التسهيم في كتابه المفتاح ، فإنه ليس من التسهيم
أو الارصاد في شيء لأنه من اللف والنشر ، وتعريفه له قريب جداً
من تعريف البلاغيين له ، فهو عبارة عن ذكر متعدد على جهة التفصيل
أو الاجمال ، ثم ذكر مالكل واحد من غير تعيين ثقة من أن السامع
يرده اليه (٤٣) .

وهذا نفسه معنى تعريف ابن الأثير له في قوله : (وهو أن
يأخذ المنشئ في معنى فيورده غير مشروح ، فيقع أن الواصل

(٤٢) المفتاح ص ٣١٢ .

(٤٣) الايضاح ص ٢٠٢ .

اليه الكتاب لا يتصوره بحقيقته ، فيعود اليه راجعا الى ما قدمه ،
اما أن يظهره ، واما أن يجلى الشبهة فيه (٤٤) * وقد مثل القزويني
لهذا النوع بمثال هو نفسه الذي مثل له به ابن الأثير وهو قول
ولهذا النوع بمثال هو نفسه الذي مثل له به ابن الأثير وهو قول
ابن الرومي :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم .: في الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابح .: تجلو الدجى والاخريات رجوم
ويعلق عليه ابن الأثير شارحا ، بأن الشاعر عندما ذكر البيت
الاول رآه مبهما لن يستطيع القارئ أن يفهمه بهذا الاجمال ، فأتى
بالبيت الثاني مفصلا له *

كما ذكر ما يعرف بالتبيين وهو من هذا النوع ، وليس له فيه
الا التعريف فقط ، أما التمثيل والشرح ، فهو منقول بالكامل من
الخطيب التبريزي (٤٥) فاذا كان الشاهد السابق على ترتيب اللف
والنشر ، فان الشاهد التالي على غير ترتيبه *

وتعريفه لهذا النوع (هو أن يضع — المتكلم كلاما — ثم يلحقه
بما يبينه) (٤٦) *

ومثل له أيضا بقول الفرزدق :

لقد خنت قوما لو لجأت اليهم .: طريد دم أو حاملا ثقل مغرم
لأفيت فيهم معطيا أو مطاعنا .: وراك شزرا بالوشيج القوم

(٤٤) المفتاح ص ٣١٦ *

(٤٥) الكافي في العروض والقوافي ص ١٩٣ *

(٤٦) المفتاح المنشأ ص ٣١٦ وقارن هذا التعريف *

بالتعريف السابق *

وعلق عليه نقلا عن التبريزي فقال : (لو اقتصر على البيت الاول لكان جيدا ودخل في باب ما حذف جوابه ، فبين قوله « حاملا ثقل مغرم » بقوله « لألفيت فيهم معطيا » ، وقوله « طريد دم » بقوله « مطاعنا » (٤٧) .

العكس والتبديل

ويسميه ابن الأثير بالمعكوس أو بالتبديل ويدرسه ضمن الجناس ، اذ يراه مشبها بالتجنيس ، غير أنه يصوب رأى قدامة بن جعفر في تسميته بالتبديل وكما هو عليه جمهور البلاغيين في تلك التسمية ولذا قال ابن الاثير عنها (وذلك مناسب لمسامه ، لأن مؤلف الكلام يأتى بما كان مقدما في جزء كلامه الاول مؤخرا في الثانى ، وبما كان مؤخرا في الاول مقدما في الثانى) (٤٨) . وهذا الذى استصوبه ، ومال اليه هو نفسه قريب جدا من تعريف البلاغيين له ، فهو أن يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر ، أى هذا الجزء الذى تقدم (٤٩) .

ويقسم هذا التبديل الى قسمين :

الاول : عكس الالفاظ ، والاخر عكس الحروف .

(٤٧) المفتاح ص ٣١٦ وانظر الكافى ص ١٩٣ .

(٤٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٦١ ، والجامع الكبير ص ٢٦٢ .
وانظر المفتاح المنشأ ص ٣١٣ وكلامه عنه يدخله ضمن عكس الالفاظ
لا عكس الحروف .

(٤٩) الايضاح ص ٢٠٠ .

أما من ناحية عكس الحروف فغير مدرج ضمن هذا اللون لأنه تلاعب بالالفاظ مع اختلاف معانيها ، وهذا هو المعروف بالمقلوب ويمثل له بقول الشاعر :

كيف السرور باقبال واخبره : إذا تأملت مقلوب اقبال (٥٠)

ومقلوب الاقبال هو لابقاء (٥١) *

أما عكس الالفاظ فانه يدرسها دون أن يفرق بينها ، بل أوردنا كيفما اتفق ومثل لها بألوان من الشعر ، وأخرى من النثر بعضها من القرآن الكريم وبعضها الآخر عبارات من كتبه التي كتبها وهي طويلة ، ويأتى فيها هذا اللون قسرا وعنوة ولولا خشية الاطالة لمثلنا بها ، غير أن فى الامثلة الاخرى غناء عنها *

النوع الأول : كقول بعضهم : عدات السادات ، سادات العادات ، أو شيم الاحرار أحرار الشيم * وهذا اللون معروف بأنه ما يقع بين طرفى جملة وما أضيف اليه ، فالعادات ، أحد طرفى جملة ، وهو مضاف والسادات مضاف اليه *

النوع الثانى : وهو الذى يقع بين متعلقى فعلين وفى جملتين كقوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى »

(٥٠) المثل السائر ج١ ص ٢٦٢ *
(٥١) وهو المعروف باسم مالا يستحيل بالانعكاس ، انظر جواهر البلاغة ص ٤٠٨ *

النوع الثالث : أن يجمع بين لفظين في طرفي جملتين كقول
ابن قريع :

قد يجمع المال غير آكله . . . ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه . . . ويلبس الثوب غير من قطعه
أو كقول عتاب بن ورقاء :

ان الليالى للانام منـاهل . . . تطوى وتنتشر بينها الاعمار
فقصارهن من الهموم طويـلة . . . وطوالهن من السرور قصار
أو قول مالك بن اسماء :

واذا الدر زان حسن وجوه . . . كان للدر حسن وجهك زينا (٥٢)
أو كقول رسول الله ﷺ (جار الدار أحق بدار الجار) (٥٣) .

(٥٢) المفتاح المنشأ ص ٣١٣ .

(٥٣) انظر المثل السائر ج ١ ص ٢٦٠ : ص ٢٦٢ والايضاح ص ٢٠٠ .

ثانيا : المحسنات اللفظية

هذه التسمية « المحسنات اللفظية » ليست من وضع ابن الاثير
هى والسابقة أعنى « المحسنات المعنوية » ، انما وضعتها من عندى لى
أفرق بين الدراستين على عادة العرف البلاغى ، أما هو فقد دمج
عناصر هذه بتلك ، باستثناء القسمة التى قسمها ، وهى الصناعة
اللفظية ، وخص بدراستها المقالة الاولى وأورد تحتها بعض الألوان
التي تتصل بالصناعة اللفظية ، والمقالة الثانية فى الصناعة المعنوية،
وأورد تحتها ما يتصل بالمعنى ، ولم يقصر هذه أو تلك على علم
البديع فقط ، بل أورد تحت هاتين المقالتين كل ما يندرج تحت علوم
البلاغة الثلاثة المعانى ، والبيان ، والبديع ، الا أنه لم يتناول كل
ألوان البديع لانه قصر كلامه على المتصل بصناعة الكتابة فقط ،
وليته توسع فى كل أضرب البديع ، لكنه فيما يذهب اليه الظن أنه
تناول ما كان معروفا معدودا فى ألوان البديع بين طبقة الكتاب ،
غير أنه سواء أكان هذا أم ذاك فانه تكلم عن الألوان التى سوف
نفصل القول فيها فيما بعد ونبدأ بالجناس وأقسامه .

الجناس

ويسميه التجنيس ، ودراسته له ، دراسة قيمة ، لأنه تقيد
بتعريفه له ، ومن ثم نفى عنه ما ليس منه ، وذاك مثل المتفق
لفظا ومعنى ، وأطلق عليه الترديد ، لان اللفظ والمعنى متفقان ،
وضرب لذلك مثلا بقول أبى تمام :

أظن الدمع في خدي سيبقى . ٢٠ رسوما من بكائي في الرسوم

(وهذا ليس من التجنيس في شيء ، اذ حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وهذا البيت المشار اليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا) (٥٤) فالرسم بمعنى واحد وهذا مما يحسب له ، وان كان هناك مما يحسب عليه كاحتسابه العكس والتبديل من الجناس (٥٥) وأيضا المقلوب (٥٦) •

ويعرف الجناس بقوله (وحقيقته أن يكون اللفظ واحدا ، والمعنى مختلفا) (٥٧) • وهذا التعريف أفضل كثيرا من تعريف القزويني له ، فقد قصر القزويني تعريف الجناس على التشابه بين اللفظين ، ولم يتكلم عن المعنى (٥٨) فجاءت تسمية ابن الاثير له جامعة مانعة الى حد كبير •

فأخرجت أمثال قول أبي تمام سالف الذكر حيث هو من جناس الاشتقاق ، وقد الحق مثل هذا النوع بالجناس وهو ليس منه ، ومرد ذلك الى الخلاف بينهما فكما هو معروف عن الجناس أنه اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، أما هذا النوع فهو تشابه اللفظين

(٥٤) المثل السائر ج ١ ص ٢٥٣ •

(٥٥) المثل السائر ج ١ ص ٢٦٠ •

(٥٦) المثل السائر ج ١ ص ٢٦٢ •

(٥٧) المثل السائر ج ١ ص ٢٤٦ •

(٥٨) الايضاح ص ٢١٦ • وانظر اسرار البلاغة ص ١٢ وما بعدها •

فى الحروف والاصول ، وفى المعنى كذلك ، ومن ثم الحقوه بالجناس
لمجرد هذا التشابه (٥٩) •

ويقسم ابن الأثير الجنس الى سبعة أقسام ، وان كان يرى
أن واحدا منها هو الذى يدل على حقيقة التجنيس وستة أخرى
مشبهة بالجناس وقد اندرجت جميعها تحت اسم الجنس •

أولا : القسم الأول : وهو التام الذى رأى اتفاق اللفظ دون
زيادة أو نقصان مع اختلاف المعنى وذلك كقوله تعالى (ويوم تقوم
الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) فالجناس واقع فى
لفظة ساعة ، اذ المقصود بها أولا يوم القيامة ، والثانية الساعة
الزمنية ، فتساوت حروف الفاظه فى تركيبها ووزنها ، ومثله قول
أبى تمام :

فأصبحت غرر الايام مشرقة . . . بالنصر تضحك عن ايامك الغرر

فالغرر الأولى استعارة من غرة الوجه ، والغرر الثانية مأخوذة
من غرة الشيء أكرمه وأمثال هذا كثير ، لكنه تنبيه الى ما كان محمودا
منه وهو الذى يجيء عفوا والى الرزول منه ويسميه الغث البارد
المتكلف الذى يتى به الشاعر ، ولا حاجة لاستقصائه ، ونكاد نسمع
صوت عبد القاهر الجرجانى فقد ذم أيضا المتكلف من القول فى
السجع والجناس (ولن نجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرها ،

(٥٩) انظر شروح التخليص ج٤ ص ٤٣٠ والمثل السائر ج١ ص ٢٥٢
والبلاغة وقضايا المشترك فصل الجنس •

وأهدى الى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيته وتدعها تطلب لانفسها الألفاظ ، فانها اذا تركت وما تريد لم تكتس الا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض الا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراء ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم (٠٠٠) (٦٠) ومن ثم كان معيار ابن الأثير فى الاستحسان وعدمه ، فمما استحسنه قول البحتري :

إذا العين راحت وهى عين على الهوى ٠٠٠ فليس بسر ما تسر الاضالع

فالعين الجاسوس ، والعين الحاسة المعروفة ، وأمثال هذا كثير (٦١) . هذا هو القسم الاول عنده ، أما باقى الأقسام فيراها مشبهة بالتجنيس وهى عنده ستة أقسام ، غير أننا تناولنا القسم الرابع فى دراستنا السابقة بعنوان العكس والتبديل ، وتكلمنا أثناءه عن المقلوب ، أما باقى الأقسام فهى •

١ — أن تكون الحروف متساوية فى تركيبها مختلفة فى وزنها وهذا هو الجناس المحرف (٦٢) ومثل له بقوله صلى الله عليه وسلم (اللهم كما حسنت خلقي حسن خلقي) ويوضحه قائله (الا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان فى التركيب ، مختلفتان فى الوزن • • • • • اذ وزن الخلق فعل بفتح الفاء ، ووزن الخلق فعل بضم الفاء) (٦٣)

(٦٠) أسرار البلاغة ص ١٠ .

(٦١) المثل ج١ ص ٢٥١ وما بعدها .

(٦٢) الايضاح ص ٢١٨ .

(٦٣) المثل السائر ج١ ص ٢٥٣ .

ومنه قول بعضهم : لا تتال غرر المعالي الا بركوب الغرر واهتبال
الغرر •

٢ - أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لاغير وهو المضارع (ت) ، كقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) فناضرة وناظرة على وزن واحد الا أن تركيبهما اختلف بين الضاد ، والطاء ، ومثله قوله تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه) او قوله ^{صلى} (الخيل معقود بنواصيها الخير) .

أما قول أبي تمام :

بیمدون من آید عواص عواصم .∴ .تصول باسیاف قواض قواضب

فليس من المضارع المتقدم ، بل هو من جناس القلب المجنح أو الناقص المطرف كقول البحترى :

شواجر ارماح تقطع بینہم : شواجن ارحام ملوم قطوعہا

٣ — أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد وهو الناقص المطرف كقوله تعالى (والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق) • أو قوله ﷺ (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) •

ومما يؤخذ عليه أيضا في هذا القسم أنه أورد الملحق بالجناس الذي يجمع بين اللفظين ، الاشتقاق أو المشابهة (٦٥) ومثل له أمثله

(٦٤) الايضاح ص ٢١٩ وانظر باقى الصفحات فى هذه التسمية *

(٦٥) الايضاح ص ٢٢٠ .

كثيرة منها قول أبي تمام :

أيام تدمى عينيه تلك الدما .: فيها وتقمّر لبه الاقمار

أو قول البحتري :

نسيم الروض في ريح شمال .: وصوب المزن في راح وشمول

ومث هذا كثير (٦٦) وقد وضع هذا بشكل أكثر في كد
المفتاح المنشأ (٦٧) •

٤ — القسم الرابع هنا هو الخامس عنده ، ويسميه المج
وهو المعروف بالمرفو وعرفه بأن يجمع مؤلف الكلام بين كلم
أحدهما كالمتبع للآخرى والجنبية لها وإن كان يرى أنه الصق بلز
ما يلزم (٦٨) لكنه بالجناس أولى ، كقول القائل :

أبا العباس لا تحسب بانى .: لشيء من حلى الأشعار عارى
فلى طبع كسلسال معين .: زلال من ذرا الأحجار جارى

٥ — ما يساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر
وهو الذى يعرفه القزوينى بأنه جناس القلب ، كقول أبى تمام
بيضى الصفائح لاسود الصحائف فى .: متونهن جلاء الشك والر

(٦٦) المثل السائر ج ١ ص ٢٥٧ : ص ٢٦٠ •

(٦٧) المفتاح المنشأ ص ٣١٠ •

(٦٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٦٣ والايضاح ص ٢١٧ •

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت ، وبهذا أنهى دراسة الجناس أو التجنس الذى وصفه بأنه غرة شاذخة فى وجه الكلام ، وهذا مبعثه أن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد (٦٩) فقيتوهم السامع أن المعنى أيضا متحد ، فبعد تمنعه يرى اختلاف المعنى فيحمله على التعجب والشده .

السجع والازدواج

وقبل ان نتناول السجع ودراسته له نورد رأيه فى السجع وما كان مستحسننا عنده منه ، وسر السجع ، والفرق بينه وبين التطويل ، ثم شروط السجع المستحسن ثم بعد ذلك نتناول حده وأقسامه .

أما رأيه فى السجع فإنه أسسه على عدم رفضه تماما ، وذلك لأن كثيرا منه ورد فى القرآن الكريم (٧٠) ، حتى انه لتجىء السورة بأكملها مسجوعة كسورة الرحمن أو القمر مثلا ، وأيضا الأحاديث النبوية الشريفة ، أما ما عابه الرسول ﷺ فإنما هو السجع الذى يتشدد به بعضهم كسجع الكهان لاغير ، أما عامة السجع فغير مذموم ، كما أن السجع الذى أراده هو الذى ورد موافقا لحكم الكهان (وانما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة) (٧١)

ومن ثم فان ابن الاثير لم يرفض السجع ، بل كان يفضل من السجع ما كان معتدلا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد

(٦٩) المثل السائر ج١ ص ٢٤٦ .

(٧٠) الاولى أن تسمى فواصل لاسجع .

(٧١) المثل السائر ج١ ص ١٩٦ .

بالإضافة الى جمال وحلاوة الألفاظ المسجوعة بأن تكون حادة طعنة
رنانة ، لا غثة ولا باردة ، جل هم قائلها أن يصرف نظره الى السجع
دون ان يضع اعتبارا الى مفردات الالفاظ المسجوعة وما يشترط
لها من الحسن ، وأيضا المركب منها وما يشترطه من الحسن ، وصفى
من الغثاثة والبرد ، وتابع اللفظ المعنى ، وجاء عفوا غير متكلف
أو متعسف ، هذا بخلاف مايجىء محمولا على الطبع فيكون فى غاية
الحسن ، ويراه فى أعلى درجات الكلام (واذا تهيأ للكتاب أن يأتى
به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فانه يكون قد ملك رقاب الكلم
يستعبد كرائئما ، ويستولد عقائما ، وفى مثل ذلك فليتنافس
وعن مقامه فليتنقاعس) (٧٢) وهذا دليل على ذوق الرجل الادبى
ورهافة حسه وبصره بمواضع الكلم ، ولذا رأيناه يشترط ان يكون
كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير الذى
اشتملت عليه اختها فيكون حسنا مقبولا ، أما اذا كان المعنى فى
الثانية يشبه لاولى ، فانه ليس من السجع فى شىء ، بل هو
التطويل الذى هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الاستغناء عن
بعضها ، ولذا وضع شروطا أربعة ليكون الكلام أولا سجعا ، وثانيا
مقبولا ، وهذه الشروط جمعها فى الآتى :

أولا : اختيار مفردات الألفاظ •

ثانيا : بعد أن تختار اللفظة المفردة ، توضع فى تركيب مختار

• أيضا

ثالثا : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعا للمعنى ،

• لا العكس

رابعا : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على

معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها (٧٣) •

فاذا تحققت هذه الشروط الاربعة ، وحمل على الطبع غير

المتكلف ، فانه يجىء فى غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام ،

وهو الذى يعتد به وسوف يقسمه الى أقسامه •

تعريف السجع : عرف ابن الأثير السجع فى كتبه ، بأنه

تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد (٧٤) وهو بمثابة

القوافى فى الشعر، أى أن الفاصلة فى النثر تشبه القافية من الشعر •

ويقسمه الى ثلاثة أقسام من حيث الفاصلتين •

الأول : أن يكون الفصلان متساويين ، بحيث لا يزيد أحدهما

على الآخر ، وهذا هو السجع المتوازى لأن الفاصلتين تكونان فيه

متوافقتين وزنا وتقفيه وذلك مثل قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر ،

وأما السائل فلا تنهر) فاتفقت تقهر وتنهر وزنا وتقفيه ، ومثله

(٧٣) المثل السائر ج١ ص ١٩٩ والجامع الكبير ص ٢٥٣ •

(٧٤) المثل السائر ج١ ص ١٩٣ والجامع الكبير ص ٢٥٣ وانظر •

الايضاح ص ٢٢٢ تجد الموافقة بين التعريفين •

قوله تعالى (والعاديات ضبحا فألموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا •)
وهذا النوع أشرف أنواع السجع لما فيه من اعتدال (٧٥) •

الثانى : أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول بحيث يكون
هذا الطول مقبولا ومعتدلا ، فاذا خرج به عن حد الاعتدال صار
معيبا وهذا الذى يعرف بالترصيع فى النثر بخلاف ترصيع الشعر كقوله
تعالى (وقالوا الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا اذا ، تكاد
السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا) •

الثالث : عكس الثانى وهو ما كان الفصل الثانى أقصر من
الأول فهو المعيب الفاحش (وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى
أمدّه من الفصل الاول بحكم طوله ، ثم يجيء الفصل الثانى قصيرا
عن الاول فيكون كالشئء المبتور فيبقى الانسان عند سماعه كمن
يريد الانتهاء الى غايته فيعثر دونها) (٧٦)

وربما هذا هو الذى دفعه الى عدم التمثيل له خلاف القسمين
السابقين •

وهذه الأقسام الثلاثة تتدرج تحت قسمين كبيرين من حيث
الطول والقصر :

الأول : السجع القصير ، أى أن تكون كل واحدة من السجعتين
مؤلفة من ألفاظ قليلة ، اذ كلما قلت الألفاظ كان أحسن ، وذلك لقرب

(٧٥) المثل السائر ج ١ ص ٢٣٩ • والافضل أن يقول فواصل •

(٧٦) المثل السائر ج ١ ص ٢٤٠ والايضاح ص ٢٢٣ •

الفواصل المسجوعة ، ولا يستطيعه الا انبارع لوعورة المسلك ، وضيق المجال فى استجلابه ، وتتفاوت درجاته بين عدة الفاظ تبدأ من لفظين لفظين الى العشرة ، فمما جاء من ذلك على لفظين لفظين قوله تعالى (والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا) أو قوله تعالى (ياأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) •

الثانى : السجع الطويل وهو الذى تطول فيه الألفاظ ، وتستجلب له وهذا أسهل تناولا من الأول ، وأيضا تتفاوت درجاته بين عدة ألفاظ من أحد عشر الى اثنى عشر ، وأكثر من خمسة عشر لفظا ومنه ما يكون تأليفه من العشرين لفظا فما حولها ، بل ان منه (ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير مضبوط) (٧٧) ، ونكتفى بمثال للسجع الطويل وهو قوله تعالى : (والنجم اذا هو ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى) ومن ثم تظهر عقلية ابن الأثير الواعية للتراكيب ، بل للألفاظ ومواضع استعمالها ، ومعناها ، ومبناها •

التصريح

ويعرفه بأنه — أى التصريح — فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور ، وفائدته فى الشعر ، أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها ، وشبه البيت المصرع بباب له مصراعان متشاكلان (٧٨) •

(٧٧) المثل السائر ج ١ ص ٢٤٢ •

(٧٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٤٢ وانظر الجامع الكبير ص ٢٥٤ والايضاح

ص ٢٢٤ •

وعلى عادته يفضل ما جاء منه عفوا غير متكلف وما كان منه قليلا فيكون كالغرة في الوجه ، أو كالطراز من الثوب ، لأن الكثرة لا تكون مرضية لأنها تأتي عن تكلف .

ويقسمه الى سبع مراتب ، وهي قسمة تدل على الدقة في معرفة الفروق الدقيقة الرقيقة المتموجة بين لفظة في تركيب وآخر .

الأولى : ويراهما أعلى درجات التصريح ، وهي أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه ، فيفهم معناه دون الحاجة الى الشطر الثاني من البيت ، وهذا هو التصريح الكامل وذلك مثل قول امرئ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التحلل . . . وان كنت أزمعت صرعى فاجملى

فكل شطر من هذا البيت قائم بمعناه غير محتاج للآخر .

الثانية : أن يكون الأول من المصراعين مستقلا بنفسه غير محتاج للآخر ، لكن اذا جاء هذا الآخر كان مرتبطا بالأول كقول أبي تمام :

الم يان أن تروى الظماء الحوائم . . . وان ينظم الشمل المبدد ناظم

فالمصراع الأول غير محتاج الى الثاني في فهم معناه ، لكن لما جاء المصراع الثاني ارتبطا في المعنى .

المرتبة الثالثة : وهي التصريح الموجه ، فيكون الشاعر مخيرا في

وضع كل مصراع موضع صاحبه ، ولا يخلت المعنى ، لكن هذا النوع من التصريح أقل جودة من سابقه .

كقول ابن الحجاج البغدادي :

من شروط الصبوح في المهرجان . : خفة الشرب مع خلو المكان

فلو وضعنا المصراع الثاني مكان الأول والأول مكان الثاني لم يخلت المعنى الذي هو عليه .

الرابعة : التصريح الناقص وفيه يكون المصراع غير مستقل بنفسه ، ولا يفهم معناه إلا بالمصراع الثاني ، ولم يرض عن هذا ابن الأثير وهو محق في ذلك لأن هذا النوع من التطويل ، إذ المعنى فيه يؤدي في بيت كامل كقول المتنبي :

مغاني الشعب طيبا في الفاني . : بمنزلة الربيع من الزمان

فلن يفهم الشطر الأول إلا بعد قراءة الشطر الثاني من البيت

الخامسة : وهو التصريح المكرر ويكون التصريح في البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ، وإذا فهو ينقسم إلى قسمين :

(أ) أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها ، وهو أدنى من القسم

الثاني كقول عبيد بن الأبرص :

فكل ذي غيبة يئوب . : وغائب الموت لا يئوب

(ب) أن يكون التصريح بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها ،

كقول أبي تمام :

فتى كان شربا للعفاة ومرتعا .: فأصبح للهندية البيض مرتعا

السادسة : التصريع المعلق ، وهو أن يذكر المصراع الاول ويكون معلقا على صفة تذكر فى المصراع الثانى ، ويراه معيبا جدا ، كقول مريء القيس :

لا ايها الليل الطول الا انجلي .: بصبح وما الاصبح منك بامثل

فعلق المصراع الاول على قوله « بصبح » .

السابعة : التصريع المشطور وهو أدنى درجات التصريع وأقبحها ، لأن التصريع فى البيت مخالفا لقافيته كقول أبى نواس :

اقلنى قد ندمت على الذنوب .: وبالاقرار عدت الجحود

فصرع بحرف الباء وسط البيت ، ثم قفاه بحرف الدال (٧٩) .

الترصيع

وقد اعتبره ابن الأثير قسما قائما برأسه ، وعده القزوينى نوعا من أنواع السجع ، فجعله ثالث الثلاثة ، المطرف ، والمتوازي والترصيع ، وان كان تعريفهما واحدا ، فهو عند ابن الأثير (أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظ من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية) (٨٠) .

(٧٩) انظر المثل السائر ج ١ ص ٢٤٢ : ص ٢٤٦ .

(٨٠) المثل السائر ج ١ ص ٢٦٤ وهو نفس تعريفه فى الايضاح ص ٢٢٢ وقد أخطأ فى الجامع فقال عن الترصيع : أن يكون أحد ألفاظ الفصل الاول مخالفا لما يوازيه من الفصل الثانى ، والاصوب مساوية انظر ص ٢٦٥ .

واشترط التساوى لكى يخرج منه غير المتساوى بالتكرار مثلاً
كقوله تعالى (ان الابرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم) فتكرار
لفظ « لفي » أخرجه من الترصيع لعدم التساوى • وقد زاد بعض
زيادة فى المفتاح المنشأ فقال فى تعريفه (أن تتوخى سجع مقاطع
الاجزاء ، وتصيرها متقاسمة النظم متعادلة الوزن) فقيد الترصيع
بتقاسم النظم وتعادل الوزن فأصبح قيذا آخر يخرج ما عداه ،
ومثل لذلك بقول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليفة مه . : دى الطريقة نفاع وضار
جواب قاصية جزاز ناصية . : عقاد ألوية للخيل جراز

وان كان هنا قد قصره على الشعر فقط (٨١) •

لكنه موجود — أى الترصيع — فى النثر والشعر خاصة شعر
المحدثين ، غير أنه قليل جداً ، لما يتطلبه من زيادة التكلفة والتعسف
وتعمق الصنعة ، ويقسم أرباب هذه الصناعة الترصيع الى قسمين
أما هو فلا يميل الى تلك القسمة لأنه يرى الترصيع فى القسم الاول
منها فقط ، وعلى كل فانه أورد القسمين ومثل لهما والقسمان هما •

الأول التساوى فى الوزن والقافية ، والقسم الثانى : الاختلاف
فى الوزن ، لان ذلك يخلو من الترصيع وهو بالسجع أولى •

القسم الاول : ومثل له نثراً وشعراً ، فمن أمثلة النثر التى
أوردها لهذا النوع قول الحريرى فى مقاماته (فهو يطبع الاسجاع
بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظة) فألفاظ الشق .

الاول من الكلام مساوية لألفاظ الشق الثانى وزنا وقافية ، فيطبع
تساوى يقرع ، والاسجاع والاسماع وجواهر وزواجر ، ولفظه
ووعظه • أما فى الشعر فكقول الشاعر :

فمكارم أو ليتها متبرعا . . . وجرائم الغيتها متورعا

والتساوى ظاهر واضح بين الفاظ الشطر الأول ، وألفاظ
الشطر الثانى • أما القسم الثانى الذى يرفضه من الترصيع ، فقد
أورد أمثلة بكتابه الجامع وحلها وسنكتفى بمثال واحد منها وهو
قول تأبط شرا :

حمال ألوية ، شهادة أندية . . . قوال محكمة جواب افاق

فألوية تساوى أندية وزنا وقافية ، لكن حمال لا يماثل شهادة
فى القافية ، وان اتفقا وزنا ، أما قوال فتساوى جواب ، لكن محكمة
لا يوازن افاق (٨٢) • ولذا رفض هذا النوع ، وان كنا لا ندرى لماذا
أتى به فقط فى كتابه الجامع الكبير دون القسم الاول الذى عده
ترصيعا •

التوشيح

ويسميه القوينى بالتشريع (٨٣) وان كانا متفقين فى التعريف
الآن عبارة القزوينى أوجز ، ولذا فهى تحتاج الى ايضاح ، أما
تعريف ابن الاثير له فيقول : (أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على

(٨٢) الجامع الكبير ص ٢٦٥ •

(٨٣) الايضاح ص ٢٢٥ •

بحرين مختلفين ، فاذا وقف من البيت على القافية الاولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض واذا أضاف الى ذلك مابنى عليه شعره من القافية الاخرى كان أيضا شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض وصار ما يضاف الى القافية الاولى للبيت كالوشاح وكذلك يجرى الامر فى الفقرتين من الكلام المنثور فان كل فقرة منهما تصاغ من سجتين (٨٤) * الا أنه يحسن استعماله فى الشعر بخلاف استعماله فى النثر *

ومن أمثله شعرا قول أبى بكر احمد بن الحسين الارجانى
يمدح قاضى قضاة فارس :

اسلم ودمت على الحوادث مارسا .: ركننا ثبير أوهضاب حراء
ونل المراد ممكنا منه على .: رغم الدهور وفز بطول بقاء
فهذان البيتان يذكران على قافية أخرى وبحر آخر فنقول

اسلم ودمت على الحوا .: دث ما رسا ركننا ثبير
ونل المراد ممكنا .: منه على رغم الدهور

ومثله أيضا قول الحريرى فى مقاماته :

ياخاطب الدنيا الدنية انها .: شرك الردى وقراءة الاكدار
دار متى اضحكت فى يومها .: ابكت غدا بعدا لها من دار
واذا أطل سحابها لم ينتفع .: منه صدى لجهامة الغرار

فاذا اقتصرنا ووقفنا على الردى كان هذا البيت من الضرب

الثامن للكامل وهو متفاعلن أربع مرات * وان اكملنا البيت ووقفنا على الاكدار كان البيت من الضرب الثانى من الكامل وهو :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن . متفاعلن ، متفاعلن فعالتن

ولذا يرى ابن الأثير أن هذا النوع لا يستعمل الا متكفا ومرد الحسن فيه لما يحتويه من صناعة ، لا بمافيه من براعة ، وأحسنه ما كان يسيرا كالرقم فى الثواب أو الشية فى الجلد (٨٥) *

الموازنة

الموازنة تشبه السجع فى المعادلة لا المماثلة ، ففى السجع اعتدال ، وزيادة على الاعتدال ، وهذه الزيادة هى تماثل أجزاء الفواصل لجيئها على حرف واحد ، أما الموازنة ففيها اعتدال السجع دون تماثل الفواصل ولذا يصح أن يقال كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا ، لأن السجع أخص من الموازنة ، وهى مثله ، كما توجد فى النثر توجد فى الشعر *

أما حدها عنده فهى أن تكون الفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية فى الوزن * وأن يكون صدر البيت الشعرى وعجزه متساوى الالفاظ وزنا (٨٦) ونصه فى التعريف عن الوزن وصمته عن التقفية دليل على أنه لم يشترط التساوى فى القافية ذلك الشرط الذى اشترطه فى السجع ، وان كان قد أدخل فى الموازنة ما عرفه

(٨٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٦١ *

(٨٦) المثل السائر ج١ ص ٢٧٨ *

القزويني باسم المماثلة (٨٧) ومثل لذلك بقوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم) (٨٨) • أما تعريفه لها في كتابه المفتاح المنشأ فانه أوضح ، فقد عرفها بقوله : أن تكون الالفاظ متعادلة — أى وزنا — متوالية الاجزاء حسنة الترتيب كقول امرئ القيس :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا . : له حجاب مشرفات على القال (٨٩)

وقد مثل للموازنة بقوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا ، سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا) فالآيات عزا ، وضدا ، وأزا ، وعدا ، كلها على وزن فعلا وان اختلفت حروف المقاطع التى هى فواصلها ، وأمثال ذلك كثير فى القرآن الكريم • أماما جاء من هذا النوع شعرا قول ربيعة من ذؤابة :

**ان يقتلوك فقد ثلت عروشهم . : بعتيبة بن الحارث بن شهاب
باشدهم بأسا على أصحابه . : وأعزهم فقدا على الاصحاب**

وقد وردت الموازنة فى البيت الثانى ، فان بأسا وفقدا على وزن واحد •

(٨٧) الايضاح ص ٢٢٤ •
(٨٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٧٩ والايضاح ص ٢٢٤ •
(٨٩) المفتاح المنشأ ص ٣١١ •

والموازنة تضيف على الكلام رونقا وطلاوة بسبب ما فيها من الاعتدال الذى هو مطلوب فى جميع الاشياء ، فاذا اعتدلت مقاطع الكلام وجدت قبولا واستحسانا لدى السامع .

لزوم مالا يلزم

وهو أن يلتزم مؤلف الكلام شعرا ونثرا بمالا يلزمه ، وحده فى النثر هو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفا واحدا ، أما فى الشعر ، فهو أن تتساوى الحروف التى قبل روى الابيات الشعرية (٩٠).

وخيره ما كان عن طبع وسليقة ، وما جاء عفوا غير متكلف ، لان الالفاظ اذا جاءت فى هذا النوع عن سلامة طبع وكانت غير مستجيلة ولا متكلفة كانت غير محتاجة للتائق ، وهذا فرق بين المتكلف وغير المتكلف فالمتكلف (هو الذى يأتى بالفتر والروية ، وذلك أن ينفى خاطر فى طلبه ، ويبحث على تتبعه واقتناص اثره ، وغير المتكلف يأتى مستريحا من ذلك كله) (٩١) . فاذا ما سُنح للنثر أو الشاعر اثناء صياغة عمله الفنى كان غير متكلف مما يدل على الطبع والتمكين بخلاف المتكلف .

وقد ألف المعرى فى ذلك كتابا سماه باللزوميات ومثله فى ذلك مثل باقى الشعراء والكتاب فأورد فيه الغث مع السمين ، ولذا فان ابن الاثير رأى أن ما جاء عن العرب الاقدمين من اللطافة ما يشهد لنفسه كأنه الماء الجارى فمن جيد المعرى :

(٩٠) المثل السائر ج١ ص ٢٦٧ .
وانظر الجامع ص ٢٦٥ .
(٩١) المثل السائر ج١ ص ٢٧٦ .

لا تطلبن بالة لك حاجبة .: قلم البليغ بغير حد مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما .: هذا له رمح وهذا أعزل

ومما ورد عن العرب قول طرفه بن العبد :

ألم تر أن المال يكسب أهله .: فضوحا إذا لم يعط منه نواسبه
أرى كل مال لامحالة ذاهبا .: وأفضله ما ورث الحمد كاسبه (٩٢)

ويقول ابن الأثير عن قصيدة كثير عزة التي مطلعها :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا .: قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

(وهذا القصيدة تريد على عشرين بيتا ، وهى مع ذلك سهلة
لينة تكاد تترقرق من لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفة
شئ) (٩٣) *

ومما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى (اقرأ باسم
ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق) وقوله أيضا (والطور
وكتاب مسطور) وقال أيضا (قال قرينة ربنا ما أطفئته ولكن كان
فى ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لى وقد قدمت ليكم بالوعيد
ويعلق على هذه الايات قائلا (ولا نجد ذلك فى القرآن الا قليلا) ،
أو ، (وقد ورد فى القرآن الكريم شئ من اللزوم الا أنه يسير
جدا) (٩٤) *

(٩٢) المثل السائر ج١ ص ٢٧٢ *

(٩٣) المثل السائر ج١ ص ٢٧٣ *

(٩٤) المثل السائر ج١ ص ٢٧٧ ، ص ٢٧٨

ومما ورد نثرا من كلام العرب قول بنت قيس بن خالد ذي
الجدين بعد ما تزوجت غير لقيط بن زrada بعد موته ، قالت عن لقيط
(انه خرج في يوم دجن وقد تطيب وشرب ، فطرد البقر ، فصرع
منها ، ثم أتاني وبه نضح دم ، فضمني ضمة ، وضمني شمة
فليتني مت ثمة ++) (٩٥) فقولها : ضمنني ضمة ، وضمني شمة ،
ومت ثمة ، كلام غير متكلف ولذا عليه رونق الطلاوة والحلاوة .

براعة الاسـتهلال

ويسميه بالمبادى والافتتاحات ، أو ببراعة الاستهلال فقد جاء
في كتابه المفتاح المنشأ (وأما براعة الاستهلال : وهو أن تبتدىء
بفاتحة الكتاب الذي تكتبه بكلام مخترع يكون دالا على كافة
الكتاب) (٩٦) ولذا آثرناها عنوانا لما يعرف بحسن الابتداء أو المبادى
والافتتاحات ، فكلها تسميات لدلول واحد ، وهو ركن ركين للبلاغة
والكتابة ، فانه لا بد أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة تدلان
على ما في الكتاب ولذا فانه لا يكون الكاتب كاتباً الا اذا أجاد المطلع
والمقطع ، وأن يكون المطلع مبنياً على مقصد الكتاب (٩٧) .

ويعرفه ابن الاثير بقوله : (أن يجعل مطلع الكلام من الشعر
أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام) (٩٨) فيكون

(٩٥) المثل السائر ج ١ ص ٢٦٩ .

(٩٦) المفتاح المنشأ ص ٣١٥ .

(٩٧) المثل السائر ج ١ ص ٧٢ .

(٩٨) المثل السائر ج ٢ ص ٢٣٦ .

أول ما يقابل لقارئ، أو لسامع كلاما يستدل به على فهم المعنى الذى وراءه سواء للكتاب أو القصيدة ، وهذا يتطلب من الكاتب أو الشاعر أن يراعى الموضوع الذى يكتب فيه أو ينشد فيه اذ لكل مقام مقال، فما يناسب الغزل ، لا يساير الرثاء ، وما يتطلبه الموضوع الذى يكتب فيه ، فان كان فتحا ونصرا ، أو هزيمة وخزلا أتى بما يتناسب وذلك، وعليه اذا كان الحدث مهما أن يجعل به فى مطلع كلامه ، كى يزيد فى تشويق السامعين لما بعد هذه المقدمة ، ولذلك فالناس فريقان فى هذا : فريق وعى فأجاد ، وآخر خمل فقصر ، فذكر ما يثقل على النفس مما تنفر ، بل مما تتشاءم منه (ومن أدب هذا النوع الا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه وهذا يرجع الى أدب الدرس ، فينبغى أن يحترز منه فى مواضعه كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء . وغير ذلك من تشتت الالاف وذم الزمان ، ولا سيما اذا كان فى التهانى ، فانه يكون أشد قبحا ، وانما يستعمل ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحا بشئ من ذلك تطير منه سامعه) (٩٩) .

اذن وجب على مؤلف الكلام أن يتحرز ويختار ، فلا يفجأ سامعه بما يكرهه أو يعافه ، وكلما كان بارعا دل فى افتتاح قصيدته على ما تحويه القصيدة بأكملها أو الخطاب برمته .

ولذلك وجدنا ابتداءات القرآن الكريم من ابرع ما جاء فى
الابتداء فنجد السورة أحيانا تبدأ بالنداء الذى يوقظ السامع
ويدعوه للصغاء ، وأحيانا تبدأ بحروف يسيرة ، غاية فى الاعجاز
والغرابة ، بل ان معناها يتساوى مع معناها فى النذير أو النصيح ،
أو الارشاد وترك الغنى ، ولذا وجدنا ما كان من حرف واحد مثل قوله
تعالى (ص ، ن ، ق) وما كان على حرفين كقوله تعالى (حم ،
طس) أو ثلاثة فما فوق كقوله تعالى أيضا (الم ، عسق ، كهيعص)
وما شابه ذلك ، وكلها مدلولات لدلالات خاصة مناسبة سيقى فى
مناسبتها ، ودلت على ما عليه الكلام التالى ، وكلها معانى بديعة
وافتاحات بارعة .

فاذا كان استهلال كتاب من الكتب السلطانية ، فيجب على
الكاتب أن يختار من التحييدات ما يكون مناسباً لمعنى الكتب ،
أما اذا أراد الشاعر أن يذكر مكاناً أو بعض المنازل فى قصيدته ،
فيختار من الاماكن والمنازل مازق لفظه ، وحسن النطق به كالعذيب ،
والغوير ، ورامة ، وبارق والعقيق ، واذا أراد ذكر أسماء النساء
فى الغزل ، فليذكر مازق أيضاً من الاسماء ، نحو سعاد ، وأمىم
وفوز (١٠٠) كما أنه ليس من شرط الابتداء ألا يكون مما يتطير منه
فقط ، فان من الابتداء ما يستقبح وان لم يتطير منه كقول أبى
تمام :

قدك انتب اربيت فى الغلواء .: كم تعذلون وانتم سـجرائى

اذا هناك ابتداءات يتطير منها كقول اسحق الموصلى للمتعصم
عندما بنى قصره :

يادار غيرك البلى ومحـاك .: ياليت شعرى ما الذى اـلاك

فيتطير المعتصم بذلك وخرب القصر *

ومنها ما يستثقل وان لم يكن مستقبحا فى معناه كما قال
البحـترى :

ان للبـين منة لا تؤدى .: ويذا فى تمـاضر بيضاء

فهذا الاسم شوه رقة الغزل *

بالاضافة الى أن هناك ابتداءات نادرة ؛ كقول المتنبى متغزلا :

اتراها لكثرة العشـاق .: تحسب الدمع خلقة فى المـاقى

ومن بارع الابتداءات التى وردت قول أشجع السلمى حيث

قال :

قصر عليه تحية وسـلام .: خلعت عليه جمـالها الايام

أو قول الخنساء فى أخيها : وقد جمعت جميع المدح فى بيتين :

وما بلغت كف امرئ متـاولا .: من المجد الا والذى نلت أفضل

وما بلغ المهدون للناس مدحة .: وان أظنـبوا الا الذى فيك أفضل^(١٠١)

(١٠١) المفتاح المنشأ ص ٣١٥ *

ومن الابتداءات التي وردت في أوائل الكتب وهي دالة بارعة ومناسبة ، ما قلّه ابن الأثير في فتح إحدى فقال : (هذا الكتاب مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامي جدد الله له في كل يوم فتحا ، وبديل عرش كل ذي سلطان لديه صرخا ، وجعل كل موقف من مواقف جوده وبأسه يوم فطر ، ويوم أضحى ، وكتب له على لسان الاسلام ولسان الايام ثناء خالدا ومدحا ، وأسكنه بعد العمر الطويل دارا لا يظما فيها ولا يضحى + + +) (١٠٢) ثم أكمل بعد ذلك الكتاب في
الفتح *

التخلص والاقتصاص

أولا : التخلص : والتخلص كبراعة الاستهلال في أهميته للكاتب والشاعر ويعرفه ابن الاثير بأنه عندما يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه اذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سبيلا اليه فيكون من بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلاما آخر + وهذا التعريف قريب من تعريف الخطيب القزويني الذي أضاف على معنى هذا التعريف وجوب مراعاة الملاءمة بين المعنى المنتقل اليه والمنتقل منه (١٠٣) وهو ما تنبه اليه ابن الاثير (١٠٤) ، فقال : هو أن تنتقل من الصفحات ، والإدعية الى المطلوب في الكتاب ، انتقالا حسنا غير خارج في اللفظ والمعنى (١٠٥) ، وترجع

(١٠٢) المثل السائر ج٢ ص ٢٥٠ *

(١٠٣) الايضاح ص ٢٤٣ *

(١٠٤) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٥ وأيضا أثناء رده على الغانمي كما سوف

نوضح *

(١٠٥) المفتاح المنشأ ص ٣١٥ *

أهمية التخلص الى أن المتكلم لا يشعر بفجوة أو بانقطاع فى الكلام بل يكون الكلام متصلا كأنه يأخذ برقاب بعضه بعضا ، أو كأنما أفرغ افراغا ، ولن يتسنى هذا لكل شاعر أو كاتب ، فلن يستطيعه الا المفلق من الشعراء ، والبارع من الكتاب ، وأفضله ما جاء عفوا غير متكلف أو مصنوع ، هذا ميسور للكتاب ، أما الشعراء فان الوزن والقافية يضيقان عليهم •

فمن أحسن ما جاء فى التخلص قول المتنبى :

وأورد نفس والمهند فى يدي ^{من} موارد لا يصدين من لايجالد
ولكن اذا لم يحمل القلب كفه ^{من} على حالة لم يحمل الكف ساعدا
خليلي انى لا أرى غير شاعر ^{من} فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا ان السيفوف كثرة ^{من} ولكن سيف الدولة اليوم واحد

مما دفع ابن الاثير الى قوله تعليقا على هذه الابيات (وهذا هو الكلام الاخذ بعضه برقاب بعض ، ألا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح فى هذه الابيات كأنه أفرغ فى قالب واحد ، ثم ان أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ، ومدح سيف الدولة فى بيت واحد ، وهو من بدائع المشهورة) (١٠٦) •

وهناك أمثلة عديدة أوردتها للمتنبى وغيره من الشعراء ، وكلها من أحسن التخلص وأبرعه • كقول محمد بن وهب :

ما زال يلتمنى مرأشـفه .: ويعلنى الابـريق والقـدح
حتى استرد اللـيل خلـته .: وبدا خـلال سـواده وضـح
وبدا الصـياح كان غـرته .: وجه الخليفة حين يمتدح (١٠٧)

فساد هذا الرأى ، لان التخلص هو خروج من كلام الى آخر
غيره بلطفية تلائم بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج
اليه ، ومن يتدبر القرآن سوف يرفيه كثيرا من مواضع التخلص،
كالخروج من الوعظ والتذكير والبشارة بالجنة الى أمر ونهى ووعد
ووعيد ، ومن محكم الى متشابه ، ومن وصف لنبي الى ذم شيطان
بلطائف دقيقة ومعان يأخذ بعضها برقاب بعض ، وضرب لذلك
مثلا بقصة سيدنا ابراهيم مع قومه (١٠٨) ، وقصة سيدنا موسى
مع قومه حيث قال تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا
لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل
واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الافتك تنصل بها
من تشاء ، وتهدى بها من تشاء ، أنت ولينا فاغفرلنا وارحمنا وأنت
خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الآخرة انا
هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شئ
فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون
الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى

(١٠٧) المفتاح المنشأ ص ٣١٥ .
(١٠٨) المثل السائر ج ٢ ص ٢٦٦ .

التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه أولئك هم المصلحون) ففي هذه الايات ذكر الله تعالى موقف موسى من قومه ، فلما أراد ذكر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض ، فعندما قال سيدنا موسى عليه السلام (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) أجابه سبحانه وتعالى بقوله : (قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين) صفاتهم وحالهم كذا وكذا وهم الذين (يتبعون الرسول النبى الأمى) ثم جاء سبحانه وتعالى بصفات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حتى ختم الكلام * (١٠٩) كما يرى أيضا أن سورة سيدنا يوسف عليه السلام مليئة بالتخلصات والخروج من معنى الى آخر * كما أورد لنفسه مجموعة من كتاباته ورسائله تدليلا على فهمه واستيعابه وتذوقه للتخلص (١١٠) ومثلما أتى بالتخلصات الفخمة الفحلة أو البديعة المستحسنة أتى أيضا بالوان من التخلص البارد الخالى من مسحة الجمال والاقتضاب منه أولى ، كقول المتنبي عندما أراد الخروج من الغزل الى المديح :

(١٠٩) المثل السائر ج٢ ص ١٦٩ .

(١١٠) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٩ : ص ٢٧١ .

غدا بك كل خلو مستهما . : . وأصبح كل مستور خليعا
أحبك أو يقولوا جر نمل . : . ثييرا وابن ابراهيم ريعا (١١١)

فيراه تخلصا باردا — وحق له ذلك — لانه خال من مسحة
الجمال ، ولذا فالإقتضاب أحسن منه ، لانه جاء مستكرها .

الاقْتَضَاب

الاقْتَضَاب عكس التخلص ، لان الاقْتَضَاب يقطع كلام الشاعر
الذى هو فيه ، ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير
ذلك ، ولا يكون للثانى علاقة بالاول (١١٢) وقد يكون وصل الكلامين
بلفظة « أما بعد » أو « هذا » .

فعندما يفتتح المتكلم كلامه بحمد الله وذكره ، يثنى بذكر
العرض الذى ساق الكلام من أجله ، فيأتى بلفظة أما بعد ليفصل
بين ذكر الله تعالى وحمده وبين ما أراده بهذه اللفظة ، وهو فى
هذا يرتفع الى منزلة قريبة من التخلص

أما لفظة هذه فهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام الى
كلام آخر غيره . وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم فى أكثر

(١١١) المثل السائر ج ٢ ص ١٧٤ وابن ابراهيم هو : على بن ابراهيم
التنوخى .

(١١٢) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

من موقع ومثال ذلك قوله تعالى :

(واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدي والابصار ، أنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ، واذكر اسماعيل ، واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب) فأورد ذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعندما أراد أن يذكر بابا آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها قال (هذا ذكر) ثم قال (وان للمتقين لحسن مآب) ، وعندما أكمل الكلام وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال : (هذا وان للطاغين شر مآب) وكما يقول ابن الاثير (وذلك من فصل الخطاب الذي هو اللفظ موقعا من التخلص) (١١٣) . كما يأتي بأشعار وردت فيها لفظة (هذا) لكنها ما جئة وينتهي الى حكم عام خلاصته أن الاقتضاب في الشعر لا يحصى ، بخلاف التخلص الذي هو بالنسبة الى الاقتضاب قطرة من بحر ، كما أن التخلص يأتي في شعر الشاعر المجيد قليلا أما الاقتضاب فهو كثير في شعر الشعراء ، من ذلك قول أبي نواس فبينما هو يصف الخمر ويقول :

فاسقني كأسا على عذل . . . كرهت مسموعة اثنى
من كميت اللون صافية . . . خير ما سلسلت في بدني
ما استقرت في فؤاد فتى . . . فدرى مالموعة الحزن

حتى قال :

تضحك الدنيا الى ملك : قام بالاثار والسنن
سن للناس الندي فندوا : فكان البخل لم يكن

فامتدح بعد وصف الخمر مقتضبا ، ولذا فان ابن الأثير يخرج
بحكم عام على شعر ابي نواس قائلا (فأكثر مدائح ابي نواس
مقتضبه هكذا ، والتخلص غير ممكن في كل الاحوال وهو من
مستصعبات علم البيان) (١١٤) •

الالتفاتات

هذا الفن من فنون البلاغة يتناوشه علما من علوم البلاغة هما
المعاني والبديع فاما ان البديع يبحث فيما يكسب الكلام زخرفا
وابداعا ، فان الفائدة المرجوة من الالتفاتات هي كسب الكلام طلاوة
وزخرفا وابدعا لان السامع عند ما يسمع احدى صور الالتفاتات
فانه يجد لذلك التحويل لذة وممتعة لا يجدها للكلام عندما يخلو
من الالتفاتات ، ولما فيها من الجودة والطرافة فيشجذ فكره وينشط
عقله وخياله لفهم مرامي الصورة الالتفاتية ، وتبعا لذلك فان لعلم
البديع نصيبا في الالتفاتات •

وايضا علم المعاني فانه يقضى بتطبيق الكلام على مقتضى
الحال ، فاذا نظرنا الى الشق الاخر من الالتفاتات — أعنى ما يكون
من قوائده — لوجدنا أن صور الالتفاتات تتطلب مزيدا من اصغاء

السامع ، والمقام يقتضى أيضا جذب اهتمام السامع لعظم المقام ،
أو لخطر شأنه ، كأن يكون المقام مدحا فى عظيم ، أو بيان دليل
ومن ثم يكون الالتفات مبحثا من مباحث علم المعانى •

ولذا فان من اعتبره من مباحث علم البديع نظر الى كون
الالتفات يكسب الاسلوب طرافة وزخرفا ، ومن اعتبره رافدا من
روافد المعانى نظر الى أنه يراعى المقام الذى سيق فيه •

وان كنت أرى أنه بعلم البديع ألحق لأن علم البديع كما هو
معروف العلم الذى يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية
تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة ، فهذا دليل على أن
البديع يأتى بعد أن يكون المتكلم قد طبق شروط علمى المعانى
والبيان ، أى مقتضى الحال ووضوح الدلالة ومن ثم فان منزله
علم البديع بعد منزلة علمى المعانى والبيان • وهذا ما يحدث فى
الالتفات فانه يراعى مقتضى الحال ، ثم يدبج ويزخرف الاسلوب
بعد ذلك •

ومهما يكن من أمر فان هذا الفن واضح ظاهر فى ذهن ابن الاثير
وكما سوف يتضح لنا فانه حق له أن يتيه على غيره بدراسته له (١١٥)
ويسميه شجاعه العربية ، اسوة بالشجاعة الحسية لدى الانسان
الشجاع بل هو فى نظره خلاصة علم البيان مع أشياء أخرى مماثل •

تعريفه : يعرفه ابن الاثير بأنه الانتقال من صيغة الى أخرى ،
كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب ، أو غائب الى حاضر ، أو من

فعل ماض الى مستقبل أو من مستقبل الى ماض (١١٦) • أو أن يكون المتكلم فى كلام فيعدل عنه الى غيره قبل أن يتم الاول ثم يعود اليه فيقتمه فيكون فيما عدل اليه مبالغة فى التأكيد وزيادة فى الاعتناء به (١١٧) •

وأقسام هذا الفن متناثره بين كتبه ، فكل منها يكمل الآخر ، وبعد دراسة متأنية لهذا الفن عنده وبعد جمع شتاته وجدناه ينقسم عنده الى قسمين كبيرين :

اولا : قسم خاص بالافعال ، وكيف يكون الالتفات والانتقال بينها •

وثانيا : قسم خاص بالاسماء وكيف يتم الالتفات فيها •

وتبعا لذلك فاننا سوف ندرس الالتفات دون اعتبار لأقسامه لكن بالنظر الى هذين القسمين ، وما يندرج تحت كل قسم مما استخلصناه من دراستنا لكتبه ونبدأ أولا بالافعال :

اولا : الالتفات فى الأفعال : وهو ما يتم بين أقسام الفعل الثلاثة الماضى ، والمضارع والامر ، وقد عبر عن المضارع بالمستقبل قاصدا به ذلك النوع من الافعال وهو :

١ - الرجوع من الفعل المستقبل الى فعل الأمر : وليس الهدف

(١١٦) المثل السائر ج ٢ ص ٤ والجامع الكبير ص ٩٨ •

(١١٧) المفتاح للنشأ ص ٣١٤ •

من هذا النوع هو التوسع فى الكلام ، بل ثمة هدف اكبر من ذلك وأبلغ ، اذ القصد من ذلك بالاضافة الى ما تقدم تضخيم حال من أجرى عليه فعل الامر • وتعظيمه ، وعليه جاء قوله تعالى حكاية عن قوم هود (يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى اشهد الله ، واشهدوا انى برىء مما تشركون) ، فسياق الكلا يقضى بأن يقول انى اشهد الله واشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه ، غير أنه عدل عن هذا لان اشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما اشهادهم ، فما هو الا تهاون بهم وقلة اكتراث لامرهم ، فلاختلاف ما بينهما عدل عن المضارع الى الامر فقال : واشهدوا (١١٨) •

٢ — الرجوع عن الفعل الماضى الى فعل الامر ، وتأتى هذه الصيغة توكيدا لما أجرى عليه فعل الامر لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى (قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) فرجع عن الماضى الى الامر فقال : (أمر وأقيموا وادعوه أى للعناية بتوكيده فى النفوس لان الصلاة أوكد فرائض الله على خلقه ، ثم أتبعها بالاخلاص الذى هو عمل القلب) (١١٩) •

٣ — الاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، فالمضارع اذا

(١١٨) المثل السائر ج٢ ص ١٤ والجامع الكبير ص ١٠١ •

(١١٩) المرجع السابق ص ١٤ •

جىء به فى حالة الاخبار عن وجود الفعل كان أبلغ من الاخبار
بالفعل الماضى ، وذلك لان الفعل المضارع يوضح الحال التى يقع
فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وان الفعلين
يشتركان فى ذلك ، الا أن الفعل المضارع أوكد وأشد تخيلا لأن
السامع يستحضر صورة الفعل حتى كأنه ينظر الى الفاعل فى حالة
وجود الفعل منه ، وذلك كقوله تعالى (والله الذى أرسل الرياح
فتثير سحابا ، فسقناه الى بلد ميت ، فأحيينا به الارض بعد موتها ،
كذلك النشور) ، فبالرغم من تقدم الفعل الماضى وهو «أرسل»
وتأخره أيضا وهو «أحيا» الا أنه أخبر بالمضارع عن الماضى
فقال تثير فهو حكاية الحال التى يقع فيها اشارة الريح السحاب ،
كما أن فيه استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على الله سبحانه
وهكذا يفعل بكل فعل فيه تمييز وخصوصية كحال تستغرب أوتهم
المخاطب ، ومثله قول تأبط شرا فى قتله الغول :

يأتى قد لقيت الغول تهوى :: بسهب كالصحيفة صحصان
فأضربها بلا دهش فخرت :: صريعا لليعين ، وللجران

فأخبر عن الماضى بالمضارع فقال « فأضربها » لانه أراد أن
يصور لقومه الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم
اياها مشاهدة للتعجب من جراته فلو قال ، فضربت بها بالماضى عطفًا
على لقيت لزالَت هذه الفائدة المذكورة ، فهو بهذا دعى السامع
الى أن يتخيل قيامه بالضرب وأمامه الغول وقد رفع السيف ليضربها
ولن يتم هذا الا اذا كان التعبير عنه بالمضارع ، بدلا من الماضى (١٢٠) .

٤ — الاخبار عن الفعل المضارع بالماضى ، وفائدة ذلك أن الفعل الماضى اذا اخبر به عن الفعل المضارع الذى لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأؤكد فى تحقيق الفعل وايجاده ، لان الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد ، وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المضارع من الاشياء العظيمة التى يستعظم وجودها ، تلك التى لم توجد ، والامور المتعظمة التى لم تحدث فينزل منزلة ما كان وما وجد فالغرض بذلك تبين هيئة الفعل واستحضار صورته لتظهر أمام السامع وكأنه يعاينها أو يشاهدها ، وهذا هو الفرق بين هذا النوع وبين سابقة ، وأمثلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض) ، فقال « ففزع » بالماضى بعد ما قال « ينفخ » بالمضارع وذلك للاشعار بتحقيق الفزع ، وهو واقع لا محالة ، فالتعبير بالماضى دل على وجود الفعل وأنه مقطوع بحدوثه (١٢١) *

٥ — الاخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع ، وقد أوردته فى أقسام الفعل ، وذلك لقرب اسم المفعول فى عمله من عمل الفعل ، لانه يحل محله ويتضمن معناه ، من ذلك قوله تعالى : (ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، وذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود) فأتى باسم المفعول لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لذلك اليوم (١٢٢) *

(١٢١) المثل السائر ج٢ ص ١٨ والجامع ص ٢٠٤ *

(١٢٢) المثل السائر ج٢ ص ١٩ *

ثانيا : فى الاسماء

١ — من الغيبة الى الخطاب : ويستعمل هذا الاسلوب للتفنن فى الكلام والاتساع فيه ، كما أن الانتقال من اسلوب لاسلوب فيه تطرية لنشاط السامع ، وايقاظا للاصغاء اليه ، هذا بالاضافة الى أنها تستعمل لتعظيم شأن المخاطب كقوله تعالى فى سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، اياك نعبدواياك نستعين، اهتدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب، ومن قوائده أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة ، والملك الخاص ، فعلم العالم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالخضوع له ، والاستعانة به فى المهمات ، فخطب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات ، فقل : اياك نعبد يا من يتصف بهذه الصفات أى نخصك بالعبادة ، والاستعانة ، ليكون أدل على العبادة ، لذلك التميز الذى لا تحقق العبادة الا به ، فان قوله (اياك نعبد ، واياك نستعين) بعد قوله (الحمد لله رب العالمين) عدول من الغيبة الى الخطاب للاتساع من ناحية ولان الحمد دون العبادة من ناحية أخرى ، فقد يحمّد الانسان للانسان صنيعا أو معروفا ، لذا استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال « الحمد لله » ولم يقل « الحمد لك » فلما وصل الى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال (اياك نعبد) فخاطب بالعبادة اصراحا بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء الى محدود منها •

أما آخر السورة فقد قال فيه (صراط الذين أنعمت عليهم)
فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال « غير المغضوب عليهم »
عطفا على الاول لان الاول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ،
فلما صار الى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب ، فأسند
النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحتنا ولطفنا •

ففى هذه قد انتقل فى أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم
شأن المخاطب وعكس فى آخرها فانقل من الخطاب للغيبة لتعظيم
شأن المخاطب أيضا ، لان مخاطبة الله سبحانه وتعالى بأسناد النعمة
اليه تعظيم لشأنه ، وخطابه ، كذلك ترك مخاطبته بأسناد الغضب اليه
تعظيم لخطابه (١٢٣) ومن هذا القبيل قول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح ؟ سقيت الغيث أيتها الخيام

(ذكر الخيام ثم شرع فى كلام آخر وهو قوله « بذى طلوح »
ثم التفت وقال : سقيت الغيث أيتها الخيام) (١٢٤) •

٢ - الرجوع من خطاب الغيبة الى خطاب النفس : كقوله
تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها ، وللارض
اتتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات
فى يومين ، وأوحى الى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا
بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) فقد التفت فيه من
الغيبة فى قوله تعالى (ثم استوى) ، وقوله (فقضاهن) وقوله

(١٢٣) المثل السائر ج٢ ص ٥ ، ص ٦ ، ص ٧ •

والجامع الكبير ص ٩٨ ، ص ٩٩ •

وأنظر المثل السائر ج٢ ص ٧ وتحليله للالتفات فى سورة الاسراء •

(١٢٤) المفتاح المنشأ ص ٣١٤ •

(وأوحى) الى التكلم فى قوله تعالى (وزينا) فالعدول من مخاطبة الغيبة الى مخاطبة النفس مهم من مهمات الاعتقاد ، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة ببطلان أن النجوم ليست فى السماء الدنيا ، وأنها ليست حفظا ولا رجوما (١٢٥) •

٣ — الالتفات من التكلم الى الخطاب كقوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون) فصرف الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم ، لانه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة ، وهو يريد منا صحتهم ليتطلف بهم ويداريهم ، لان ذلك أدخل فى امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه وقد وضع قوله (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ، ألا ترى الى قوله (واليه ترجعون) ولولا أنه قصد ذلك لقال الذى فطرنى واليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال (انى آمنت بربكم فاسمعون) (١٢٦) •

٤ — من الخطاب الى الغيبة : كقوله تعالى (حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) فقد صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة لفائدة ، فقد ذكر حالهم لغيرهم ، ليدفعهم على

(١٢٥) المثل السائر ج ٢ ص ٨ •

(١٢٦) المثل السائر ج ٢ ص •

التعجب منهم والانكار عليهم ، فلو قال : حتى اذا كنتم فى الفلك
وجرين بكم بريح طيبة ، وفرحتهم بها ، وساق الخطاب معهم الى
آخر الاية لذهبت تلك الفائدة الناتجة عن خطاب الغيبة (١٢٧) •

• — الرجوع من خطاب التنبيه الى خطاب الجمع ، ومن
خطاب الجمع الى خطاب الواحد :

كقوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما
بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر
المؤمنين » فقد نوع الخطاب فى هذه الآية الكريمة ، فثنى ، ثم
جمع ، ثم وحد ، فخطب موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة
والاختيار ، ثم ساق الخطاب لهما باتخاذ المساجد ، واقامة الصلاة
ثم خص موسى بالبشارة التى هى الغرض ، تعظيما له وتفضيما
لامره لأنه هو الرسول على الحقيقة (١٢٨) •

مما يتقدم يتضح لنا القول فى الالتفات ، وكان ابن الاثير
موفقا عندما نعته بأنه من شجاعة العربية تشبيها لها بالانسان
الشجاع وقد حصره فى اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، وهو
بجانب ما يفيد من الاتساع فى الكلام فانه يساق لأغراض خاصة
كالتعظيم والتفخيم ، بالاضافة الى أنه يكسو الكلام طلاوة ، كما
أن الكلام اذا نقل من اسلوب لآخر كان أحسن نظرية لنشاط السامع

(١٢٧) المثل السائر ج٢ ص ١٢ والجامع الكبير ص ١٠٠

(١٢٨) الجامع ص ١٠١ ، ١٠٢ •

وايقاظا للاصغاء اليه ، عكس اجرائه على اسلوب واحد ونمط متشابه ، ولذا يقول عنه ابن الاثير انه خلاصة علم البيان (التي حولها يدندن واليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن) (١٢٩) .

السـرقات الشعرية

تناشرت دراسة ابن الاثير لهذه القضية عبر كتبه ، ألا أنه قد خصص لدراستها كتاب « الاستدراك فى الأخذ على المآخذ الكندية من المعانى الطائفة » (١٣٠) ولكن دراسته للسـرقات فى هذا الكتاب دراسة غير كافية فانه تكلم فيه عن النسخ ، والسلخ ، والمسـخ فقط ، ولقد استدرك على نفسه بعد ذلك فتناول نوعين آخرين من السـرقات كما سوف نوضح ، يقول : (واعلم أن علماء البيان قد تكلموا فى السـرقات الشعرية فأكثر ، وكنت ألفت فيه كتابا ، وقسمته ثلاثة أقسام : نسخا ، وسلخا ومسـخا) (١٣١) . وهذا دليل على أنه ألفه قبل المثل السائر

تناول هذه المشكلة فى كتبه متناثرة الا أن أوفى دراسة لها عنده كانت فى المثل السائر ، أما دراسته لها فى الجامع الكبير أوالمفتاح المنشأ فليست بالعمق الذى هى عليه فى المثل السائر ، فلم نجد التحليل والموازنة التى فى المثل ، بل دراسة متبورة مستوفزة تحت عنوان (الأخذ والسـرقة والاشارة الى الجيد من ذلك الذى لا بأس به ، والردىء الذى لا فسحة فى استعماله ، لانه عيب فى الكلام

(١٢٩) المثل السائر ج٢ ص ٤ .

(١٣٠) مشكلة السـرقات فى النقد العربى ص ١٢٧ .

(١٣١) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٥ .

فاحش (١٣٢) • وان كان منهجه وعرضه واحد ، فهو يميل الى الكثير من التقسيم والتبويب ، شأنه فى دراسته تلك كشأنه فى دراسته السابقة لفنون البلاغة •

وهناك دراسة قيمة استندت منها كثيرا عند معالجة هذا الفن كما سوف يتضح ، وهى دراسة مشكلة السرقات فى الادب العربى فقد تناول المؤلف أثناء عرضه لمناهج النقاد العرب فى بحث السرقات ، منهج ابن الاثير فى دراسة لهذه القضية عبر كتبه (١٣٣) •

يحدد ابن الاثير منذ البداية ، فائدة دراسة السرقات ، فهى توضح للشاعر كيف يأخذ المعانى من غيره، اذ لابد من الاخذ والسرقة غير أن الآخذ لابد له أيضا أن يعتمد على التورية والخفاء لما أخذ، فيكون أخذه أخفى من سفاذ الغراب (١٣٤) •

كما يقرر أيضا أن باب الابتداع مفتوح الى يوم القيامة ، فصياغة المعانى وابتداعها يتساوى فيه الشعراء ، فلا فضل لسابق على لاحق (لان الخواطر تأتى من غير حاجة لى اتباع الاخر) (١٣٥) ، وذلك مثل المعانى المقرورة التى تدولت بين الجميع وصارت معروفة شائعة ، كما يجىء فى الغزل ، أو فى المديح ، أو فى المراثى ، وفى النهاية يخلص الى أن المعنى العام ليس فيه سرقة ، بل تطلق السرقة فى رأيه على المعنى المخصوص ، أما ما شاع وانتشر بين القوم أو

(١٣٢) الجامع ص ٢٤٢ •

(١٣٣) انظر مشكلة السرقات ص ١٢٧ : ص ١٣٤ •

(١٣٤) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٢ •

(١٣٥) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٣ •

القبيلة فهذا من توارد الخواطر (ولعمري ان القوم اذا كانوا من قبيلة واحدة ، فان خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم تكون متقاربة) (١٣٦) • ومن ثم فليس هناك سرقة •

لكن الغريب أنه لم يثبت على قول في دراسته للسرقة ، فهو تارة يقول (والذي عندي في السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً من ألفاظ الأول في معنى من المعاني ، ولو لفظة واحدة ، فان ذلك من أول الدليل على سرقة) (١٣٧) وأخرى يرى (أن المعاني مشتركة بين أرباب هذه الصناعة ، وانما يتفاضلون في تركيبها ، واختلاف صورها) (١٣٨) ، وثالثة يرى أن هذا من توافق الخواطر وتواردها ولا شيء في ذلك ، (وأما الموارد : هي أن يتفق اختراع المنشئ لإنشاء من قبله من الأفاضل ، فذلك دليل على قوة انشائه وحسن خاطره) ويستدل على ذلك بأبيات للحطيئة ، أنشدها ابن ميادة فقال:

ونواره ميل الى الشمس ظاهرة

ف قيل لابن ميادة هذا الحطيئة قال : أكذلك هو ؟ قيل نعم • فقال الان علمت أنى شاعر ، ما سمعت بهذا الا الساعة (١٣٩) •

أما في الاستدراك فانه يتكلم عن عمود المعاني ، فالذى يخرج عن هذا العمود ، يكون معنى انفراد به الشاعر دون غيره ، ومن

(١٣٦) الجامع الكبير ص ٢٤٣ •

(١٣٧) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦٥ •

(١٣٨) الجامع الكبير ص ٢٤٤ •

(١٣٩) المفتاح المنشأ ص ٣١٧ •

يأخذه منه يكون سارقا له (١٤٠) ، أما المعانى التى لا يمكن أن تتشعب
عن هذا العمود فان قائلها بلغ النهاية فيها ، ولم يترك زيادة
لستريد ، ولذا علق عليه د. / هدارة قائلا (ومعنى هذا أن باب
الابتداع الذى قال عنه ابن الاثير انه مفتوح الى غير نهاية ، ليس
مفتوحا بالنسبة لجميع المعانى ، فهناك معان ضغطت مائيتها ولم
يبق الاول منها لالاخر ثمالة يضيف اليها رحيق فكره ، وأخرى لم
تستنفد لان الاوائل لم يلحوا عليها كثيرا بخيالهم) (١٤١) وهذا
محال ، فالقرائح تجود بما عندها ، كل حسب ثقافته واستعداده

كما رأى أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ
الاشعار الكثيرة التى لا يحصرها عدد فى عصور الادب المختلفة
وليس عصر دون عصر (فمن رام الاخذ بنواصيها ، والاشتغال
على قواصيها ، بأن يتصفح الاشعار تصفحا ، ويقتنع بتأملها ناظرا
فانه لا يظفر منها الا بالحواشى والاطراف) (١٤٢) * والدليل
على ما وجده ابن الاثير فى كل من دمشق سنة سبع وثمانين وخمسمائة
ومصر سنة تسع وتسعين وخمسمائة حيث وجد أهل المصريين
يلهجون بأبيات ويزعمون أنها من المعانى الغريبة التى عقت القرائح
بعدها أن تلد مثلها ، فأوقفهم على حقيقتها وأخبرهم بأن ابن الخياط
أخذ معناه من المتنبي ، وعمارة اليمنى أخذ معناه من أبى تمام (١٤٣)
ولم يبعد العهد والزمن لا بالمتنبي ، ولا بأبى تمام فكيف يكون الحال
لمن بعد عهده ، ودرس شعره *

(١٤٠) مشكلة السرقات ص ١٢٣ *

(١٤١) مشكلة السرقات ص ١٢٤ *

(١٤٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٦ *

(١٤٣) المرجع السابق ج٢ ص ٣٦٧

ولذا كانت عدته فى التأليف ، الوقوف من الشعر على كل ديوان ومجموع ، المحفوظ منه والمسموع ، فلما رآه بحرا لا يوقف على ساحله ولم تحص أسماء قائله ، اقتصر على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده ، فوجد ضالته المنشودة فى أشعار المتنبى فابى تمام والبحترى فهم عنده (لانت لشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء) (١٤٤) ولذى هداه لذلك ، النظر والاجتهاد ، وليس التفكير والاتفاق ، وبعد هذا التمهيص اختار دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والالفاظ ، وهذا عليه لاله لان الاخرى به أن يتناولها عند غيرهم من الشعراء ولكن يكفيه ما قدم فهو جهد محمود له .
فقد درس ، وقسم ، وفرع .

فقد قسم ابن لاثير السرقات الى أقسام خمسة ثم شعب وفرع من هذه الاقسام ما يأتى :

أولا — النسخ : ويقع على ضربين :

(أ) أخذ اللفظ والمعنى جميعا دون زيادة عليه ويسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس :

وقوفا بها صبحى على مطيهم . . يقولون لا تهلك أس وتحمل

(١٤٤) المثل السائر ج ٢ ص ٦٨ وان كان فى كتبه الاخرى لم يتقيد كثيرا بهذا القيد انظر الجامع مثلا ص ٢٤٤ وما بعدها .

فقد أخذه طرفه وخالف في لفظ واحد في فقال :

وقوفا بها صحبي على مطيهم ! . يقولون لا تهلك أسا وتجلد

وقد أكثر الفرزدق وجريير من هذا في شعرهما ، وأحيانا يتساويان لفظا بلفظ لدرجة قيل انهما كانا ينطقان في بعض الاحوال عن ضمير واحد ، وان كان ابن الاثير يستبعد ذلك (١٤٥) .

(ب) أخذ المعنى وأكثر اللفظ ، مثل قول قائل في مدح معبد المعنى :

أجاد طويس والسريجي بعده . وما قصبات السبق الا لمعبد

أخذه أبو تمام فقال :

محاسن أصناف المئين جمة . وما قصبات السبق الا لمعبد

الثاني السلخ : وهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذا ذلك من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ وقد قسمه الى أحد عشر ضربا (١٤٦) ، ويرى أن هذا التقسيم أوجبته القسمة ، وأقسامه هي : وأقسامه هي :

١ — أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو اياه ، وهذا من أدق السرقات مذهباً ، وأحسنها صورة ولا يأتي الا قليلا لان الشاعر يعميه على غير عارفه فتكون معرفة أن هذا

(١٤٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٢ .
(١٤٦) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٣ وان نص على أنه اثنا عشر ضربا لكنه لم يذكر الضرب الثاني عشر .

المعنى من ذاك عسرة غامضة ، فهو غير متبين الا لمن كان أعرق
 فى ممارسة الاشعار وغاص فى استخراج المعانى كقول الشاعر :

لقد زادني حبا لنفسي أننى : بغيض الى كل امرئ غير طائل

فأخذه المتنبى واستخرج منه معنى آخر إلا أنه شبيهه فقال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص . . . فهي الشهادة لي بأنني فاضل

وهذا النوع يتتوع بين الغموض والوضوح *

٢ - أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ،

ولا يكاد يأتى الا قليلا ، كما ينتوع بين الغموض والدقة والغرابة
كقوله عروة بن الورد :

وَمِنْ يَكْ مَثَلِي ذَا عِيَالٍ وَمَقْتَرًا . . . مَنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ

ليبلغ عذرا أو ينال رغبة . . . ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

أخذه أبو تمام فقال :

فتى مات بين الضرب والطعن مية : تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

٣ - أخذ المعنى وييسر من اللفظ ، وذلك من أقبح السرقات

وأظهرها شناعة على السارق ، وهذه المآخذ افتضح بها البحترى غاية

الافتتاح وتبعه في نفس الطريق فحول الشعراء ، من ذلك قول أبي

تمام :

فلم امدحك تفخيما بشعري . . ولكنى مدحت بك المديحا

فقد أخذه من قول حسان بن ثابت في مدحه للرسول ﷺ :

ما ان مدحت محمدا بمقالتى .: لكن مدحت بمقالتى محمدا (١٤٧)

ولذا يرى ابن الاثير في هذا الضرب أنه لا بد من مخالفة المتأخر المتقدم ، كأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر ، أو يوجز في لفظة أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته ، فإذا لم يفعل الشاعر ذلك ووضع ما أخذه واضحا بينا دلّ على نفسه بالسرقة كقول المتنبي :

لم يسلم الكرفى الاعقاب مهجته .: ان كان اسلمها الاصحاب والشيع

أخذه من قول أبى تمام من قصيدة على وزنها وقافيتها :

ما غاب عنكم من الاقدام اكرمه .: في الروع اذا غابت الانصار والشيع

فليس في السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة (١٤٨) •

٤ — وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يخرج حسنه عن حد السرقة لأنه من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداء أولى من أن يسمى سرقة كقول أبى الشيخ :

أجد الملامة في هواك لذيدة .: شغفا بذكرك فليملنى اللوم

الذى أخذه المتنبي فعكسه قائلا :

الحبه واحب فيه ملامه .: ان الملامة فيه من أعدائه (١٤٩)

• (١٤٧) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٧

• (١٤٨) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٩

• (١٤٩) السابق ج٢ ص ٣٨٠

٥ — أخذ بعض المعنى ، كقول علي بن جبلة :

وائل مالم يحوه متقدّم : : وان لئه آخر فهو تابع

فأخذ بعضه المتنبى فقال :

ترفع عن عون المكارم قدّره : : فما يفعل الفعالت الا عذاريا

فالمتنبى فعل مالم يفعله غيره ، أما ابن جبلة ، فانه أيضا فعل
مالم يفعله أحد ممن تقدمه أيضا ، وان نال منه الآخر شيئا فانما
هو مقتد به وتابع له .

٦ — وهو أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر ، كقول
المتنبى :

وملمومة زرد ثوبها : : ولكنّه بالقنماخمل

فقد أخذه من أبي نواس ، في قوله :

امام خميس أرجوان كانه : : قميص محوك من قنا وحياد

فتراد أبو الطيب على معنى أبي نواس ، فصار أحق منه به

٧ — وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة

الاولى وهذا هو الحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة (١٥٠)
كقول أبي تمام :

جذلان من ظفر حران ان رجعت .: مخصوبة منكم أظفاره يدمى
أخذه البحتري فقال :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها .: تذكرت القربى ففاضت دموعها
٨ — ان يؤخذ المعنى ويسبك سبكاً موجزاً ، وذلك من أحسن
السرقات ، لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم فى القول وسعة
باعه فى البلاغة ، كقول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته .: وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
أخذه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غماً .: وفاز باللذة الجسور

فبين البيتين لفظتان فى التأليف (١٥١) *

٩ — وينقسم الى قسمين :

(أ) أن يكون المعنى عاماً فيجعل خاصاً ، وهو من السرقات
التي يسامح فيها صاحبها (١٥٢) كقول الاخل (١٥٣) *

لأنه عن خلق وتأتى مثله .: عار عليك إذا فعلت عظيم

(١٥١) المثل السائر ج٢ ص ٣٨٨ *

(١٥٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٩٠ *

(١٥٣) والمشهور أنه لابی الاسود الدؤلى *

أخذه أبو تمام فقال :

الوم من بخلت يداه واغتدى .: للبخل نزيا ؟ ساء ذاك صنعا
فالاول نهى عن الاتيان بما ينهى عنه مطلقا ، وجاء بالخلق
منكرا فجعله شائعا فى بابيه ، أما أبو تمام ، فانه خصص ذلك بالبخل ،
وهو خلق واحد من جملة الاخلاق .

(ب) جعل الخاص عاما كقول ابى تمام :

ولو حاربت شول عذرت لقاحها .: ولكن منعت الدر والضرع حافل

أخذه المتنبى فجعله عاما :

وما يؤلم الحرمان من كف حارم .: كما يؤلم الحرمان من كفرانق (١٥٤)

١٠ — زيادة البيان مع المساواة فى المعنى ، وذلك بأن يؤخذ

المعنى فيضرب له مثال يوضحه كقول أبى تمام :

هو الصنع ان يجعل فنفع وان يرث .: فللريث فى بعض المواطن أنفع

فقد أخذه المتنبى فأوضحه بمثال ضربه له وقال :

ومن الخير بطة سبيك عنى .: أسرع السحب فى المسير الجهم

وهذا من المبتدع ، لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهذا

المعنى فى المثال المناسب له (١٥٥) .

(١٥٤) انظر المثل السائر ج٢ ص ٣٩٠ .

(١٥٥) انظر المثل السائر ج٢ ص ٣٩١ .

١١ — اتحاد الطريق واختلاف المقصد ، ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة ، فتخرج بهالى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر (١٥٦) فمما جاء منه قول النابغة:

إذا ما غزى بالجيش حلق فوقه .: عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيلة .: إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى توارد عليه كثير من الشعراء قديما وحديثا وأوردوه كثيرا فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته .: ثقة باللحم من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها .: فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وكلها معان لا تفاضل بينها الا من جهة السبك أولا يجاز فى اللفظ أما مسلم بن الوليد ، فقد أعرب فى هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده اليها فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها .: خوفا فانفسها اليك تطير
لو حاكمك فطالبتك بذلها .: شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم على غير فى هذا المعنى (١٥٧) وأيضا فهذا من المليح البديع لابن الاثير مما حدا بالدكتور / محمد هدارة الى القول :

(١٥٦) المثل السائر ج٢ ص ٣٩١

(١٥٧) المثل السائر ج٢ ص ٤٠٤

(ولا شك أن هذا الضرب جديد عند ابن الاثير ، اذ أن يخرج
عن حدود المعانى الجزئية فى البيت الواحد ، ليلمح تأثر الشعراء
بعضهم ببعض فى قصائدهم ذات الموضوع الواحد ، ينظر اليها
بوصفها وحدة ، ويتحسس التأثير والتأثير فى مجموع المعانى لا فى
مفرداتها • ويستطيع بهذه النظرة أن يدرك استيحاء المتأخر من
المتقدم ، ويفاضل بين شاعر وآخر ، ويتبين تطور المعنى من شاعر
لاخر ومن عصر لعصر ، وتلك هى الدراسة الجدية الحقيقية التى
يعنى بها النقد من وراء مشكلة السرقات) (١٥٨) •

ثالثا : المسخ وهو قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة ،
أى احوالة المعنى الى مادونه ، مأخوذا من مسخ الآدميين قردة (١٥٩)
وهذا من أرذل السرقات (١٦٠) كقول أبى تمام :

فتى لا يرى أن الفريضة مقتل . . . ولكن يرى أن العيوب مقاتل

وقول المتنبى :

يرى أن ما بان منك لضارب . . . باقتل ما بان منك لعائب

(فهو وان لم يشوه المعنى ، فقد شوه الصورة) (١٦١) •

أما الشق الاخر من المسخ وهو قلب الصورة القبيحة الى

(١٥٨) مشكلة السرقات ص ١٣١ •

(١٥٩) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٦ •

(١٦٠) السابق ص ٤١٠ •

(١٦١) السابق ص ٤١٠ •

صورة حسنة ، فانه لا يراها سريقة ، بل يراها اصلاحا وتهذيبا (١٦٢) وما دام الامر كذلك فانها ليست من المسخ فى شىء ، بل اصلاح لما أفسد على يد من لا يعى *

أما القسمان الاخيران ، وهما الرابع ، والخامس ، واللذان أخل بذكرهما فى كتابه الاستدراك وهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، وعكس المعنى الى ضده واكد أنه سوف يتناولهما فى المثل السائر فاننا لم نجد لهما ذكرا ، ولربما أنست ابن الاثير هذه الاقسام الكثيرة والتفريعات العديدة ذكر هذين القسمين ، وان كان أورد ضمن انواع الثانى وهو السلخ بعض الالوان التى تنطبق عليها تسمية هذين النوعين الا أن كلامه الذى ينص على أن هذين النوعين ليسا بنسخ ولا سلخ ، ولا مسخ (١٦٣) يدحض ذلك ، فأين اذن بقية الاقسام ؟ *

يبقى بعد ذلك لابن الاثير هذا الجهد العلمى النقدى الرائع الذى يدل مع الشق الاول وهو دراسة البلاغة على ذوق الرجل وعلمه ورسوخ قدمه فى مضمار النقد والبلاغة ، ويكفيه ما قدم ، ومن أراد المزيد ، فليبحث ولينقب شريطة أن يسير على الدرب دون كلل أو ملك *

وبهذا أيضا نكون قد أنهينا من دراسة ابن الاثير للبلاغة بفنونها الثلاثة المعانى والبيان والبديع ، وللحق فان للرجل نظرات صائبة وتذوق يخوق غيره كثيرا ممن تصدوا للتأليف البلاغى فقد

• (١٦٢) السابق ص ٤١١

• (١٦٣) السابق ص ٣٦٦

ناقش وعك ومثل وحل ونقد وصوب ، وأتى بمسميات لم يسبق اليها • كما أن البلاغة يجب أن تدرس كما قسمها الى صناعة معنوية وأخرى لفظية ، ولا كما هو معروف من علم معان وبيان وبديع لأن البديع يجب أن يضم الى فنى المعانى والبيان ، وقد رأينا صدق ذلك خاصة فى دراسة الألتفات ، فيكفى الرجل ما قدم •

وبهذا تنتهى دراسة الرجل لفنون الفصاحة والبلاغة ف ضرب فيها بسهم وافر وسبر أغوارها وغاص لججها فاستخرج دررها من محارها ونثرها فى كتبه سالفه الذكر كما نثرت فوق العروس الدراهم فازداد كل منهما جمالا بصاحبه ورحم الله ابن لاثير الجزرى على ما قدم للمكتبة العربية البلاغية من جهد يقف به على قدم المساواة مع من ألف فى البلاغة خاصة رجالات المدرسة الأدبية البلاغية •

الخاتمة

وبعد ... فهذا جهد ابن الاثير وهو جهد صادق سابق لم يسر فيه وفق منهج السكاكي أو غيره ممن درسوا البلاغة على أنها ثلاثة فنون ، بل قسمها هو الى الصناعة اللفظية ، والاخرى الصناعة المعنوية ، وأدرج تحت كل قسم منها ما يتصل به من عناصر بلاغية ، كما أنه لم يتقيد بالتسميات الموروثة . ونعتقد أنه أراد أن يدل الكتاب على اسس وقوام صناعتهم وهذا واضح من تسمية كتبه سواء المثل أو الجامع أو المفتاح فقد وضع فيهم أسس وأصول حرفة الكتابة فهي لم تفرد للبلاغة وحدها بل دمج الكتابة واصولها مع البلاغة .

ونحن اذا أقصينا ما يخص الكتابة — لأن ذلك بعيد عن البلاغة — لم نجد بدا من التقسيم الثلاثي للبلاغة حتى نضم شتات كل فن الى أصوله أو مع ما يناظره (فالحديث عن هذه الفنون البيانية يأتي عنده متداخلا على حسب ما تستدعيه طبيعة البحث) (١) .

ومن دراستنا لهذا الجهد الأصيل نقول ان الرجل كان مولعا بالتقسيم والتفريع ، والاعتداد بنفسه الى حد كبير ، وصل به الى أن يأخذ من غيره وينسبه لنفسه ثم يرمى غيره بالخطأ والخطأ وتلك صفة واضحة في ابن الاثير أدت به الى الوقوع في بعض الأخطاء نوهنا عنها في حينها وذلك — على سبيل المثال لا الحصر — مثل موقفه من دراسة المجاز وعييه على غيره والعييب فيه هو ،

(١) في البلاغة ص ٤٠ علم البيان دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٧٤ د. / عبد العزيز عتيق .

كما أنه لم يفرق بين التشبيه والتمثيل ، وقسمه من حيث اللفظ ،
ومن حيث المعنى كما أنه خلط أيضا بين الاستعارة والتشبيه مضمرا
الأداة ، كما أدخل المشاكلة ضمن الطباق والمقابلة وألحق الجمع مع
التفريق والتقسيم ضمن التقسيم ، وبالجمله فانه مزج كثيرا بين
الوان البديع بعضها وبعض كما أوضحنا ذلك في حينه • ولكن يكفى
الفاضل أن تعد أخطاؤه ، فانه اذا كان قد وجدت عنده بعض هذه
الهئات التى فرضها عليه المنهج الذى اختطه لنفسه فيكفيه دراسته
للفصاحة والبلاغة ونظراته الصائبة فيها ، وأيضا تفريقه بين
الكناية والتعريض ، كما أنه رأى ان الطباق جزء من المقابلة ولذا
يتوجب اقترانهما ببعضهما بعضا ، وأتى بشكل واضح وواعى للجناس
والمحلق بالجناس وفرق بينهما الى غير ذلك مع الكثير من التقسيمات
والتفريعات التى يلتقى فيها مع السكاكى أحيانا لكن البون شاسع
والفرق كبير ، لأن تفريعات ابن الأثير يلونها الفن والذوق الادبى
الرفيع ، أما تقسيمات السكاكى فيلونها المنطق ، ويكفى ابن الأثير
هذا •

المصادر والمراجع (١)

ابن الأثير : ابو الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد
بن الأثير *

— الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام ،
والمنثور تحقيق مصطفى جواد ، وجميل سعيد *
مطبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٦٥م *

— المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر طبع المطبعة
المصرية ببولاق سنة ١٢٨٢هـ *

— المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر * تحقيق
المرحوم محمد محبى الدين عبد الحميد ، مطبعة
الباب الحلبى بمصر سنة ١٩٣٩ *

— المفتاح المنشأ لحديقة الانشا * مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ٤٩٣٤ أدب *

— الوشى المرقوم فى حل المنظوم والمنثور * مطبعة
ثمرات الفنون بمصر سنة ١٢٩٨ *

ابن جنى :

— الخصائص * دار الهدى للطباعة والنشر بيروت
لبنان الطبعة الثانية *

(١) هذه هى أهم المصادر والمراجع التى عولنا عليها فى الدراسة :

أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي :

— جواهر الكثر : تحقيق د. / محمد زغلول سلام
منشأة المعارف بالاسكندرية •

أحمد الهاشمي :

— جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع الطبعة
الثانية عشرة •

الحسن بن عبد الله العسكري ، أبو هلال :

— الصناعتين : الكتابة والشعر ، طبع دار الكتب
العلمية ، بيروت ، لبنان طبعة أولى سنة ١٩٨١ •

الخطيب التبريزي :

— الكافي في العروض والقوافي ، تحقيق الحساني
حسن عبد الله ، طبع دار الجيل للطباعة بالقاهرة
لم تذكر سنة الطبع •

الخطيب القزويني :

— التلخيص في علوم البلاغة • شرح عبد الرحمن
البرقوقى • طبع دار الفكر العربى ، لبنان طبعة
ثانية سنة ١٩٣٢ •

— الايضاح في علوم البلاغة • دار الجيل بيروت
لبنان لم تذكر سنة الطبع •

الدسوقي سلامة :

— المدخل في علوم البلاغة مطبعة السعادة بمصر
سنة ١٩٥٦ طبعة ثالثة •

عبد القاهر الجرجاني :

- أسرار البلاغة في علم البيان • دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان سنة ١٩٧٨ •
- دلائل الإعجاز • دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٩٨٧ •

عبد اللطيف حمزة :

- القلقشندی فی کتابة صبح الأعشى عرض وتحليل سلسلة الأعلام • العدد ٨١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ •

عبد العزيز عتيق :

- فی البلاغة العربية — علم البيان — دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان سنة ١٩٧٤ •

عمرو بن بحر الجاحظ :

- البيان والتبيين دار الكتب العلمية بيروت لبنان لم تذكر سنة الطبع •

محمد مصطفى هدارة :

- مشكلة السرقات في النقد العربي المكتب الاسلامي ، الطبعة الثالثة ١٩٨١ •

محمد مرتضى الزبيدي •

- تاج العروس من جواهر القاموس منشورات دار مكتبة الحياة بلبنان •



الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
البلاغة عند ابن الأثير	١١
الفصاحة والبلاغة عند البلاغيين	٢٧
فصاحة الكلمة	٤٣
فصاحة الكلام	٥٥
فصاحة المتكلم	٦١
البلاغة	٦١
فصاحة الكلمة عند ابن الأثير	٦٥
فصاحة الكلام عند ابن الأثير	٨٢
دراسات ابن الأثير لفنون البلاغة	٩٥
علم المعاني	٩٨
الأسلوب الخبرى	٩٩
الأسلوب الانشائى	١٠٤
أحوال الاسناد	١٠٨
الايجاز والأطناب والمساواة	١١١
علم البيان	١٤٧
المجاز وعلم البيان	١٥١
التشبيه	١٥٦

الصفحة	الموضوع
١٦٧	الاستعارة
١٧٤	الكتاية والتعريض
١٨٥	البديع
١٨٨	المحسنات المعنوية
١٨٨	الطباق والمقابلة
١٩٣	المشاكلة
١٩٥	التقسيم
١٩٧	اللف والنشر
١٩٩	الاقتصاد والأفراط والتفريط
٢٠٤	التجريد
٢٠٧	التورية
٢٠٩	الارصاد
٢١٢	العكس والتبديل
٢١٥	المحسنات اللفظية
٢١٥	الجناس
٢٢١	السجع والازدواج
٢٢٥	التصريع
٢٢٨	القرصيع
٢٣٠	التوشيح
٢٣٢	الموازنة

الصفحة	الموضوع
٢٣٤	لزوم مايلزم
٢٣٦	براعة الاستهلاك
٢٤٠	التخلص والاقتضاب
٢٤٦	الالتفاتات
٢٥٦	السرققات الشعرية
٢٧١	الخاتمة
٢٧٢	المصادر والمراجع

« تم بحمد الله »

مجلد	١
عدد الصفحات	١٠٠
عدد النسخ	١٠٠
عدد النسخ المطبوعة	١٠٠
عدد النسخ المخطوطة	١٠٠
عدد النسخ المخطوطة	١٠٠
عدد النسخ المخطوطة	١٠٠
عدد النسخ المخطوطة	١٠٠

رقم الايداع ٤٣١٨ / ٨٦

الترقيم الدولي : ٧ - ٠١٥ - ١٥٤ - ٩٧٧

مطبعة الاشعاع الفنية
 لها جميعها، الخايم يوسف (ابن لايم الرقعي)
 العمرة البلد - بخري - شارع مسجد الأوقاف

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
 مكتبة الاسكندرية

مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina



0297579